النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



الجَريمَة النّائِمَة

٧٧

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

أغاثا كريستي

الجَريمَة النّائِمَة

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٦ بعنوان
Sleeping Murder

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الثانية

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

الجَريمَة النّائِمَة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٦

ترجمة : نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

البحث عن بيت

وقفت غويندا ريد على أرض رصيف الميناء ترتجف قليلاً. كانت أحواض السفن وأبنية الجمارك وكل ما يمكن أن تراه من إنكلترا يتموج صعوداً ونزولاً. وفي تلك اللحظة بالذات اتخذت قرارها، ذلك القرار الذي قُدّر له أن يؤدي إلى مثل هذه الأحداث الخطيرة: لن تستقلّ القطار الذي ينتظر قاربها إلى لندن كما كانت تعتزم.

ما الذي يدفعها إلى ذلك؟ لا أحد ينتظرها ولا أحد يتوقع قدومها. لقد نزلت لتوّها من تلك السفينة التي تَصِرّ في أثناء صعودها وهبوطها. كانت أياماً ثلاثة قاسية جداً عبر الخليج وصولاً إلى بلايموث، وكان آخر ما تريده هو ركوب قطار يتأرجح في صعوده وهبوطه أيضاً.

سوف تذهب إلى فندق، إلى فندق رائع ثابت راسخ يقف على أرض حقيقية صلبة، وستأوي إلى سرير لذيذ ثابت لا يصِرّ ولا يتمايل، وسوف تنام. وفي صباح اليوم التالي... نعم، يا للفكرة

الرائعة! سوف تستأجر سيارة وتسوق ببطء دون أن تستعجل نفسها عبر جنوب إنكلترا باحثةً عن بيت، عن بيت جميل خطّطت هي وغايلز للعثور عليه. نعم، إنها فكرة رائعة! وبهذه الطريقة يمكنها أن ترى شيئاً من إنكلترا، إنكلترا التي حدّثها غايلز عنها ولم ترَها من قبل، مع أنها -كمعظم النيوزيلنديين- تدعوها وطناً.

في تلك اللحظة لم ترَ إنكلترا جذّابة بشكل خاص؛ فقد كان يوماً كئيباً سماؤه ملبّدة تنذر بالمطر مع ريح حادة مزعجة. وفكرت غويندا وهي تتقدم في الطابور المنتظم باتجاه معبر الجوازات أن بلايموث ربما لا تكون أفضل مناطق إنكلترا.

لكن مشاعرها كانت مختلفة تماماً في صباح اليوم التالي. كانت الشمس مشرقة والمنظر من نافذتها فاتناً، ولم تعد الدنيا تتماوج وتتهادى بل لقد رسخت تماماً. ها هي إنكلترا أخيراً، وها هي تقف هنا، غويندا ريد، شابةً متزوجة في الحادية والعشرين من عمرها تقوم برحلاتها.

لم تكن عودة غايلز إلى إنكلترا مؤكدة؛ ربما تبعها بعد بضعة أسابيع وربما امتدت الفترة إلى ستة أشهر. كان اقتراحه أن تسبقه غويندا إلى إنكلترا وتبحث عن بيت مناسب، فقد فكر كلاهما أنه من الجيد أن يكون لهما موئل ثابت دائم في مكان ما، ذلك أن عمل غايلز يتطلب دوماً قدراً من السفر، ويمكن لغويندا أن ترافقه أحياناً لكن الظروف قد لا تساعد على ذلك في أحيان أخرى. لقد أحبّا فكرة امتلاك بيت، مكانٍ يكون ملكهما الخاص. وقد ورث غايلز مؤخراً بعض الأثاث من عمة له بحيث تجمعت الأسباب لتجعل

الفكرة معقولة وعملية. وبما أن غويندا وغايلز كانا على درجة من الغنى فإن المشروع لم تعترضه أية صعوبات.

كانت غويندا قد اعترضت في البداية على مسألة اختيارها البيت بمفردها وقالت: "ينبغي أن نقوم بذلك معاً". لكن غايلز قال ضاحكاً: "ليست لي خبرة واسعة بالبيوت، وإذا ما أعجبكِ بيتٌ ما فسوف يعجبني بالتأكيد. مع حديقة صغيرة طبعاً، على أن لا يكون من تلك الأنواع الحديثة المخيفة ولا يكون كبيراً جداً. وفكرتي أن يكون في مكان ما على الساحل الجنوبي أو أن لا يكون -في كل الأحوال- متوغلاً كثيراً داخل البلاد".

وسألته غويندا: "هل في ذهنك أي مكان معين؟"، فأجابها غايلز بالنفي. كان قد تيتم صغيراً -مثلها تماماً- وتنقّل بين عدة أقارب لقضاء العطلات، ولذلك لم يكن لديه أي ارتباط خاص بأية بقعة معينة. سيكون البيت من اختيار غويندا إذن، فلو كانت ستنتظره حتى يتمكنا من اختيار المنزل معاً فماذا يحدث لو تأخر ستة أشهر؟ ماذا ستفعل غويندا بنفسها كل هذا الوقت؟ هل تبقى متسكعة في الفنادق؟ لا، كان عليها أن تجد بيتاً وتستقر فيه.

وعلقت غويندا قائلة: أنت تريدني أن أقوم بالعمل كله!

لكنها أحبت فكرة العثور على بيت وتحضيره وجعله دافئاً مريحاً والسكنى فيه بانتظار عودة غايلز. لقد تزوجا منذ ثلاثة أشهر فقط، وهي تحبه حباً جماً.

* * *

طلبت غويندا إفطاراً لغرفتها، وبعد الإفطار رتبت خططها وانطلقت من الفندق. أمضت يوماً في رؤية معالم بلايموث التي أعجبتها، وفي اليوم التالي استأجرت سيارة دايملر مريحة وسائقاً وبدأت رحلتها عبر إنكلترا.

كان الطقس جيداً فاستمتعت بجولتها، ورأت العديد من المساكن المعروضة في منطقة ديفونشاير ولكنها لم تشعر بأن أياً منها كان المنزل المطلوب تماماً، ولم تكن في عجلة من أمرها فقررت الاستمرار في بحثها. لقد تعلمت أن تقرأ ما بين السطور في الأوصاف الحماسية التي يضعها وكلاء العقارات، ووفّرت على نفسها عدداً من جولات المعاينة العقيمة.

بعد نحو أسبوع وفي أمسية أحد أيام الثلاثاء انحدرت السيارة بهدوء في الطريق الملتوي حول التلال باتجاه ديلماوث، وفي ضواحي ذلك المصيف الذي ما زال ساحراً عبرت السيارة لوحة «للبيع»، حيث بدت من خلال الأشجار لمحة لبيت أبيض فكتوري الطراز. وشعرت غويندا فوراً بخفقة إعجاب يكاد يكون إدراكاً وتمييزاً؛ هذا هو بيتها! كانت متأكدة من ذلك. بوسعها أن تتصور الحديقة والنوافذ الطويلة... كانت واثقة أن هذا البيت هو ما كانت تبحث عنه تماماً.

كان الوقت متأخراً فأوت إلى فندق «رويال كلارينس»، وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى مكتب العقار الذي كُتب اسمه على لوحة البيع.

وقفت الآن وقد تسلّحت بإذن لمعاينة المنزل في غرفة

الاستقبال الطويلة ذات الطراز القديم بنافذتَيها المطلتين على مَصطبة حَجَرية تقع أمامها كومة صخرية اصطناعية تناثرت عليها شُجيرات مُزهِرة وامتدت خلفها مساحة عشبية، ومن خلال الأشجار في آخر الحديقة كان يمكن رؤية البحر.

فكرت غويندا مع نفسها قائلة: إنه منزلي، إنه بيتي؛ أشعر منذ الآن وكأنني أعرف كل ركن فيه.

فُتح الباب وظهرت امرأة طويلة القامة كئيبة المظهر مصابة بالرشح، ودخلت وهي تنشق بأنفها. قالت غويندا: السيدة هينغريف؟ لديّ إذن من السادة في شركة غالبرايث وبيندرلي. أخشى أن يكون الوقت مبكراً.

جاملتها السيدة هينغريف قائلة إن الوقت مناسب، ثم بدأت الجولة في المنزل.

نعم، كان مناسباً تماماً وليس بالغ الضخامة. صحيح أنه قديم الطراز قليلاً لكنها وغايلز يمكن أن يجهّزا حماماً آخر أو حمامين، كما يمكن تحديث المطبخ الذي يحوي -لحسن الحظ- موقداً غازياً حديثاً. فإذا ما أضيف مجلى جديد وتجهيزات حديثة...

ومن خلال خطط غويندا ومشاغلها مضى صوت السيدة هينغريف رتيباً ضعيفاً وهو يسرد تفاصيل المرض الأخير الذي ألمّ بالرائد الراحل هينغريف. كانت عائلة السيدة هينغريف تعيش كلها في كنت وكانت هي توّاقة لأن تذهب وتستقر قربها، وكان الرائد مغرماً جداً بديلماوث وكان سكرتيراً لنادي الغولف لعدة سنوات، ولكنها هي...

كان نصف عقل غويندا يتولى إصدار الأصوات المطلوبة للمواساة والتعاطف والتفهم: "نعم، طبعاً... فظيع بالنسبة لك... هذا طبيعي جداً... نعم، رعاية البيوت هي هكذا بالفعل... طبعاً... أكيد أنك كنت كذلك..."، أما النصف الآخر من عقلها فقد كان محموماً بالأفكار: خزانة للبياضات والشراشف هنا، أظن... نعم، غرفة مزدوجة. منظر رائع على البحر، سيحبّ غايلز ذلك. والحمام، أظن أن للحمام حاشية من خشب الماهوغني. آه، نعم، ما أروعه! والمغطس في وسطه؟ لن أغير ذلك، إنه قطعة أثرية. يا له من حمام ضخم! بوسع المرء أن يرسم على الحواشي الخشبية أشجار تفاح ومراكبَ مبحرة وبطاً سابحاً، ويمكنك أن تشعر أنك في البحر، نعم. وسنجعل من تلك الغرفة الخلفية الاحتياطية المظلمة حمّامين عصريين فعلاً، وينبغي تمديد الأنابيب بشكل جيد فوق المطبخ وإبقاء هذا الحمام كما هو تماماً...

كانت السيدة هينغريف تقول: ذات الجنب، وتطورت في اليوم الثالث إلى ذات الرئة المزدوجة...

وأجابتها غويندا: يا له من أمر فظيع! ولكن ألا توجد غرفة نوم أخرى في نهاية هذا الممر؟

كان هناك غرفة بالفعل، وكانت الغرفة من ذلك النوع الذي تخيلته تماماً؛ تكاد تكون مستديرة وفيها نافذة كبيرة مقوّسة. سيتوجب عليها أن ترتبها طبعاً. صحيح أنها كانت في حالة جيدة تماماً، ولكن ما الذي يدفع أناساً كالسيدة هينغريف إلى أن يحبّوا هذا النوع من طلاء الجدران ذي اللون الآجرّي الباهت؟

عادت المرأتان أدراجهما عبر الممر، وتمتمت غويندا بتدقيق: ستة، أو سبعة غرف إذا حسبنا الغرفة الصغيرة والعليّة.

كانت الألواح الخشبية تصدر صريراً ضعيفاً تحت قدميها، وكانت تشعر أنها هي التي سكنت هنا وليس السيدة هينغريف! شعرت أن السيدة هينغريف كانت مجرد متطفلة، مجرد امرأة تطلي جدران الغرف باللون الآجرّي وتحب الأفاريز المنقوشة برسوم النباتات المتسلقة في غرفة استقبالها. وألقت غويندا نظرة على الورقة المطبوعة في يدها والتي تحتوي على تفاصيل العقار والسعر المطلوب.

في غضون الأيام الماضية باتت غويندا مطّلعة بشكل جيد على أسعار المنازل. لم يكن المبلغ المطلوب كبيراً، رغم أن المنزل كان بحاجة إلى قدر معين من التحديث بالطبع. وقد لاحظت عبارة «قابل للتفاوض»؛ لا بد أن السيدة هينغريف تتوق للذهاب إلى كِنت والسكن قرب عائلتها.

كانتا تهمّان بنزول الدّرَج عندما شعرت غويندا فجأة بموجة من الرعب الغامض تجتاحها. كان إحساساً مقزّزاً ومضى بنفس السرعة التي جاء فيها! ومع ذلك فقد ترك خلفه فكرة جديدة.

سألت غويندا: هل هذا المنزل مسكون بالأرواح؟

نظرت السيدة هينغريف التي كانت تسبقها بدرجة أدنى، وكانت قد وصلت في قصتها إلى اللحظة التي كان فيها الرائد هينغريف يدنو من مَنيّته بسرعة، نظرت وكأنها تشعر بالإهانة وقالت:

لا ، لم أرَ شيئاً من هذا القبيل يا سيدة ريد. لماذا؟ هل قال لك أحدٌ شيئاً من هذا النوع؟

سألتها غويندا: ألم تشعري أنت أو تري أي شيء من ذلك قط؟ ألم يَمُت أحدٌ هنا؟

ثم فكرت بأنه سؤال غير موفق. لقد جاء متأخراً لحظات قليلة لأنه يفترض أن الرائد هينغريف...

قالت السيدة هينغريف بإصرار: لقد توفي زوجي في مشفى سينت مونيكا.

- آه طبعاً، لقد قلت لي ذلك.

ثم تابعت السيدة هينغريف بنفس الأسلوب الفاتر الهادئ: هذا بيت يُفترَض أنه قد بُني قبل مئة سنة ، ومن الطبيعي أن تكون قد حدثت حالات وفاة فيه خلال تلك المدة. لكن الآنسة إلوورثي (التي اشترى زوجي العزيز منها هذا المنزل قبل سبع سنوات) كانت في حالة صحية ممتازة، بل كانت في الواقع تخطط للسفر إلى الخارج ، ولم تأتِ على ذكر أية وفَيَات في عائلتها.

أسرعت غويندا لتهدئة السيدة هينغريف المكتئبة. كانتا قد عادتا إلى غرفة الاستقبال في تلك اللحظة ، وكانت تلك غرفة هادئة رائعة يسود فيها ذلك الجو ذاته الذي تشتهيه غويندا. عندئذ بدا ذعرها الخاطف مسألة غامضة غير مفهومة. ما الذي انتابها؟ لم يكن في المنزل أي عيب.

استأذنت غويندا السيدة هينغريف أن تُلقي نظرة على الحديقة ،

ثم خرجت عبر الباب الزجاجي إلى المصطبة. وفكرت وهي تنزل من المصطبة إلى الأرضية العشبية أنه ينبغي وجود دَرَج هناك، ولكن بدلاً من الدرج كانت توجد شُجيرة فورسيثيا ضخمة مرتفعة، كانت في ذلك المكان بالذات وقد تجاوزت حجمها الطبيعي وسدّت كل إطلالة على البحر.

هزّت غويندا رأسها؛ سوف تغيّر ذلك كله.

مضت خلف السيدة هينغريف عبر المصطبة، وانحدرت بضع درجات في طرفها الأخير إلى الأرض العشبية. لاحظت أن الكومة الصخرية الاصطناعية كانت مهمَلة بحيث نمت نباتاتها أكثر من المطلوب وأصبحت معظم الشجيرات المزهرة عليها بحاجة إلى تقليم، وتمتمت السيدة هينغريف معتذرة بأن الحديقة قد تم إهمالها، إذ لم يكن بوسعها أن تستأجر أكثر من رجل يأتي مرتين في الأسبوع، وكان لا يأتي في أغلب الأحيان.

وأخيراً قامتا بمعاينة حديقة المطبخ الخلفية المناسبة رغم صغرها ثم عادتا إلى المنزل. شرحت لها غويندا بأن لديها بيوتاً أخرى عليها أن تراها وأنها رغم أنها أحبت «هيلسايد» كثيراً (ويا له من اسم لهذا المنزل!) إلاّ أنها لا تستطيع اتخاذ قرار فوري، فودّعتها السيدة هينغريف بنظرة باهتة وبنشقة من أنفها.

عادت غويندا إلى وكلاء البيت وقدّمت عرضاً نهائياً خاضعاً لتقرير مسّاح الأراضي، ثم أمضت بقية الصباح تتمشى في ديلماوث. كانت بلدة صغيرة ساحلية رائعة قديمة الطراز، وكان في طرفها الآخر البعيد الحديث فندقان جديدان وبعض الشاليهات

المستحدَثة، ولكن التشكيل الجغرافي للساحل الذي تمتدّ التلال من خلفه أنقذ ديلماوث من التوسع المفرط.

تلقت غويندا بعد الغداء مكالمة هاتفية من الوكلاء تقول إن السيدة هينغريف قَبِلت عرضها، فمضت غويندا إلى مكتب البريد تعلو شفتَيها ابتسامةُ فوز وأرسلت برقية إلى غايلز: «اشتريت بيتاً. مع حبي. غويندا».

ثم قالت لنفسها: سوف يسعده هذا كثيراً ويريه أنني لست مَن يدع الفرصة تمر دون المسارعة إلى اقتناصها.

* * *

الفصل الثاني
ورق الجدران

-١-

مضى شهر وانتقلت غويندا إلى «هيلسايد»، وخرج أثاث عمة غايلز من مخزنه وتم ترتيبه في أنحاء المنزل. كان أثاثاً ذا نوعية قديمة جيدة باعت غويندا منه خزانتَي ملابس بالغتَي الضخامة، ولكن الباقي توزّع بشكل مناسب جميل منسجم مع البيت. وُضِعت في غرفة الاستقبال طاولتان صغيرتان زاهيتان مرصعتان بعرق اللؤلؤ رُسمت عليهما قلاع وأزهار، كما كان هناك مكتب أنيق صغير ومكتب من خشب الورد ومنضدة أريكة من خشب الماهوغاني. أما الكراسي المريحة فقد وزعتها غويندا على غرف النوم المختلفة، واشترت لها ولغايلز كرسيين ضخمين وثيرين مريحين جداً ليوضعا قرب الموقد، فيما وضعت الأريكة الطويلة الضخمة قرب النوافذ. وبالنسبة للستائر اختارت غويندا قماشاً قطنياً قديم الطراز ذا لون أزرق باهت رُسِمت عليه جِرار جميلة عليها ورود وطيور صفر. وهكذا صارت الغرفة مناسبة تماماً فيما رأت.

ومع ذلك فإنها لم تستقرّ بعد، إذ ما يزال العمال في البيت. كان يجب أن يفرغوا من عملهم ويغادروا، ولكن غويندا قدّرت بشكل صائب أنهم لن يذهبوا حتى تذهب هي بنفسها لتقيم في المنزل.

انتهت التغييرات في المطبخ وكادت تنتهي في الحمامين الجديدين، وكان على غويندا أن تنتظر قليلاً قبل إجراء المزيد من أعمال الديكور، فقد أرادت بعض الوقت حتى تتذوق بيتها الجديد وتقرر الألوان التي تريدها لغرف النوم. لقد كان البيت في وضع جيد تماماً ولا حاجة للقيام بكل شيء على الفور.

بعد ذلك وظّفت في المطبخ سيدة اسمها كوكر، وهي امرأة تجمع إلى دماثتها وتلطفها شيئاً من التعالي أو الغطرسة مما خفّف من اندفاع غويندا الودي المبالَغ فيه، إلاّ أنها سرعان ما استرخت وتخلّت عن هذه النزعة لدى فهمها لغويندا وتعرفها على طباعها الحقيقية المريحة.

في ذلك الصباح بالذات وضعت السيدة كوكر صينية الإفطار على ركبتي غويندا وهي تجلس في فراشها، ثم علقت حازمة: عندما لا يكون السيد في البيت تفضّل المرأة أن تتناول إفطارها في السرير.

حنت غويندا رأسها لهذه القاعدة التي يفترض أنها قانون إنكليزي، ثم تابعت السيدة كوكر وهي تشير إلى البيض: إنه بيض مخفوق هذا الصباح. لقد قلتِ شيئاً عن السمك المدخَّن، ولكن لا أظنك ترغبين بتناوله في غرفة النوم فهو يترك رائحة. سأعده لك على العشاء مع الخبز المحمّص.

- آه، شكراً لك يا سيدة كوكر.

ابتسمت السيدة كوكر بلطف واستعدت للانسحاب.

لم تكن غويندا تشغل غرفة النوم الكبيرة المزدوجة، فذلك كان يمكن تأجيله حتى عودة غايلز. لقد اختارت بدلاً من ذلك الغرفة الأخيرة ذات الجدران المستديرة والنافذة المقوّسة، وهي غرفة أشعرتها بالسعادة والاطمئنان. وقد علّقت باندفاع وهي تجيل نظرها قائلة: أنا أحب هذه الغرفة فعلاً.

أجالت السيدة كوكر نظرها باهتمام وقالت: إنها غرفة رائعة رغم صغرها، وأظن -نظراً إلى وجود القضبان على النافذة- أنها كانت غرفة طفل في يوم ما.

- لم يخطر لي هذا من قبل. نعم، ربما كانت كذلك.

قالت السيدة كوكر لدى انصرافها وفي صوتها مغزى ضمني: "آه، حسناً". وبدت وكأنها تقول: مَن يدري؟ عندما يأتي السيد إلى البيت فربما احتجنا إلى غرفة طفل.

تورد وجه غويندا وأجالت نظرها في الغرفة: غرفة طفل؟ نعم، من شأنها أن تكون غرفة طفل رائعة. وبدأت تؤثّث في عقلها: خزانة دمى هناك قرب الجدار، وخزائن صغيرة فيها ألعاب، ونار تشتعل ببهجة في الموقد مع واقية طويلة حوله، وأشياء معلقة في قضبان تلك الواقية. ولكن ليس بوجود هذا الجدار ذي اللون الآجرّي البشع... لا، سوف تضع ورق جدران زاهياً، ورقاً ملوناً بهيجاً منقوشاً بباقات قليلة من زهر الخشخاش تتداخل مع باقات أزهار القَنْطريون الزرقاء. نعم، سيكون ذلك الورق جميلاً، سوف

تسعى للعثور على ورق جدران كهذا. شعرت أنها واثقة من أنها قد رأت من قبل ورقاً من هذا النوع في مكان ما.

لن تكون ثمة حاجة للكثير من الأثاث في الغرفة ففي أصل الجدار خزانتان مبنيتان، لكن إحداهما (تلك التي في الزاوية) كانت مقفلة وقد ضاع مفتاحها، والحقيقة أن الخزانة مع الجدار كله قد تم طلاؤهما بحيث بدا شكلها وكأنها لم تُفتَح منذ سنين طويلة. لا بد أن تطلب من العمال أن يفتحوها قبل مغادرتهم، فليس لديها مكان لكل ملابسها على أية حال.

كانت تشعر بمزيد من الألفة في كل يوم تقضيه في «هيلسايد». وسمعت نحنحة خشنة وسعلة قصيرة جافة عبر نافذة غرفتها فأسرعت في تناول إفطارها، فلا بد أنه فوستر البستاني المزاجي الذي يعمل في بعض الأيام عندما يحلو له، والذي لم يكن دوماً وفياً بمواعيده. لا بد أنه أتى اليوم كما وعد.

غسلت غويندا يديها وارتدت ثيابها، تنورة صوفية وسترة، وأسرعت إلى الحديقة. كان فوستر يعمل خارج نافذة غرفة الاستقبال، وكان أول عمل طلبته منه غويندا هو شق ممر يعبر منحدِراً الكومةَ الصخرية الاصطناعية في هذه النقطة. كان فوستر قد اعترض وقتها مشيراً إلى أن ذلك يعني إزالة شُجَيرة الفورسيثيا وشجيرات الليلك هناك، ولكن غويندا كانت عنيدة، وقد أصبح الآن متحمساً تقريباً لمهمته.

حياها بضحكة وقال: ها نحن نعود إلى الأيام الخوالي يا آنسة (كان يصر على أن يدعوها آنسة).

- الأيام الخوالي؟ كيف؟

ضرب فوستر بمجرفته وقال: لقد وجدت الدرجات القديمة. انظري، لقد كانت هنا... تماماً كما تريدينها الآن، ثم قام شخص ما بتغطيتها والزراعة فوقها.

- كان ذلك في غاية الغباء، فلا بد من فسحة من خلال الأشجار تؤدي إلى المرجة العشبية وتسمح بإطلالة على البحر من نافذة غرفة الاستقبال.

لم يكن فوستر واثقاً من ضرورة وجود فسحة، ولكنه أبدى موافقة حذرة متذمّرة وقال: أنا لا أقول إن ذلك لن يكون تحسيناً، فهو يمنحك إطلالة وتلك الشجيرات تجعل غرفة الاستقبال معتمة... ومع ذلك فقد كانت تلك الشجيرات تنمو بشكل ممتاز. لم أرَ أبداً شُجيرة فورسيثيا أكثر نشاطاً من هذه، ولعلمك فإنها كبيرة ولا يمكن نقلها إلى مكان آخر.

- آه، أعرف ذلك، ولكن هذا أجمل بكثير.

حك فوستر رأسه وقال: حسناً، ربما كان هذا أجمل.

فأجابت غويندا وهي تهز رأسها: "إنه كذلك بالفعل". ثم سألته فجأة: مَن سكن هنا قبل عائلة هينغريف؟ لم تسكن عائلة هينغريف طويلاً هنا، أليس كذلك؟

- لنحو ست سنوات، وهم لم يكونوا من النوع الذي ينتمي إلى هذا المكان. سألتِ عمّن كان قبلهم؟ الأخوات إيلوورثي؛ مجموعة من العوانس، وقبلهن... دعيني أتذكر. نعم، كانت السيدة

فينديسون. آه، لقد كانت بنت عائلة نبيلة بالفعل. نعم، كانت تنتمي إلى هذا المكان بمعنى الكلمة، وقد كانت تعيش هنا قبل أن أولد.

سألته غويندا: وهل ماتت هنا؟

- بل ماتت في مصر أو في مكان آخر لا أتذكره، ولكنهم أحضروها إلى الوطن ودُفنت في مقبرة الكنيسة. هي التي زرعت شجرة المنغوليا تلك وبقية الشجيرات هنا، فقد كانت مغرمة بالأشجار المزهرة. ولم يكن أيٌّ من تلك البيوت الجديدة المبنية على طول التلة قائماً وقتها؛ كانت المنطقة ريفية وليس فيها سينما ولا أي من هذه المتاجر الجديدة أو ذلك المتنزَّه في المقدمة.

حملت نبرتُه استنكارَ المسنين لكل تجديد، ثم قال وهو يشخر بازدراء: تغييرات، لا شيء سوى التغييرات!

قالت غويندا: أظن أنه لا بد للأشياء أن تتغير، ومع ذلك ففي هذه الأيام كثير من التحسن، أليس كذلك؟

قال: "هكذا يقولون، لكن أنا لم ألاحظ شيئاً... تغييرات!". ثم أشار نحو السياج الشجري على شماله، حيث بدت من خلاله قطعة من أحد المباني، وقال: "كان هذا مستشفى فيما مضى. نعم، مكان جميل وذو موقع مناسب. ثم أنشؤوا بناء ضخماً يبعد نحو ميل خارج البلدة ويستغرق الوصول إليه عشرين دقيقة سيراً على الأقدام أو يكلف ثلاثة بنسات في الحافلة، وجعلوا المستشفى هناك". ثم أشار باتجاه السياج مرة أخرى وأضاف: إنها مدرسة بنات الآن، لقد انتقلت المدرسة إلى هذا المبنى منذ عشر سنوات... تغييرات طول الوقت. يأخذ الناس بيتاً في هذه الأيام ويعيشون فيه عشر سنوات

أو نحوها ثم يتركونه ويمضون... عدم استقرار. ما الخير في ذلك؟ لا يمكنك غرس أشجار بشكل مناسب ما لم تتمكني من استشراف حياتك مسبقاً.

نظرت غويندا إلى شجرة المنغوليا بشغف وقالت: مثل السيدة فيندیسون.

- آه، كانت امرأة من النوع الجيد. جاءت إلى هنا عروساً، نعم، وربَّت أطفالها وزوّجتهم ودفنت زوجها، وكانت تستقبل أحفادها هنا في مواسم الصيف، ثم غادرت في النهاية عندما أصبحت في الثمانين من عمرها.

ظهر استحسان حار في نبرة فوستر. ثم عادت غويندا إلى المنزل وهي تبتسم قليلاً، وهناك قابلت العمال وعادت إلى غرفة الاستقبال حيث جلست إلى المكتب وكتبت بعض الرسائل. وكان بين الرسائل التي بقيت تنتظر إجابة منها رسالة من بعض أقارب غايلز الذين يقطنون لندن، وكانوا يتوسلون إليها في كل مرة تنوي فيها الذهاب إلى لندن أن تأتي وتقيم معهم في منزلهم في تشيلسي.

كان ريموند ويست روائياً معروفاً وإن لم يكن شعبياً، وكانت زوجته جوان رسّامة. سيكون ممتعاً أن تذهب وتزورهم، مع أنهم ربما ظنوها من النوع المعادي للثقافة. وفكرت غويندا بأنها لا هي ولا غايلز يملكان أية ثقافة رفيعة.

دوّى قرع جرس عالٍ بفخامة من الصالة. كان الجرس المحاط بالكثير من الخشب الأسود المنقوش واحداً من الممتلكات الثمينة

لعمة غايلز، وبدا أن السيدة كوكر تستمدّ متعة خاصة من قرعه، فقد كانت تقرعه دوماً لفترة طويلة.

وضعت غويندا يديها على أذنيها ونهضت، فمشت بسرعة عبر غرفة الاستقبال باتجاه الجدار الملاصق للنافذة المقابلة، ثم توقفت فجأة مع صرخة انزعاج خافتة. لقد كانت تلك هي المرة الثالثة التي تفعل فيها ذلك. بدا وكأنها تتوقع أن تكون قادرة على اختراق ذلك الجدار المصمَت انتقالاً إلى غرفة الطعام المجاورة!

عادت أدراجها عبر الغرفة فخرجت إلى الصالة الأمامية، ومضت حول زاوية جدار الاستقبال وصولاً إلى غرفة الطعام. كانت تلك استدارة طويلة وستكون مزعجة في الشتاء، إذ أن الصالة الأمامية كانت عرضة للتيارات الهوائية، وكانت التدفئة المركزية الوحيدة موجودة في غرفة الاستقبال وغرفة الطعام وغرفتَي نوم في الطابق العلوي.

وفكرت غويندا وهي تجلس على طاولة الطعام الرائعة التي اشترتها مؤخراً بدل طاولة العمة لافيندر الضخمة المربعة: إنني لا أرى ما يمنع من فتح باب وسط الجدار ليصل بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام. سأتحدث مع السيد سيمز بشأن ذلك عندما يأتي عصر اليوم.

كان السيد سيمز هو البنّاء والقائم بأعمال الديكور، وهو رجل مُقْنع في أواسط عمره ذو صوت أجش ودفتر ملاحظات صغير يحمله دوماً معه جاهزاً لتدوين أية فكرة ثمينة قد تخطر لزبائنه. ولذلك فقد كان السيد سيمز لدى استشارته حريصاً على تقدير

الفكرة، إذ قال: هذا أسهل شيء في العالم يا سيدة ريد، وهو تحسين عظيم إن جاز لي القول.

قالت غويندا التي أصبحت بمرور الوقت ترتاب قليلاً بموافقات السيد سيمز وحماسته، حيث كانت تشعر بشيء من عدم الارتياح إزاء نفقات إضافية لم ترد في تقديراته الأولية: هل سيكلف هذا كثيراً؟

- مجرد مبلغ بسيط.

قالها بصوته الأجش متساهلاً ومُطَمئِناً. ولكن غويندا بدت أكثر ارتياباً من أي وقت مضى، فقد كانت مبالغ سيمز البسيطة تلك هي التي تعلّمت غويندا أن لا تثق بها، إذ أن تقديراته الأولية المباشرة كانت معتدلة بعناية.

قال السيد سيمز مستميلاً: سأخبرك ماذا سأفعل يا سيدة ريد، سأجعل تيلر يلقي نظرة عندما ينتهي من غرفة الملابس بعد ظهر اليوم، وعندها يمكنني أن أعطيك فكرة دقيقة فالأمر يعتمد على نوع الجدار.

وافقت غويندا، ثم كتبت إلى جوان ويست تشكرها على دعوتها وتقول إنها لن تستطيع مغادرة ديلماوث في الوقت الحاضر لأنها تريد أن تشرف على العمال. خرجت بعدها لتتمشى أمام البيت وتستمتع بنسيم البحر، ثم عادت إلى غرفة الاستقبال حيث وقف تيلر كبير العاملين لدى السيد سيمز عند زاوية الغرفة وحيّاها بابتسامة، ثم قال: لن تكون في هذا الأمر صعوبة يا سيدة ريد. لقد كان هناك باب

من قبل، نعم، ويبدو أن أحدهم لم يعجبه فسدّه بالجص.

دُهِشت غويندا لسماع ذلك، وحدّثت نفسها: "يا لغرابة هذا الأمر! لقد شعرت دوماً أن باباً يوجد هنا". وتذكّرت الطريقة الواثقة التي مشت بها إلى هذا الجزء من الجدار وقت الغداء، وشعرت فجأة (وهي تتذكر ذلك) بقشعريرة خفيفة وبشيء من القلق. عندما يمعن المرء النظر في ذلك يراه أمراً غريباً حقاً. لماذا شعرت بكل تلك الثقة أن ثمة باباً هناك؟ لم يكن هناك أي مؤشر على وجوده في الجدار الخارجي، فكيف خمّنت (بل عرفت) أن الباب موجود هنا تماماً؟ كان من المناسب طبعاً وجود باب يفضي إلى غرفة الطعام، ولكن لماذا كانت تذهب دوماً دون خطأ إلى تلك البقعة المحددة بعينها؟ كان يمكن لأي مكان في الجدار الفاصل أن يكون مناسباً لوجود باب تماماً كهذا الموقع، ومع ذلك فقد كانت تذهب دوماً وبشكل آلي وهي تفكر بأمور أخرى إلى ذلك المكان نفسه الذي كان الباب موجوداً فيه من قبل!

وتساءلت غويندا بقلق: هل هي حاستي السادسة أم ما الأمر؟

لم يكن فيها أي من المظاهر الروحية الخارقة ولو في حدوده الدنيا، ولم تكن من ذلك النوع من الناس. أم هل كانت كذلك بالفعل؟ وذلك الممر في الخارج الممتد من المصطبة نزولاً عبر مجموعة الشجيرات إلى المرج العشبي، هل عرفت بطريقة ما أنه كان موجوداً عندما أصرّت على شقّه في ذلك المكان بعينه؟

وتساءلت غويندا بقلق مرة أخرى: إمّا أن أكون خارقة بعض الشيء أو أن للأمر علاقة بالبيت نفسه!

لماذا سألت السيدة هينغريف في ذلك اليوم إن كان البيت مسكوناً؟ لم يكن مسكوناً، بل إنه بيت لطيف ولا يمكن أن يكون فيه عيب، حتى إن السيدة هينغريف بدت مدهوشة تماماً من الفكرة... أم كان هناك أثر للتحفظ أو التكتم والحذر في أسلوبها؟

هتفت غويندا في قرارة نفسها: يا إلهي، لقد بدأت أتخيل أشياء!

ثم أعادت عقلها بشيء من الجهد إلى النقاش مع تيلر فقالت: هناك أمر آخر أيضاً، إحدى الخزائن في غرفتي في الأعلى بابها موصد وملصق، وأريدك أن تفتحها.

صعد الرجل معها فتفحّص باب الخزانة ثم قال: لقد تم طلاؤه على هذه الحال عدة مرات. سأجعل العمال يفتحونه لك غداً إذا أردت.

وافقت غويندا، ومضى تيلر لسبيله.

* * *

في تلك الأمسية شعرت غويندا بأنها متحفّزة وعصبية المزاج. كانت وقد جلست تحاول القراءة في غرفة الاستقبال واعيةً لكل صرير يصدر عن الأثاث، وقد نظرت خلفها مرة أو مرتين وارتعدت. قالت لنفسها مراراً إنه لم يكن هناك شيء في حادثة الباب والممر؛ كانا مجرد مصادفتين، ولا شك أنهما كانا ناتجين عن المنطق السليم للأمور فقط.

شعرت بالعصبية بشأن مسألة صعودها إلى غرفتها للنوم، دون أن تعترف لنفسها بذلك، وعندما نهضت أخيراً وأطفأت الأنوار وفتحت الباب المفضي إلى الصالة وجدت نفسها خائفة من صعود الدرج! وفي عجلتها قفزت الدرج قفزاً وأسرعت عبر الممر وفتحت باب غرفتها، وبمجرد دخولها شعرت أن مخاوفها قد هدأت وسكنت.

أجالت بصرها في الغرفة بمودّة، فقد شعرت بالأمان هنا، بل وبالسعادة أيضاً. نعم، لقد أصبحت هنا الآن وأصبحت آمنة، وسألت نفسها: آمنة ممّن أيتها الغبية؟ حقاً كأنك ابنة ست سنوات يا غويندا!

أوت إلى فراشها وقد شعرت بالارتياح، وسرعان ما استغرقت في النوم.

* * *

في صباح اليوم التالي كان لديها عدة قضايا لتتابعها في المدينة، وعندما عادت كان قد حان وقت الغداء. قالت السيدة كوكر وهي تحضر السمك المقلي والبطاطا المهروسة والجزر: لقد فتح الرجال الخزانة في غرفة نومك يا سيدتي.

فأجابتها غويندا: آه، حسناً.

كانت جائعة فاستمتعت بغدائها، وبعد أن تناولت القهوة في غرفة الاستقبال صعدت إلى غرفة نومها في الطابق العلوي. عبرت الغرفة وفتحت باب الخزانة الركنية، ثم أطلقت فجأة صرخة ضعيفة مذعورة ووقفت تحدق.

داخل الخزانة ظهر ورق الجدران الأصلي القديم الذي كان قد غُطّي في أماكن أخرى بالطلاء المصفرّ. كانت الغرفة قد اكتست ذات يوم بورق بهيج ونقشات أزهار، نقشات باقات من زهر الخشخاش الأحمر تتداخل مع باقات أزهار القنطريون الزرقاء!

-٢-

وقفت غويندا هناك تحدق لوقت طويل، ثم توجهت إلى السرير وجلست عليه وهي ترتجف لفرط الصدمة. ها هي تجد نفسها في بيت لم تدخله من قبل في بلد لم تزره من قبل، ومع ذلك فقد اضطجعت على السرير منذ يومين وتخيلت ورق جدران لهذه الغرفة بالذات، والورق الذي تخيلته تطابق تماماً مع الورق الذي أُلصق على الجدران ذات يوم!

عصفت في رأسها تفسيرات جامحة: هل هي الرؤية إلى الأمام بدل الرؤية إلى الخلف؟ كان بوسعها أن تفسر ممر الحديقة والباب الداخلي بين غرفتَي الاستقبال والطعام من باب المصادفة، ولكن لا يمكن أن يكون هذا مصادفة، إذ لا يمكنك تخيل ورق جدران بمثل هذه النقشة المميزة ثم تجد ورقاً مطابقاً لما تخيلته! لا بد من وجود تفسير، لكنه كان تفسيراً غريباً يربكها ويرعبها. نعم، يرعبها! فبين فَينة وأخرى كانت رؤيتها تمتدّ إلى الخلف، بعيداً إلى الخلف، إلى حالة سابقة لهذا المنزل. وربما رأت في لحظة ما شيئاً إضافياً، شيئاً لا تريد رؤيته. أرعبها المنزل، ولكن هل كان السبب هو المنزل أم هي نفسها؟ لم تكن تريد أن تكون واحدة من أولئك الذين يَرَون أشياء!

سحبت نفَساً طويلاً، ثم ارتدت قبعتها ومعطفها وانسلّت من المنزل بسرعة. وفي مكتب البريد أرسلت البرقية التالية: «ويست، ١٩ ساحة آدوي، تشيلسي، غيّرت رأيي وسآتيكم غداً. غويندا».

* * *

الفصل الثالث

غطوا وجهها...

بذل ريموند ويست وزوجته كل ما بوسعهما ليجعلا زوجة الشاب غايلز تشعر بالترحاب، ولم يكن ذنبهما أن غويندا أحسّت في سرّها أن انزعاجهما يفوق ترحابهما. ريموند بشكله الغريب الذي يشبه غراباً ينقضّ على فريسته وشعره الطويل مثل مكنسة، والارتفاعات المفاجئة في صوته في أثناء أحاديثه التي لا يمكن فهمها أبداً... كل ذلك جعل غويندا في حالة استغراب وعصبية. لقد بدا هو وزوجته جوان وكأنهما يتحدثان بلغة خاصة بهما. لم يسبق لغويندا أن حُشرت في جو ثقافي من قبل، وكانت كل مفردات هذا الجو غريبة عليها عملياً.

كانت غويندا ترتشف عصيراً بارداً قُدِّم إليها (وتمنت لو كان مكانه كوب من الشاي بعد رحلتها تلك) عندما قال ريموند: لقد خططنا لأخذك إلى عرض مسرحي وبعض الحفلات الأخرى.

ظهرت البهجة على وجه غويندا فوراً، فمضى ريموند قائلاً: ثمة حفلة باليه الليلة على مسرح سادلر ويلز، وغداً لدينا حفلة عيد

ميلاد لعمتي جين المدهشة، وهناك مسرحية «دوقة مالفي» ويؤدي دورَ البطولة فيها جون غليغود، وفي يوم الجمعة لا بد لك من رؤية مسرحية «الذين مشوا بلا أقدام» المترجَمة عن الروسية، وهي أكثر الأعمال الدرامية أهمية خلال السنوات العشرين الأخيرة وتُعرَض على مسرح ويتمور الصغير.

عبّرت غويندا عن امتنانها لهذه الخطط الموضوعة لتسليتها، رغم أنها قد جفلت قليلاً من مشروع مسرحية «الذين مشوا بلا أقدام»، فالمشكلة الوحيدة لمثل تلك المسرحيات المهمة هي أنك لا تستمتع بها عادة.

قال ريموند: ستحبين عمتي جين كثيراً، فهي امرأة يمكنني وصفها بأنها قطعة أثرية. إنها فكتورية حتى النخاع، وهي تعيش في قرية من تلك القرى التي لا يحدث فيها شيء أبداً، تماماً كبركة راكدة.

قالت زوجته: لقد حدث هناك شيء ذات يوم.

أجابها: كان ذلك مجرد دراما عاطفية فجّة لا براعة فيها.

ذكّرته جوان وهي تطرف بعينها قليلاً: لقد تمتعتَ بها كثيراً آنذاك.

قال بشيء من الكبرياء: إنني أتمتع أحياناً بلعب الكريكيت على الطريقة القروية.

- على أي حال لقد اشتهرت العمة جين من جراء جريمة القتل تلك.

- آه، إنها ذكية جداً، وهي تعشق المشكلات.

سألت غويندا: المشكلات؟

لوّح ريموند بيده وقال: كل أنواع المشكلات: لماذا أخذت زوجة البقال مظلتها إلى اجتماع الكنيسة في أمسية صحو؟ لماذا وُجد بعض الروبيان المخلل في المكان الفلاني؟ ما الذي حدث لرداء الكاهن؟... كل الحنطة تصب في طاحونة العمة جين، ولذلك إن كانت لديك أية مشكلة في حياتك فضعيها أمامها يا غويندا، فهي ستدلك على الحل.

ضحك وضحكت غويندا أيضاً، ولكن ليس من كل قلبها.

في اليوم التالي تم التعارف بينها وبين العمة جين (الآنسة ماربل). كانت الآنسة ماربل عجوزاً جذابة، طويلة وضعيفة وذات وجنتين محمرّتين وعينين زرقاوين، وكانت ذات أسلوب لطيف بل متأنق، ولعينيها الزرقاوين بريق خفيف في معظم الأحيان.

بعد تناول عشاء مبكر أعلنوا فيه ترحيبهم بالعمة جين خرجوا جميعاً إلى «مسرح صاحب الجلالة»، وانضم إلى المجموعة رجلان آخران: فنان كهلٌ ومحامٍ شاب. كرّس الفنان الكهل نفسه لغويندا، فيما قسم المحامي الشاب اهتمامه بين جوان والآنسة ماربل التي بدا أنه يستمتع بملاحظاتها كثيراً، ولكن في المسرح تم عكس هذا الترتيب، إذ جلست غويندا في منتصف صف الكراسي بين ريموند والمحامي.

أطفئت الأنوار وبدأت المسرحية، وكان الأداء رائعاً جداً

بحيث استمتعت غويندا بالمسرحية تماماً، إذ لم تكن قد شاهدت من قبل عروضاً مسرحية من الطراز الأول.

اقتربت المسرحية من نهايتها ووصلت إلى تلك اللحظة حيث قمة الرعب، وجاء صوت الممثل بنبرة حادة وصوت صادح مشحوناً بحالة ذهنية مأساوية: **غطّوا وجهها. إن عينيّ منبهرتان؛ لقد ماتت شابة...**

صرخت غويندا. قفزت عن مقعدها واندفعت لتعبر الآخرين في طريقها إلى الممر بين الكراسي ثم إلى المخرج، ثم صعوداً عبر الدرج إلى الشارع. وحتى هناك لم تتوقف، بل اندفعت تمشي مرة وتركض أخرى في هلع أعمى في شارع هيماركيت. ولم تجد سيارة أجرة حتى وصلت إلى ساحة بيكاديللي حيث لاحظت سيارة أجرة شاغرة تجوب المكان فأشارت إليها، وصعدت فأعطت السائق عنوان البيت في تشيلسي.

أخرجت نقوداً بأصابع مضطربة فدفعت للسائق وصعدت الدرج. نظر إليها الخادم الذي فتح لها الباب بدهشة وقال: لقد عدت مبكرة يا سيدتي. هل أنت على ما يرام؟

- أنا؟ لا، نعم... لقد... لقد شعرت بالدوار.

- هل أحضر لك شيئاً؟ مشروباً ما؟

- لا، لا شيء، سأذهب إلى فراشي مباشرة.

ركضت صعوداً على الدرج لتتجنب المزيد من الأسئلة. نزعت ثياب الطريق وتركتها مكوَّمة على الأرض وارتدت ثوب

نومها واندسّت في فراشها، ولبثت هناك ترتجف وقلبها يضرب بقوة وعيناها معلقتان تحدقان بالسقف.

لم تسمع صوت وصول أحد في الطابق السفلي، ولكن بعد نحو خمس دقائق فُتح الباب ودخلت الآنسة ماربل. كانت تحمل زجاجتين من الماء الحار تحت ذراعها وفنجاناً في يدها.

اعتدلت غويندا في سريرها محاوِلةً وقف ارتجافها وقالت: آه يا آنسة ماربل! أنا آسفة جداً، لا أدري ماذا... كان ذلك فظيعاً بالنسبة لي. هل انزعجوا مني كثيراً؟

- لا تقلقي يا طفلتي العزيزة. غطّي نفسك الآن وأدفئي نفسك بزجاجات الماء الحار هذه.

- لكني لا أحتاج إلى زجاجة ماء حار.

- بل تحتاجينها. نعم، هذا جيد، والآن اشربي فنجان الشاي هذا.

كان الشاي حاراً وثقيلاً ومليئاً بالسكر، ولكن غويندا شربته مستسلمة. وبعدما صارت الرجفة أقل حدة قالت الآنسة ماربل: استلقي الآن ونامي؛ لقد أُصبت بصدمة. سنتحدث في الأمر عند الصباح فلا تفكري في أي شيء، أخلدي فقط إلى النوم.

ثم غطّتها وهي تبتسم وربتت عليها وخرجت من الغرفة.

كان ريموند في الأسفل يخاطب جوان بعصبية: ماذا دهى الفتاة؟ هل شعرت بمرض ما أم ماذا؟

- عزيزي ريموند، إنني لا أدري. لقد صرخت فقط! أظن أن المسرحية كانت مروّعة قليلاً بالنسبة إليها.

- حسناً، إن ويبستر رهيب بعض الشيء في كتاباته بالطبع، ولكني لم أكن لأتصور...

قطع حديثه عندما دخلت الآنسة ماربل الغرفة وسأل: أهي بخير؟

قالت الآنسة ماربل: نعم، أظن أنها بخير. لقد تلقت صدمة قوية.

- صدمة؟ لمجرد مشاهدة مسرحية تنتمي إلى عصر جيمس الأول؟

أجابته الآنسة ماربل بتأمل: لا بد أن يكون الأمر أكثر قليلاً من ذلك فيما أظن.

* * *

أُرسِل إفطار غويندا إليها في غرفتها، فشربت بعض القهوة وقضمت على مهل قطعة صغيرة من الخبز المحمص، وعندما نهضت ونزلت إلى الطابق السفلي كانت جوان قد ذهبت إلى مرسمها في حين أقفل ريموند عليه غرفة عمله، وكانت الآنسة ماربل وحدها تجلس قرب النافذة المطلة على النهر منهمكةً في حياكتها تماماً.

رفعت بصرها وابتسمت بهدوء عندما دخلت غويندا وقالت: صباح الخير يا عزيزتي، آمل أنك تشعرين بتحسن.

- آه، نعم؛ أنا في أحسن حال. لا أدري كيف وسعني أن أجعل من نفسي بلهاء إلى هذا الحد ليلة أمس. هل... هل غضبوا مني؟

- لا يا عزيزتي، لقد تفهموا ذلك تماماً.

- تفهّموا ماذا؟

رفعت الآنسة ماربل عينيها عن حياكتها وقالت: "لقد تفهّموا أنك تعرّضتِ لصدمة قوية ليلة أمس". ثم أضافت بلطف: أليس من الأفضل أن تخبريني بكل شيء عن الأمر؟

أخذت غويندا تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بقلق ثم قالت: أظن أنه يحسن بي أن أذهب وأرى طبيباً نفسياً.

قالت الآنسة ماربل: في لندن أخصائيون نفسيون ممتازون بالطبع، ولكن هل أنت متأكدة أن هذا ضروري؟

- حسناً، أعتقد أنني قد بدأت أُجَنّ... لا بد أنني بدأت أجن!

دخلت الغرفةَ خادمةٌ كهلة حاملةً برقية سلمتها إلى غويندا قائلة: يريد ساعي البريد أن يعرف إن كان هناك جواب يا سيدتي.

فتحت غويندا البرقية التي كان قد أعيد إبراقها من ديلماوث، وحدقت إليها قليلاً وكأنها لا تفهم ما فيها، ثم كوّرتها في يدها وقالت بشكل آلي: ليس لديّ جواب.

غادرت الخادمة الغرفة فتساءلت الآنسة ماربل: أرجو أن لا تكون أنباء سيئة يا عزيزتي.

- إنه غايلز، زوجي. سيكون هنا في غضون أسبوع.

كان صوتها مذعوراً وبائساً، فتنحنحت الآنسة ماربل قليلاً بلطف وقالت: حسناً، هذا أمر رائع جداً بالتأكيد، أليس كذلك؟

- هل هو كذلك عندما لا أكون واثقة إن كنت مجنونة أم لا؟ إن كنت مجنونة فما كان عليّ أن أتزوج غايلز. والبيت... ليس بوسعي العودة إلى هناك. آه، إنني لا أدري ماذا أفعل.

دعتها الآنسة ماربل إلى الجلوس على الأريكة قائلة: اجلسي هنا الآن يا عزيزتي وأخبريني بكل شيء.

تقبّلت غويندا الدعوة بشعور من الارتياح، ثم روت القصة كلها بدءاً بأول مرة لمحت فيها منزل «هيلسايد» وانتهاء بالأحداث التي حيرتها في البدء ثم أقلقتها وأخافتها، ثم انتهت إلى القول: وهكذا شعرت بالرعب وفكرت في الحضور إلى لندن والابتعاد عن القصة كلها، ولكنني لم أستطع التخلص من الأمر... لقد تبعني. في الليلة الماضية...

أغمضت عينيها وبلعت ريقها وهي تتذكر، ولقنتها الآنسة ماربل بقولها: في الليلة الماضية؟

- ربما لا تصدقين ذلك، ستظنين أنني أصبت بالهستيريا أو أنني غريبة أو مجنونة... لقد حدث ذلك بشكل مفاجئ تماماً في نهاية المسرحية. لقد استمتعت بالمسرحية ولم أفكر بالبيت أبداً، ثم جاءني ذلك دون توقع عندما قال الممثل تلك الكلمات.

ردّدت بصوت منخفض مرتعش: «غطوا وجهها، إني عينيّ

منبهرتان، لقد ماتت شابة»... في تلك اللحظة تماماً عاد عقلي إلى هناك، إلى منزل «هيلسايد»! كنت أقف على الدرج وأنا أنظر إلى الصالة عبر الدرابزين، ورأيتها ممدَّدة هناك مادّةً ذراعيها، ميتة! كان شعرها ذهبياً جداً ووجهها أزرق جداً جداً! كانت ميتة، مخنوقة، وكان شخصٌ يردّد تلك الكلمات بنفس تلك الطريقة الرهيبة من النشوة الخبيثة الشريرة. ورأيت يديه، رمادية متجعدة... ليستا يدين، بل براثن قرد! كان الأمر رهيباً... كانت ميتة!

سألت الآنسة ماربل بلطف: من التي كانت ميتة؟

وأتى الجواب سريعاً آلياً: هيلين!

* * *

الفصل الرابع
هيلين؟

حدقت غويندا لحظةً بالآنسة ماربل، ثم ردت شعرها عن جبينها وقالت: لماذا قلتُ ذلك؟ لماذا قلت هيلين؟ إنني لا أعرف أحداً بهذا الاسم!

أسقطت يديها علامة على اليأس وقالت: أرأيتِ؟ أنا مجنونة! إنني أتخيل أشياء، أرى أشياء لا وجود لها! في البداية اقتصر الأمر على ورق الجدران، أما الآن فقد تطور إلى جثث موتى... إن حالتي تسوء.

قالت الآنسة ماربل: لا تتعجلي في إصدار الأحكام يا عزيزتي.

- أو أنه البيت... البيت مسكون أو مسحور أو فيه شيء. إنني أرى أشياء حدثت هناك... أو أنني أرى أشياء ستحدث هناك، وهذا ما سيكون أسوأ. ربما كانت امرأة اسمها هيلين ستُقتل هناك! ولكنّ ما لا أستطيع فهمه هو: إن كان البيت هو المسكون فلماذا أرى هذه الأشياء الفظيعة عندما أكون بعيدة عنه. لذلك أعتقد حقاً أنه لابد

أنني أنا التي صرت غريبةَ الأطوار، ويحسن بي أن أذهب وأرى طبيباً نفسياً فوراً.

- حسناً يا عزيزتي غويندا، يمكنك بالطبع أن تقومي بذلك في أي وقت عندما تستنفدين كل أسلوب آخر، ولكنني شخصياً أعتقد دوماً أن من الأفضل أن نجرب أكثر التفسيرات بساطة وشيوعاً في البداية. دعيني أفهم الحقائق بوضوح، لقد أزعجتك ثلاثة أحداث محددة: ممرٌّ في الحديقة كان قد زُرع موضعه ولكنك شعرت أنه كان هناك، وباب تم سدُّه بجدار، وورق جدران تخيلتِه بدقة وبالتفصيل دون أن تكوني قد رأيتِه من قبل؟ فهل أصبتُ في ذلك؟

- نعم.

- حسناً، إن التفسير الأسهل والأكثر طبيعية هو أنك قد رأيت تلك الأشياء من قبل.

- هل تقصدين في حياة أخرى؟

- لا يا عزيزتي، بل قصدت في هذه الحياة. أعني أنها ربما كانت ذكريات فعلية.

- ولكنني لم آتِ إلى إنكلترا إلاّ منذ شهر يا آنسة ماربل.

- هل أنت متأكدة تماماً من ذلك يا عزيزتي؟

- بالطبع متأكدة. لقد عشت في نيوزيلندا طوال حياتي.

- هل وُلدت هناك؟

- لا، بل ولدتُ في الهند. كان والدي ضابطاً في الجيش

البريطاني، وماتت أمي بعد عام أو عامين من ولادتي فأعادني إلى أهلها في نيوزيلندا ليتعهدوا تربيتي، ثم مات هو نفسه بعد بضع سنوات.

- ألا تتذكرين ذهابك من الهند إلى نيوزيلندا؟

- ليس تماماً. أتذكر بضبابية كبيرة وجودي على ظهر مركب، وأذكر شيئاً دائرياً ذا نوافذ (كوّة المركب كما أعتقد) ورجلاً في بدلة رسمية بيضاء ذا وجه أحمر وعينين زرقاوين وعلامة على ذقنه (أثر ندبة كما أظن) وهو يقذفني في الهواء، وأتذكر أنني كنت نصف خائفة ونصف محبة لذلك... ولكنها جميعاً مجرد نتف ذكريات باهتة.

- هل تذكرين مربية أو خادمة هندية؟

- لم تكن خادمة هندية... بل كانت ناني. أتذكر ناني لأنها بقيت لبعض الوقت حتى أصبحت في الخامسة من عمري. كانت تصنع بطّات ورَقية. نعم، كانت على متن المركب وقد وبختني عندما بكيت لأن القبطان قبّلني ولم أكن أحب لحيته.

- انظري، هذا مثير جداً يا عزيزتي لأنك تخلطين بين سفرتين مختلفتين، في واحدة منهما كان للقبطان لحية وفي الأخرى كان القبطان أحمر الوجه وفي ذقنه ندبة.

فكرت غويندا وقالت: نعم، أظن أنني أخلط.

- ويبدو لي أنه من الممكن أن يكون والدك قد أحضرك معه إلى إنكلترا بعد وفاة أمك مباشرة وأنك عشت بالفعل في ذلك

المنزل «هيلسايد». لقد أخبرتِني أنك شعرتِ أن المنزل كان بيتك بمجرد دخولك إليه. وتلك الغرفة التي اخترتها لتنامي فيها، ربما كانت غرفتك وأنت طفلة.

- لقد كانت غرفة أطفال وكان عليها قضبان على النوافذ.

- أرأيت؟ كان فيها ذلك النوع البهيج من ورق الجدران المنقوش بأزهار القنطريون والخشخاش. إن الأطفال يتذكرون جيداً جدران غرفهم. لقد تذكرتُ دائماً السوسنات البنفسجية على جدران غرفتي عندما كنت طفلة، رغم أنني أعتقد أنه قد تم إعادة لصق ورق جديد فوقه ولمّا أتجاوز الثالثة من عمري.

- ولهذا السبب فكرت فوراً في الألعاب وخزانة الدمى؟

- نعم، والحمّام. الحمام الذي تحيط به حاشية من خشب الماهوغاني. لقد أخبرتِني أنك فكرت في بط سابح فيه بمجرد رؤيتك له.

قالت غويندا بتفكير عميق: صحيح، بدا لي أنني أعرف مباشرة مكان كل شيء في البيت: المطبخ وخزانة الشراشف والبياضات، وأنني بقيت أفكر بأن هناك باباً يربط غرفة الاستقبال بغرفة الطعام... ولكن من المستحيل تماماً أن آتي إلى إنكلترا وأشتري فعلاً البيت نفسه الذي عشت فيه من زمن بعيد.

- هذا ليس مستحيلاً يا عزيزتي، إنها مجرد مصادفة استثنائية جداً، والمصادفات الاستثنائية تحدث بالفعل. لقد أراد زوجك بيتاً على الساحل الجنوبي وكنت تبحثين عن بيت كهذا، ومررت ببيت

أثار ذكريات لديك ولفت انتباهك وكان ذا حجم مناسب وسعر معقول فاشتريتِه. هذا ليس بعيداً جداً عن الاحتمال. ولو كان البيت مجرد بيت مسكون -كما يقال- لكنتِ تصرفت بشكل مختلف كما أعتقد، ولكنك لم تشعري بالعنف أو الاشمئزاز كما أخبرتِني إلاّ في لحظة واحدة محددة تماماً، تلك هي لحظة شروعك في نزول الدرج ونظرك إلى الصالة في الأسفل.

عاد شيء من تعبير الرعب إلى عينَي غويندا وقالت: هل تعنين أن... أن هيلين... أن ذلك حقيقي أيضاً؟

أجابت الآنسة ماربل بلطف بالغ: حسناً، إنني أظن ذلك يا عزيزتي؛ أظن أن علينا أن نواجه الافتراض بأنه إذا كانت الأمور الأخرى ذكريات فإن هذه ذكرى أيضاً.

- أي أنني رأيت فعلاً إنسانة تُقتَل، تُخنَق... وتتمدد هناك ميتة؟

- أنا لا أفترض أنك أدركتِ أنها خنقت، فذلك ما أوحت لك به المسرحية ليلة أمس، وهو يتلاءم مع إدراكك كإنسانة ناضجة لما يعنيه وجه أزرق متشنج محتقن. أعتقد أن طفلة صغيرة جداً تحاول نزول الدرج من شأنها أن تميّز العنف والموت والشرّ وتربط ذلك في ذهنها بمجموعة معينة من الكلمات، لأنني أظن أنه ما من شك في أن القاتل قال تلك الكلمات بالفعل، ومن شأن ذلك أن يشكّل صدمة عنيفة جداً لأي طفل. إن الأطفال مخلوقات صغيرة غريبة، إذا تعرضوا لخوف رهيب فإنهم لا يتحدثون عنه، ولا سيما إذا

كانوا لا يفهمون مصدر رعبهم. إنهم يدفنون خوفهم بين جوارحهم، وربما بدا أنهم نَسَوه ولكن ذكراه تبقى هناك في أعماق نفوسهم.

سحبت غويندا نفساً عميقاً وقالت: وأنت تظنين أن ذلك هو ما حدث لي؟ ولكن لماذا لا أتذكره كله الآن؟

- ليس بوسع المرء أن يتذكر حسب الطلب، وعندما يحاول المرء ذلك فإن الذاكرة غالباً ما تخونه أكثر. ولكنني أعتقد أن هناك مؤشراً أو مؤشرين على أن ذلك هو ما حدث، وعلى سبيل المثال فإنك عندما أخبرتني قبل قليل فقط عن تجربتك في المسرح ليلة أمس استعملتِ تعبيراً موحياً جداً؛ فقد قلتِ إنه بدا لك أنك تنظرين «عبر الدرابزين»، وأنت تعلمين أن الطبيعي هو أن الإنسان لا ينظر إلى الصالة في الأسفل عبر الدرابزين بل من فوق الدرابزين. لن ينظر عبر الدرابزين إلاّ طفل.

قالت غويندا بإعجاب: هذا ذكاء منك!

- هذه الأشياء الصغيرة مهمة جداً.

سألت غويندا بطريقة مذعورة: ولكن من هي هيلين؟

- أخبريني يا عزيزتي، أما زلت متأكدة تماماً أنها كانت هيلين؟

- نعم. هذا غريب إلى حد مخيف لأنني لا أعرف من هي هيلين، ولكنني في الوقت ذاته أعرف تماماً، أعني أنني أعرف أن الممدَّدة هناك كانت هيلين... كيف لي أن أكتشف المزيد؟

- حسناً، أظن أن الأمر الواضح الذي عليك أن تفعليه هو

أن تتأكدي بدقة إن كنت قد حضرت إلى إنكلترا وأنت طفلة. إن أقاربك...

قاطعتها غويندا قائلة: خالتي أليسون هي التي ستعرف، أنا واثقة من ذلك.

- إذن أقترح أن ترسلي لها رسالة بالبريد. قولي لها إن ظروفاً قد جدّت وجعلت لزاماً عليك أن تعرفي إن كنتِ قد زرتِ إنكلترا سابقاً، وربما استلمت جواباً بالبريد الجوي بحلول موعد قدوم زوجك.

- آه، شكراً يا آنسة ماربل، لقد كنت لطيفة جداً. وإني لآمل فعلاً أن يكون تفسيرك حقيقياً لأنه إن كان كذلك فهذا يعني أن الأمور على ما يرام؛ أعني أنه لن يكون وقتها أمراً خارقاً للطبيعة.

ابتسمت الآنسة ماربل وقالت: أرجو أن يظهر الأمر كما نعتقد. سأنزل في ضيافة بعض أصدقائي القدامى في شمال إنكلترا بعد غد، وسوف أمرّ بلندن في أثناء عودتي بعد عشرة أيام. وإن كنت أنت وزوجك هنا في ذلك الوقت أو إن كنت قد استلمت جواباً على رسالتك فسأكون في غاية الفضول لمعرفة النتيجة.

- طبعاً يا عزيزتي الآنسة ماربل، وأنا أريدك أن تقابلي غايلز على أي حال. إنه شاب مثالي وسنعقد جلسة رائعة نتحدث فيها في الموضوع كله.

كانت معنويات غويندا قد ارتفعت من جديد واستعادت ثقتها بنفسها، ولكن الآنسة ماربل بدت غارقة في التفكير.

* * *

الفصل الخامس
جريمة قتل في الذاكرة

-١-

بعد نحو عشرة أيام دخلت الآنسة ماربل فندقاً صغيراً في منطقة مايفير، وقوبلت باستقبال حماسي من قِبَل الشابّين السيد والسيدة ريد.

قالت غويندا: أقدم لك زوجي يا آنسة ماربل. غايلز، لن أستطيع أن أصف لك مقدار لطف الآنسة ماربل تجاهي.

قال غايلز: أنا سعيد بلقائك يا آنسة ماربل. لقد علمت أن غويندا كادت تنتهي في مستشفى المجانين بسبب الرعب.

سارعت عينا الآنسة ماربل الزرقاوان الرقيقتان إلى مسح غايلز ريد ومن ثَمّ تكوين رأي عنه يتّسم بالاستحسان. كان شاباً محبوباً جداً، طويلاً أشقر، تطرف عيناه بطريقة مهذّبة آسرة بين آونة وأخرى نتيجة خجل طبيعي فيه.

قالت غويندا: سنتناول الشاي في غرفة الانتظار الصغيرة تلك

فلا أحد يدخلها، وبعدها نستطيع أن نُطلع الآنسة ماربل على رسالة خالتي أليسون.

ثم أضافت إذ رأت الآنسة ماربل ترفع إليها بصرها بحدّة: نعم، لقد وصلت الرسالة والأمر كان تماماً كما ظننت أنت.

لدى انتهاء شرب الشاي فُتحت الرسالة التي حملها البريد الجوي وقُرئت:

غويندا الغالية،

لقد أزعجني كثيراً سماعي أنك تعرضت إلى تجربة تثير القلق. في الحقيقة لقد غاب عن ذاكرتي تماماً أنك قد عشت فعلاً في إنكلترا لفترة قصيرة وأنت طفلة صغيرة.

لقد قابلَت أمك (أختي ميغان) والدك الرائد هاليدي عندما كانت في زيارة إلى بعض أصدقائنا الذين كانوا وقتها في الهند، وتزوجا ووُلدتِ أنت هناك، وبعد سنتين من مولدك توفيت والدتك، وكان ذلك صدمة كبيرة لنا فكتبنا إلى والدك (الذي كانت لنا مراسلات معه ولم نكن قد رأيناه بالفعل) ورجوناه أن يعهد بك إلينا لنعتني بك، باعتبار أننا سنكون سعداء جداً بوجودك معنا وأنه قد يكون من الصعب على رجل عسكري أن يُترك لمصاعب وجود طفلة صغيرة معه. ولكن والدك رفض ذلك وأخبرَنا أنه سيستقيل من الجيش ويعيدك معه إلى إنكلترا، وقال إنه يأمل أن نأتي في يوم ما لنزوره هناك.

وفهمت أنه في رحلة العودة قابل والدك امرأة شابة وخطبها وتزوجها فور وصوله إلى إنكلترا، ولكن الزواج لم يكن سعيداً كما سمعت، وفهمت أنهما انفصلا بعد نحو عام من زواجهما، وعندها كتب والدك إلينا سائلاً إن كنا ما نزال مستعدين لإيوائك. ولا أجد حاجة لإخبارك بمقدار سعادتنا بذلك يا عزيزتي، وقد تم إرسالك إلينا بعهدة ممرضة إنكليزية، وفي نفس الوقت منحك والدك أغلب ممتلكاته واقترح إمكانية جعلك تتبنين اسمنا قانونياً. ويمكنني القول إن هذا بدا لنا أمراً غريباً بعض الشيء، ولكننا شعرنا أن هذا الاقتراح ناتج عن لطفه وأنه يهدف من ورائه إلى جعلك واحدة من العائلة بدرجة أكبر. ولكننا لم نتبنَّ ذلك الاقتراح على كل حال، وبعد عام تقريباً توفي والدك في معهد رعاية. وكان حدسي أنه كان قد تلقى أنباء سيئة حول صحته عندما أرسلك إلينا.

وأخشى أن لا أستطيع إخبارك عن مكان سكناك مع أبيك في إنكلترا. لقد كان العنوان بالطبع مكتوباً على رسالته في ذلك الوقت، ولكن مضى على ذلك الآن ثمانية عشر عاماً ولا يمكن لامرئ أن يتذكر تفاصيل كهذه. ولكن أذكر أن ذلك كان في جنوب إنكلترا. أنا أعرف ذلك، وأتخيل أن ديلماوث هو المكان الصحيح، فقد كانت عندي فكرة غائمة بأن اسم المكان هو دارتماوث، ولكن الاسمين ليسا متباعدين. أظن أن زوجة أبيك تزوجت ثانية ولكنني لا أتذكر اسمها ولا حتى اسم عائلتها قبل الزواج، مع أن أباك أشار إليه في الرسالة الأصلية التي أخبرنا فيها بأمر

زواجه الثاني. وأعتقد أننا كنا غاضبين قليلاً من زواجه ثانية بهذه السرعة، ولكننا نعرف بالطبع أن تأثير القرب الذي يسبّبه السفر على متن البواخر يكون عظيماً، كما يحتمل أيضاً أن يكون قد فكر بأن الزواج سيكون جيداً لمصلحتك أنت.

ويبدو أنه كان غباء مني أن لا أذكر لك أنك ذهبت مرة إلى إنكلترا، حتى لو كنت لا تذكرين تلك الحقيقة. ولكن الأمر كله غاب عن ذهني كما قلت، فقد كانت وفاة أمك في الهند وما نتج عنها من مجيئك للعيش معنا تبدو لنا دوماً النقاطَ المهمة في الموضوع كله. آمل أن يكون الأمر كله قد اتضح الآن.

أنا واثقة من أن غايلز سيلتحق بك قريباً، فمن الصعب عليكما أن تفترقا في هذه المرحلة المبكرة.

ستجدين أخباري كلها في الرسالة القادمة لأنني أرسل هذه الرسالة على عجل جواباً على رسالتك.

خالتك المحبة: أليسون دانبي.

حاشية: لم تقولي لي ما هي التجربة المثيرة للقلق التي تعرضت لها؟

علّقت غويندا قائلة: أرأيت؟ الأمر مطابق تقريباً لما اقترحتِه.

مسّدت الآنسة ماربل الورقة الرقيقة للرسالة وقالت: نعم، بالفعل. تفسير المنطق السوي السليم الذي عرفت أنه غالباً ما يكون صحيحاً.

قال غايلز: حسناً، أنا ممتنّ كثيراً لك يا آنسة ماربل؛ لقد

كانت المسكينة غويندا مضطربة إلى أبعد حد، ولا يسعني إلاّ أن أقول بأنني أيضاً كنت قلقاً بعض الشيء من التفكير بأن غويندا ربما أصبحت ذات بصيرة خارقة أو ذات قدرات غير عادية أو شيئاً من هذا القبيل.

غويندا: ربما كانت تلك خاصية مزعجة في الزوجة، إلاّ إذا كنت تنهج حياة مستقيمة تماماً.

غايلز: وهو الأمر الذي أفعله.

الآنسة ماربل: والبيت؟ ماذا كان شعورك تجاه البيت؟

غويندا: آه، على ما يرام. سنذهب هناك غداً فغايلز يتحرق شوقاً لرؤيته.

غايلز: لا أدري إن كنت قد أدركت ذلك يا آنسة ماربل، ولكن القضية هي أن لدينا لغزاً لجريمة قتل من الدرجة الأولى بين أيدينا. أمام عتبة بيتنا نفسها عملياً، أو بشكل أكثر دقة: في صالتنا الأمامية!

قالت الآنسة ماربل ببطء: لقد فكرت في ذلك، نعم.

غويندا: وغايلز يحب القصص البوليسية.

غايلز: حسناً، إنها فعلاً قصة بوليسية. جثة امرأة جميلة مخنوقة في الصالة لا يُعرف عنها إلاّ اسمها الأول! أدركُ طبعاً أنه قد مضت على الحادثة نحو عشرين سنة ولا يمكن العثور على أية دلائل بعد كل هذه السنين، ولكن بوسع المرء أن يبحث على الأقل ويحاول جمع بعض الخيوط. آه، لا أظن أن بوسع المرء أن ينجح في حل هذا اللغز.

قالت الآنسة ماربل: أظن أنه بوسعك ذلك، حتى بعد ثمانية عشر عاماً. نعم، أظن أنك تستطيع.

غايلز: في كل الأحوال لا ضرر في القيام بمحاولة حقيقية.

صمت غايلز ووجهه يشرق، أما الآنسة ماربل فقد تحركت بقلق. كان وجهها وقوراً، بل قلقاً، وقالت: ولكن هذا قد يسبب كثيراً من الأذى. إنني أنصحكما كليكما... آه، نعم؛ أودّ حقاً أن أنصحكما بكل قوة أن تدَعوا هذا الأمر وشأنه.

غايلز: ندعه وشأنه؟ ندع لغز جريمتنا الخاصة... هذا إن كانت جريمة قتل!

الآنسة ماربل: لقد كانت جريمة قتل كما أعتقد، ولهذا السبب تحديداً أدعوكما إلى تركها؛ فالقتل ليس أمراً... ليس أمراً يمكن العبث به بقلب خليٍّ جذل.

غايلز: ولكن يا آنسة ماربل، لو فكر كل إنسان بهذا الشكل...

قالت الآنسة ماربل مقاطِعةً: آه، أعرف. هناك أحيان يكون هذا الأمر فيها واجباً على المرء. عندما يُتّهم شخص بريء، عندما تحوم الشكوك حول عدة أشخاص آخرين، عندما يكون مجرمٌ خطير طليقاً ويمكن أن يضرب ضربته مرة أخرى... ولكن عليك أن تدرك أن هذه الجريمة موغلة في الماضي كثيراً، وربما لم تكن قد عُرفت كجريمة قتل لأنها لو عُرفت كذلك لكنت سمعت بذلك سريعاً من بستانيّك العجوز أو غيره هناك؛ إن جريمة القتل تبقى دائماً خبراً يُروى مهما بَعُدَ عهدها. لا، لقد تم التخلص من الجثة بطريقة ما ولم تثر أية

شكوك حول الأمر كله. هل أنتما واثقان... هل أنتما واثقان حقاً أن من الحكمة أن تنبشا هذا الأمر ثانية؟

صرخت غويندا: يا آنسة ماربل، أنت تبدين قلقة حقاً!

- أنا حقاً قلقة يا عزيزتي، فأنتما شابان لطيفان رائعان (إذا سمحتما لي أن أقول ذلك). لقد تزوجتما حديثاً وأنتما سعيدان معاً. أتوسل إليكما أن لا تعملا على كشف أشياء بوسعها أن... بوسعها... كيف أعبّر عن ذلك؟ أشياء بوسعها أن تزعجكما وتؤلمكما.

حدقت غويندا إليها وقالت: إنك تفكرين في شيء محدد، شيء... ما الذي تلمّحين إليه؟

- أنا لا ألمّح يا عزيزتي. إنني أنصحكما فقط لأنني عشت زمناً طويلاً وأعرف كيف يمكن للطبيعة البشرية أن تكون مزعجة جداً. أنصحكما بأن تدَعا الأمر على حاله، هذه هي نصيحتي. اتركا ما هو مقبول يمضي لشأنه.

قال غايلز وقد اكتسب صوته نبرة مختلفة، نبرة أكثر صرامة: ولكن الأمر ليس مسألة ترك المقبول على حاله. إن «هيلسايد» هو بيتنا، بيت غويندا وبيتي، وقد قُتل إنسان ما في هذا البيت... أو هكذا نعتقد. ولن أتحمل حدوث جريمة قتل في بيتي وأقف متفرجاً تجاهها، حتى لو كانت منذ ثمانية عشر عاماً!

تنهدت الآنسة ماربل وقالت: أنا آسفة. أتخيل أن معظم الشبان المتحمسين يشعرون بمثل شعورك. وأكاد أتعاطف، بل أكاد أعجب بك تقريباً لذلك. ولكنني أتمنى، آه، أتمنى بالفعل أن لا تقدم على شيء!

-٢-

في اليوم التالي سرى النبأ في قرية سينت ميري ميد بأن الآنسة ماربل قد عادت إلى بلدتها. ورآها الناس في شارع هاي في الساعة الحادية عشرة، وزارت بيت الكاهن في الثانية عشر إلاّ عشر دقائق، وفي عصر ذلك اليوم زارتها ثلاث نسوة من أهل القرية ممّن يحبون القيل والقال وحصلن على انطباعاتها عن العاصمة السعيدة، وبالمقابل انخرطن هن بتفاصيل معركة وشيكة قادمة حول كشك بيع أعمال التطريز في سوق فيت وموقع خيمة الشاي هناك.

وفي وقت لاحق من ذلك المساء كان بالإمكان رؤية الآنسة ماربل في حديقتها كالعادة، ولكن أنشطتها كانت منصبّة هذه المرة على اقتلاع الأعشاب الضارة أكثر من انشغالها بأنشطة الجيران. كانت شاردة الذهن تفكر في وجبتها المسائية الخفيفة، ولم يبدُ أنها مصغية إلى خادمتها الصغيرة إيفيلين وهي تسرد بحماسة مجريات ما حصل لصيدلي القرية. وفي اليوم التالي بقيت شاردة الذهن، وقد لاحظ البعض ذلك فيها وأشاروا إليه، ومن هؤلاء زوجة الكاهن. وفي تلك الليلة قالت الآنسة ماربل إنها لا تشعر بأنها على ما يرام وأوت إلى فراشها، وفي صباح اليوم التالي أرسلت في طلب الدكتور هيدوك.

كان الدكتور هيدوك هو طبيب الآنسة ماربل لسنوات طويلة، بل وصديقها وحليفها. أصغى لسردها حول أعراضها، وفحصها ثم أسند ظهره إلى مسند كرسيّه وهزّ السماعة أمامها قائلاً: بالنسبة لامرأة في عمرك، ورغم تلك الهيئة الضعيفة الخادعة، إلاّ أنك في حالة جيدة تماماً.

- أنا واثقة من أن صحتي العامة سليمة ولكنني أعترف بأنني منهكة قليلاً، مرهقة قليلاً.

- ذلك أنك كنت تتسكعين مع أصدقائك وتسهرين طويلاً في لندن.

- بالطبع. على أنني أجد لندن مملّة قليلاً في هذه الأيام وهواؤها مستنفَد تماماً، ليس كهواء الشواطئ المنعش.

- إن هواء سينت ميري ميد رائع ومنعش.

- ولكنه رطب وحار لزج غالباً، ليس منشّطاً تماماً.

نظر الدكتور هيدوك إليها وقد بدأ يهتم بالحديث، ثم قال بلطف: سأرسل لك منشطاً.

- شكراً يا دكتور، إن شراب إيستون نافع دوماً.

- لا حاجة لأن تصفي لي ما ينبغي لي أن أصفه يا امرأة.

- تساءلتُ إن كان التغيير في الهواء...؟

ثم نظرت إليه بتساؤل بعينين زرقاوين بريئتين، فقال مستغرباً: لكنكِ عدت لتوّك من رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع.

- نعم، أعرف. ولكنْ في لندن التي توهن القوة كما تقول، وبعدها ذهبت إلى الشمال، وتلك منطقة صناعية ليس هواؤها كهواء البحر المنشّط.

أغلق الدكتور هيدوك حقيبته ثم التفت مكشّراً وقال: فلتقولي

إذن: لماذا أرسلتِ في طلبي؟ قولي فقط ما هو المطلوب وسأردده خلفك. هل تريدين رأيي المِهَني بأن ما تحتاجينه هو هواء البحر؟

قالت الآنسة ماربل بامتنان: لقد عرفتُ أنك ستفهم.

- أمر ممتاز هواء البحر هذا. الأفضل لك أن تذهبي فوراً إلى إيست بورن وإلاّ فإن صحتك ستعاني الكثير.

- لكن إيست بورن باردة قليلاً كما أظن. الجنوب أفضل.

- بورنماوث إذن.

طرفت الآنسة ماربل بعينيها وقالت: لقد آمنت دوماً بأن بلدة صغيرة تكون أبهج كثيراً.

جلس الدكتور هيدوك ثانية وقال: لقد أثرت فضولي. ما هي البلدة الساحلية الصغيرة التي تلمّحين إليها؟

- حسناً، لقد فكرت في ديلماوث.

- بلدة جميلة صغيرة ولكنها مملّة، لماذا ديلماوث؟

صمتت الآنسة ماربل لدقيقة أو اثنتين، وعادت النظرة القلقة إلى عينيها ثم قالت: لنفترض أنك كشفت مصادفة -في يوم ما- حقيقة تشير إلى أن جريمة قد وقعت هناك قبل سنين عديدة، قبل تسع عشرة سنة أو عشرين، وقد تكشفت تلك الحقيقة لك وحدك ولم تثر الشكوك حول شيء من هذا القبيل سابقاً ولم يُذكَر مطلقاً. فما الذي كنت ستفعله إزاء ذلك؟

- جريمة قتل يعاد النظر فيها بالفعل؟

- تماماً كذلك.

فكر هيدوك لحظة ثم قال: هل كان هناك خطأ في سير العدالة؟ هل عانى أحد نتيجة للجريمة؟

- لا، بقدر ما يمكن للمرء أن يراه.

- همم، جريمة يجري تذكّرها... جريمة نائمة! حسناً، أقول لك: لو تعلق الأمر بي لتركت الجريمة النائمة ترقد كما هي، هذا ما كنت سأفعله. إن العبث بجريمة قتل مسألة خطيرة، بل ربما كانت خطيرة جداً.

- هذا ما أخشاه.

- يقول الناس إن القاتل يكرر جرائمه دوماً، وهذا ليس صحيحاً. ثمة نوع من القَتَلة يرتكب جريمته ويفلح في النجاة منها ثم يصبح حريصاً على عدم المخاطرة مرة أخرى. لا أقول إنهم يعيشون بسعادة بعد ذلك، فالعقاب ينزل بالمجرم بأكثر من صورة. ولكن كل شيء يمضي على ما يرام... ظاهرياً على الأقل. أستطيع أن أذكر لك العديد من القضايا التي لم يكرر فيها المجرمون جرائمهم... جريمة واحدة منحتهم ما يريدونه فاكتفوا بها. ولكن ماذا لو هددهم خطرٌ ما؟ أظن أن القاتل في حالتك هذه واحدٌ من هذا النوع؛ شخص ارتكب جريمة ونجا بها ولم يشكّ فيه أحد. ولكن إن افترضنا أن أحداً بدأ يدسّ أنفه فيما لا يعنيه، ينبش الماضي ويقلّب الأحجار ويستكشف السبل، وأخيراً ربما يصطدم بالهدف، فما الذي سيفعله هذا القاتل إزاء ذلك؟ هل يقف مبتسماً والصيّاد يقترب منه أكثر

فأكثر؟ لا ، إن لم ينطوِ الأمر على مبدأ ما فإنني أوصي بترك القضية وشأنها.

ثم كرر جملته السابقة بحزم: دع الجريمة النائمة ترقد كما هي. هذه أوامري لك أنت: دعي الأمر كله وشأنه.

- ولكنني لست أنا المعنية بالأمر ، بل هما شابان لطيفان جداً. دعني أخبرك بالقضية.

روت له القصة وهو يصغي، وعندما أكملت قال: غريب، مصادفة غريبة جداً، بل قضية غريبة كلها! أظنك فهمت مضامين القضية؟

- آه، طبعاً. ولكني أظن أنهما لم يفهما بعد.

- إن هذا سيعني قدراً كبيراً من الشقاء، وسوف يتمنيان لو أنهما لم يتدخلا في هذا الأمر أبداً. يجب أن تبقى الهياكل العظمية في خزائنها! ولكن، هل تعلمين أنني أستطيع فهم وجهة نظر الشاب غايلز رغم ذلك. فرغم كل شيء لم أكن شخصياً لأترك هذا الأمر وشأنه، بل إنني ما زلت فضولياً حتى وأنا في هذه السن...

توقف ورشق الآنسة ماربل بنظرة حادة ثم قال: إذن فهذا هو سبب كل هذه الأعذار التي تحجّجتِ بها لتذهبي إلى ديلماوث. تريدين دسّ أنفك فيما لا يعنيك؟

- لا يا دكتور هيدوك، ولكنني قلقة على هذين الزوجين فهما صغيران جداً ولا خبرة لديهما، وهما ساذجان يثقان بكل الناس. أشعر واجباً عليّ أن أكون هناك لأعتني بهما.

- إذن فلذلك تذهبين، لكي تعتني بهما! ألا تستطيعين أبداً ترك الجرائم وشأنها يا امرأة؟ حتى الجرائم القديمة المسترجَعة!

رسمت الآنسة ماربل ابتسامة صغيرة متأنقة على شفتيها وقالت: ولكنك -مع ذلك- تعتقد أن قضاء بضعة أسابيع في ديلماوث سيكون مفيداً لصحتي؟

- بل الأغلب أن تكون في ذلك نهايتك، ولكنك لن تصغي إليّ.

-٣-

في طريقها لزيارة الكولونيل بانتري وزوجته صادفت الآنسة ماربل الكولونيل قادماً في الممشى أمام البيت وبندقيته في يده وكلبه يسعى خلفه، فرحب بها بحرارة هاتفاً: إنني سعيد بعودتك ثانية. كيف أحوال لندن؟

أجابته الآنسة ماربل بأن لندن على أحسن ما يرام وأن ابن أخيها قد أخذها إلى عدة مسرحيات، فعلّق الكولونيل قائلاً: أراهن أنها مسرحيات ذات مستوى ثقافي رفيع. أنا شخصياً لا أهتم إلاّ بالكوميديات الموسيقية.

قالت الآنسة ماربل إنها حضرت مسرحية روسية كانت مثيرة جداً رغم أنها كانت طويلة بعض الشيء، فعلق الكولونيل منفجراً: الروس!

كان قد أُعطي ذات مرة رواية لديستوفسكي ليقرأها في مركز

للرعاية. وأخبرها الكولونيل أنها ستجد دولي في الحديقة.

كانت السيدة دولي بانتري توجد في الحديقة دائماً تقريباً، فقد كانت البستنة شغفها، وكانت قراءاتها المفضلة هي كاتالوغات الأبصال وجلّ حديثها ينصبّ على زهرة الربيع والشجيرات المُزهرة والنباتات الجبلية الجديدة.

انتصبت السيدة بانتري لدى سماعها صوت خطوات تقترب وهي تصدر بعض الصرير والأنين، إذ كانت هوايتها قد أصابتها بالروماتيزم. مسحت حاجبها المعروق بيد متربة ورحبت بصديقتها قائلة: لقد سمعت أنك عدت يا جين. أليست نباتات الديلفينيوم رائعة هنا؟ هل رأيتِ الشتلات الجديدة الصغيرة هذه؟ لقد تعبت قليلاً معها ولكني أعتقد أنها أصبحت جيدة الآن. ما نحتاجه هو المطر، فقد كان الموسم جافاً جداً. لقد أخبرتني إيستر أنك كنت ترقدين مريضة في فراشك، وأنا سعيدة بأن هذا ليس صحيحاً.

كانت إيستر هي طباخة السيدة بانتري وضابط اتصالها مع القرية.

قالت الآنسة ماربل: مجرد إرهاق بسيط ويعتقد الدكتور هيدوك أنني بحاجة إلى شيء من هواء البحر. إنني متعبة.

- آه، ولكنك لا يمكن أن تذهبي الآن، فهذا هو أفضل أوقات السنة بالنسبة للعناية بالحديقة، ولا بد أن يكون الفاصل الشجري في حديقتك قد بدأ يُزهر.

- ولكن الدكتور هيدوك ينصح بسفري.

اعترفت السيدة بانتري متذمرة بقولها: حسناً، إن الدكتور هيدوك ليس أحمق كبعض الأطباء الآخرين.

- كنت أتساءل يا دولي حول طباختك تلك...

- أية طباخة؟ هل تريدين طباخة؟ هل تعنين تلك المرأة المسنّة؟

- لا، بل أعني تلك التي كانت تصنع معجّنات لذيذة، التي كان زوجها كبير الخدم.

قالت السيدة بانتري بإدراك فوري: آه، تعنين السلحفاة الزائفة، تلك المرأة ذات الصوت النائح العميق الذي يعطي دوماً انطباعاً بأنها ستجهش بالبكاء. لقد كانت طباخة جيدة. كان زوجها سميناً كسولاً وكان آرثر يقول دوماً إنه لا يجيد إعداد الشاي. لا أدري، ولكن من المؤسف أن تجدي دائماً في كل زوج واحداً غير مقنع. لقد حصلا على إرث من وصية شخص كانا يعملان عنده سابقاً فذهبا وافتتحا نُزُلاً على الساحل الجنوبي.

قالت الآنسة ماربل: هذا ما ظننته بالضبط. ألم يكن ذلك في ديلماوث؟

- هذا صحيح، رقم ١٤ في شارع سي باريد في ديلماوث.

- كنت أفكر؛ ما دام الدكتور هيدوك قد اقترح عليّ الذهاب إلى منطقة ساحلية فربما كان بوسعي أن أذهب إليهم. هل كان اسمهم عائلة سوندرز؟

- نعم، هذه فكرة رائعة يا جين ولن تجدي أفضل منها. ستعتني بك السيدة سوندرز جيداً، وبما أن الوقت الحالي ليس موسم انشغالهم فسوف يُسَرّون باستقبالك ولن يتقاضوا منك الكثير. وعندما يجتمع الطبخ الجيد وهواء البحر فسوف تتحسنين سريعاً.

- شكراً يا دولي، أتوقع أن أتحسن فعلاً.

* * *

الفصل السادس
تمرين في التحري

-١-

سأل غايلز: أين كان مكان الجثة باعتقادك؟ هنا تقريباً؟

كان هو وغويندا يقفان في الصالة الأمامية في منزل هيلسايد. كانا قد وصلا في الليلة السابقة، وكان غايلز الآن منهمكاً في بحث دقيق سعيداً بذلك كطفل صغير بلعبته الجديدة.

أجابته غويندا: "تقريباً". ثم تراجعت صاعدة الدرج وأطلت إلى الأسفل على سبيل التجربة وأضافت: نعم، أعتقد أنها كانت هناك تقريباً.

- انزلي، لقد كنت عندها لا تتجاوزين الثالثة من عمرك كما تعلمين.

ثم أضاف فيما نزلت هي بطيب خاطر: ألم تستطيعي رؤية الرجل الذي قال الكلمات؟

- لا أتذكر أنني رأيته، لا بد أنه كان إلى الخلف قليلاً. نعم، هناك. لم أستطع أن أرى منه إلاّ مخالبه.

قال غايلز مقطباً جبينه: مخالبه؟

- لقد كانت مخالب فعلاً... مخالب رمادية غير بشرية.

- على رسلك يا غويندا، فليس للإنسان مخالب.

- نعم، ولكنه كان ذا مخالب.

نظر إليها غايلز بارتياب ثم قال: لا بد أنك تخيلت هذا الجزء فيما بعد.

أجابته غويندا ببطء: ألا تعتقد أنني ربما تخيلت الأمر كله؟ هل تدري يا غايلز؟ لقد كنت أفكر، وقد بدا لي أن احتمال كون الأمر برمته مجرد حلم ربما كان أقرب إلى الصواب. ربما كان حلماً، واحداً من تلك الأحلام التي تعرِضُ للأطفال فترعبهم كثيراً ويستمرون في تذكرها. ألا تعتقد أن هذا هو التفسير الصحيح حقاً؟ لأنه لا يبدو أن أحداً في ديلماوث يمتلك أية فكرة مهما كانت باهتة عن جريمة قتل أو موت مفاجئ أو اختفاء، أو أي شيء غريب في هذا البيت.

بدا غايلز كطفل مختلف، كطفل أُخذت منه لعبته الجديدة الجميلة، فقال معترفاً بتذمر: "ربما كان الأمر كابوساً". ثم أضاء وجهه فجأة وقال: لا، لا أصدق ذلك. ربما كنتِ قد حلمت بمخالب قردة وبشخص ميت... لكن لا يمكن أن تكوني قد حلمت بذلك المقطع من مسرحية «دوقة مالفي».

- ربما أكون قد سمعت أحداً يردد المقطع ثم حلمت به فيما بعد.

- لا أظن أن أي طفل يمكن أن يقوم بذلك، إلاّ إن كنت قد سمعت المقطع في ظروف ذات ضغط هائل. وإن كان الأمر كذلك نكون قد عدنا إلى نقطة البداية. اسمعي، لقد وجدتها؛ كانت المخالب هي ما حلمت به. لقد رأيتِ الجثة وسمعتِ الكلمات فشلّك الرعب، ثم تعرضتِ إلى كابوس بخصوص الموضوع فرأيتِ مخالب قردة... ربما كنت تخافين القردة.

بدا بعض الارتياب على غويندا وقالت ببطء: ربما كان هذا صحيحاً.

- أتمنى لو تستطيعين تذكر أشياء قليلة أخرى! تعالي هنا إلى الصالة، أغمضي عينيك، فكري... ألا تستطيعين استرجاع أي شيء إضافي؟

- لا، لا أستطيع يا غايلز. كلما فكرت أكثر ابتعد الأمر كله أكثر فأكثر. أعني أنني بدأت أشك الآن فيما إذا كنت قد رأيت حقاً أي شيء أصلاً. ربما كنت قد تعرضت لنوبة عقلية ما في المسرح في تلك الليلة.

- لا، بل كان هناك شيء، والآنسة ماربل ترى ذلك أيضاً. ثم ماذا عن هيلين؟ لا بد أن تتذكري شيئاً ما عن هيلين؟

- لا أتذكر شيئاً أبداً، إنه مجرد اسم.

- لعله لم يكن الاسم الصحيح.

- بل كان صحيحاً، إنه هيلين.

بدا عليها العناد والإصرار فقال: إذا كنت مقتنعة إلى هذا الحد بأن اسمها صحيح فلا بد أن تعرفي شيئاً عنها. هل عرفتِها عن كثب؟ هل كانت تعيش هنا أم كانت مجرد زائرة؟

قلت لك إنني لا أعرف.

بدأ شيء من الإجهاد والعصبية بالظهور على غويندا، فحاول غايلز طريقاً آخر: من تستطيعين أن تتذكري غيرها؟ أباك؟

- لا؛ أعني أنني لا أستطيع الجزم. كانت عندي صورة له وقد اعتادت خالتي أليسون أن تقول لي دوماً: "هذا هو أبوك"، لكنني لا أتذكره هنا في هذا البيت.

- ولا أي خدم أو مربيات، شيء من هذا القبيل؟

- لا، لا، كلما حاولتُ أن أتذكر أكثر كلما صارت ذاكرتي صفحة بيضاء. إن كل الأمور التي أعرفها تقبع في الأعماق، كالمشي نحو ذلك الباب بشكل آلي؛ فأنا في الحقيقة لم أتذكر أي باب هناك. ولو توقفتَ عن استفزازي إلى هذا الحد يا غايلز فربما تعود الأمور إلى ذاكرتي أكثر. وعلى أية حال فإن محاولة اكتشاف الأمر مسألة ميؤوس منها، إنها مسألة قديمة جداً.

- أبداً، إنها ليست ميؤوساً منها أبداً، وحتى الآنسة ماربل العجوز اعترفت بذلك.

- إنها لم تساعدنا بأية أفكار حول الطريقة التي يمكن بها

المضي في الأمر، وإن كنت قد شعرت من وميض عينيها بأن لديها بعض الأفكار. وإني لأتساءل: كيف كانت هي ستفعل إزاء ذلك؟

- لا أعتقد أنها كانت ستفكر بطرق لم نفكر نحن فيها. ينبغي أن نكفّ عن التأمل والتخمين يا غويندا ونبدأ بالتفكير في الأمور بطريقة منظمة. لقد بدأنا بخطوة صحيحة، فقد استعرضت سجلات الأبرشية الخاصة بالوفيات فلم أجد أحداً باسم هيلين في ذلك العمر التقريبي بين أسماء الموتى، بل إن أيّ هيلين لم تعش هنا أصلاً في الفترة التي استعرضتها، وكانت إيلين باغ في الرابعة والتسعين من عمرها أقرب ما وجدته. والآن ينبغي أن نفكر بالأسلوب الثاني المفيد: إن كان والدك وزوجة والدك قد عاشا في هذا المنزل كما هو مفترَض فهذا يعني أنهما قد اشترياه أو أنهما قد استأجراه.

- طبقاً لما يقوله فوستر البستاني فقد سكنت فيه عائلة تدعى إيلوورثي قبل أن تسكنه عائلة هينغريف، وقبلهم كانت السيدة فينديسون، ولا أحد غيرهم.

- لا بد أن أباك اشتراه وسكنه لفترة قصيرة جداً ثم باعه ثانية. ولكنني أظن أن الاحتمال الأكبر هو أنه استأجره، وربما استأجره مفروشاً. فإذا كان الأمر كذلك فإن أفضل ما نفعله هو أن نذهب إلى وكلاء العقار.

لم يستغرق الذهاب إلى وكلاء العقار جهوداً مطولة، إذ لم يكن هناك سوى وكيلي بيوت في ديلماوث، أحدهما كان مكتب السادة ويلكينسن الذي استجدّ حديثاً نسبياً ولم يفتتحوا مكتبهم إلاّ منذ أحد عشر عاماً، وكانوا يتعاملون غالباً مع الشاليهات الصغيرة والبيوت

الجديدة في الجانب البعيد من البلدة. أما الوكلاء الآخرون، السادة غالبرايث وبيندرلي، فقد كانوا هم الوكلاء الذين اشترت غويندا البيت منهم. ولدى زيارتهم اندفع غايلز في قصته قائلاً إنه وزوجته قد سعدا بمنزل «هيلسايد» وببلدة ديلماوث عموماً، وإن السيدة ريد سرعان ما عرفت أنها قد عاشت فعلاً في ديلماوث عندما كانت طفلة صغيرة لأنها وجدت لديها ذكريات باهتة جداً عن المكان، وطرأت لها فكرة أن «هيلسايد» هو بالفعل البيت الذي سكنته ولكنها لم تستطع التأكد تماماً من ذلك. فهل لديهم أي سجل يفيد بأن البيت قد تم تأجيره يوماً لشخص يدعى الرائد هاليدي؟ والأغلب أن يكون ذلك منذ ثمانية عشر عاماً أو تسعة عشر.

مد السيد بيندرلي يدين معتذرتين وقال: أخشى أن لا يكون العثور على هذه المعلومات ممكناً يا سيد ريد؛ فسجلاتنا ليست قديمة إلى هذا الحد، ليس فيما يتعلق بالإيجار المفروش أو قصير المدى. إنني آسف جداً لعدم تمكني من مساعدتك يا سيد ريد، والحقيقة أنه لو كان كبير موظفينا السيد ناركوت العجوز على قيد الحياة فلربما كان قادراً على مساعدتك، ولكنه مات في الشتاء الماضي. كانت لديه ذاكرة رائعة، ذاكرة ممتازة حقاً، وقد بقي مع الشركة لما يقرب من ثلاثين عاماً.

سأل غايلز: ألا يوجد أحد غيره يمكن أن يتذكر؟

- إن موظفينا كلهم من جيل الشباب نسبياً، طبعاً ما عدا السيد غالبرايث العجوز نفسه، وهو قد تقاعد منذ بضع سنوات.

غويندا: ربما أستطيع أن أسأله؟

- حسناً، لا أكاد أعرف إن كان هذا ممكناً. لقد أصيب بجلطة دماغية في العام الماضي وضعفت قواه العقلية بشكل محزن. إنه فوق الثمانين من عمره.

غايلز: وهل يعيش في ديلماوث؟

- آه نعم، في «كالكوتا لودج»، وهو بيت صغير جميل في شارع سيتون، ولكني لا أعتقد حقاً...

قال غايلز لغويندا: إنه آخر بصيص من الأمل، ولكن من يدري!

-٢-

كان منزل «كالكوتا لودج» محاطاً بحديقة مرتبة مشذبة، وكانت غرفة الجلوس التي جلسا فيها مرتبة أيضاً وإن كانت مزدحمة قليلاً بالأثاث، وكانت تفوح في جنباتها رائحة شمع العسل وخشب الرونوك. كانت نحاسياتها تلمع ونوافذها مثقلة بحبال الزينة.

دخلت الغرفة امرأة في منتصف عمرها ذات عينين شكاكتين، فقدم غايلز نفسه وطلبه بسرعة. انحسر عن وجه الآنسة غالبرايث ذلك التعبير المتسائل وقالت: أنا آسفة، ولكن لا أظن أن بوسعي مساعدتكما. المسألة قديمة جداً، أليس كذلك؟

غويندا: ولكن المرء يتذكر الأشياء أحياناً.

الآنسة غالبرايث: أنا ما كنت لأعرف أي شيء شخصياً، فلم تكن لي أية علاقة بالعمل. هل قلتما إن اسمه كان الرائد هاليدي؟

لا، لا أتذكر أبداً أنني صادفت أحداً في ديلماوث بهذا الاسم.

غويندا: ربما كان بوسع والدك أن يتذكر.

هزّت الآنسة غالبرايث رأسها قائلة: والدي؟ إنه لا ينتبه كثيراً هذه الأيام وذاكرته مهتزة ومشوّشة.

استقرت عينا غويندا بإمعان على طاولة نحاسية ثم انتقلتا إلى موكب من الفيلة الأبنوسية يسير على طول حافة الموقد. ثم قالت: أظن أنه ربما تذكر لأن والدي كان قد عاد لتوّه من الهند. ألا تطلقون على منزلكم اسم «كالكوتا لودج»؟

ثم سكتت مستفهمة، فقالت الآنسة غالبرايث: بلى، كان والدي هناك في كالكوتا لبعض الوقت، كان في عمل هناك ثم وقعت الحرب فعاد إلى إنكلترا في عام ١٩٢٠، وقد أحب أن يعود إلى الهند، كان يقول ذلك دائماً، ولكن والدتي لم تحب البلاد الأجنبية، وبالطبع لا يمكن القول إن الطقس هناك كان صحياً حقاً. حسناً، لا أدري. ربما كنتما ترغبان في رؤية والدي، لا أعرف إن كان في حالة مُرْضية اليوم.

قادتهما إلى غرفة مكتب صغيرة مظلمة حيث جلس مستنداً على كرسي كبير من الجلد الرديء رجلٌ عجوز ذو شارب أبيض متهدل. نظر إلى غويندا برضا فيما قامت ابنته بعملية التعريف.

قال بصوت يكاد يكون غائباً غير محدد: لم تعد ذاكرتي كما كانت. هل قلتما إن اسمه هاليدي؟ لا، إنني لا أتذكر الاسم. لقد

عرفت صبياً في المدرسة في يوركشاير... ولكن ذلك كان منذ أكثر من سبعين سنة.

غايلز: لقد استأجر منزل «هيلسايد» كما نعتقد.

تحرك الجفن الوحيد المتحرك لدى السيد غالبرايث فأغلق وانفتح، ثم قال: هيلسايد؟ هل كان اسمه هيلسايد آنذاك؟ فينديسون عاشت هناك. كانت امرأة رائعة.

غويندا: يحتمل أن يكون والدي قد استأجره مفروشاً... كان قد عاد من الهند لتوّه.

- الهند؟ هل قلتِ الهند؟ أتذكّر شخصاً... رجلاً عسكرياً كانت له زوجة شابة وطفلة صغيرة.

قالت غويندا بحزم: تلك الطفلة هي أنا.

- حقاً؟ هل هذا معقول؟ حسناً، حسناً... سرعان ما يطير الوقت. ماذا كان اسمه؟ أراد بيتاً مفروشاً... نعم، وكانت السيدة فينديسون قد استدعيت إلى مصر أو مكان آخر كهذا لقضاء فصل الشتاء... كلها سخافات. والآن ماذا كان اسمه؟

غويندا: هاليدي.

- صحيح، هذا صحيح يا عزيزتي. هاليدي، الرائد هاليدي... كان شخصاً لطيفاً وكانت زوجته جميلة جداً، شابة تماماً وذات شعر أشقر، وأرادت أن تكون قرب عائلتها أو شيئاً من هذا القبيل. نعم، كانت جميلة جداً.

غويندا: من كانت عائلتها؟

غالبرايث: ليست لدي أية فكرة أبداً... أنت لا تبدين شبيهة بها.

كادت غويندا أن تقول: "كانت مجرد زوجة لوالدي"، لكنها أحجمت عن تعقيد المسألة وقالت: كيف كانت تبدو؟

على غير توقع أجاب السيد غالبرايث قائلاً: بدت قلقة... هكذا بدت، قلقة. نعم، كان شخصاً لطيفاً جداً ذلك الرجل الرائد، وعندما عرف أنني كنت في كالكوتا أبدى اهتماماً كبيراً. لم يكن مثل أولئك الشبان الذين لم يخرجوا خارج إنكلترا. سطحيون... هذه هي حقيقتهم. أما أنا فقد رأيت العالم. «سينت كاثرين»... نعم، ذلك هو البيت. لقد استأجر «سينت كاثرين» بستة جنيهات في الأسبوع في أثناء سفر السيدة فينديسون إلى مصر، ثم ماتت المسكينة هناك فعُرض البيت في المزاد. من الذي اشتراه وقتها؟ عائلة إيلوورثي... نعم، مجموعة من النساء، أخوات كاثوليكيات. وقد بدّلنَ اسم المنزل لأن اسم «سينت كاثرين» كان كاثوليكياً كما قلن!

تنهد فجأة واتكأ إلى الخلف وقال بانزعاج: كان ذلك منذ وقت طويل. لا أستطيع تذكر الأسماء... ذلك الشاب من الهند كان لطيفاً... إنني متعب، أريد الشاي يا غلاديس.

شكره غايلز وغويندا وشكرا ابنته، ثم غادرا.

قالت غويندا: إذن فقد ثبت ذلك؛ لقد كنت وأبي في هيلسايد. ماذا نفعل بعد ذلك؟

قال غايلز: لقد كنت غبياً. سامرسيت هاوس!

- وما هو سامرسيت هاوس؟

- إنه مكتب التسجيل، حيث تستطيعين تدقيق واستخراج عقود الزواج. سأذهب إلى هناك لأبحث عن معلومات عن زواج أبيك، إذ أن والدك -حسبما ذكرت خالتك- تزوج زوجته الثانية بعد وصوله إلى إنكلترا مباشرة. ألا ترين يا غويندا؟ كان ينبغي أن يخطر هذا ببالنا من قبل. من الممكن تماماً أن هيلين كانت إحدى قريبات زوجة أبيك، ربما كانت أختها الصغرى مثلاً. وعلى أية حال فبمجرد أن نعرف اسم عائلتها يمكننا أن نصل إلى أحد يعرف شيئاً عن المجموعة التي سكنت «هيلسايد». تذكري أن العجوز قال إنهم أرادوا بيتاً في ديلماوث ليكونوا قريبين من عائلة السيدة هاليدي، فإن كانت عائلتها تسكن قريباً من هنا فلربما حصلنا على شيء.

هتفت غويندا: غايلز، أنت رائع!

-٣-

لكن غايلز لم يجد من الضروري أن يذهب إلى لندن. ومع أن طبيعته النشيطة الحيوية جعلته دوماً ميالاً للاندفاع هنا وهناك ومحاولة القيام بكل شيء بنفسه، إلاّ أنه اعترف أن استفساراً روتينياً محضاً يمكن أن يوكل به غيره.

أجرى مكالمة هاتفية مع مكتبه، وعندما وصل الرد المنتظر هتف بحماسة: "لقد حصلت عليها". ثم أخرج من الظرف نسخة

مصدقة عن عقد زواج وقال: ها هي يا غويندا: «الجمعة، السابع من آب، مكتب تسجيل كينسينغتن. كيلفن جيمس هاليدي تزوّج هيلين سبينلاف كينيدي».

صاحت غويندا بحدة: هيلين؟!

حدق كل منهما إلى الآخر، ثم قال غايلز ببطء: ولكن، ولكن... لا يمكن أن تكون هي. أعني... لقد انفصلا وتزوجت ثانية وسافرت.

- نحن لا نعرف أنها سافرت.

نظرت ثانية إلى الاسم المكتوب بوضوح: هيلين سبينلاف كينيدي.

هيلين؟!

* * *

الفصل السابع
الدكتور كينيدي

-١-

بعد بضعة أيام كانت غويندا تتمشى على الشاطئ عندما داهمتها فجأة ريح قوية، فتوقفت لتحتمي بإحدى الواقيات الزجاجية التي نصبتها شركة ذات بعد نظر لكي يستخدمها زوارها. ثم هتفت بدهشة مثيرة: الآنسة ماربل؟!

وقد كانت حقاً الآنسة ماربل متلفعة بمعطف صوفي ثخين وملفوفة بالوشاحات جيداً. وقالت برشاقة: أنا واثقة أنها مفاجأة كبيرة لك أن تجديني هنا، ولكن طبيبي طلب مني أن أذهب إلى منطقة ساحلية لبعض التغيير، وقد بدا وصفك لديلماوث جذاباً إلى الحد الذي جعلني أقرر أن آتي إلى هنا، ولا سيما أن طباخة وخادماً لإحدى صديقاتي يملكان نزلاً هنا.

قالت غويندا: ولكن لماذا لم تأتي لزيارتنا؟

- إن العجائز يمكن أن يكنّ مصدر إزعاج يا عزيزتي، كما أن الشبان المتزوجين حديثاً يجب أن يُترَكوا وحدهم.

ثم ابتسمت أمام احتجاج غويندا وتابعت: أنا واثقة أنكما كنتما سترحبان بي كثيراً. كيف أنتما؟ هل تتقدمان في حل لغزكما؟

قالت غويندا وهي تجلس بجانبها: إننا نتعقب الآثار بشكل محموم.

ثم شرحت لها تفصيلات تحرياتهما المختلفة حتى ذلك اليوم، حتى انتهت إلى القول: والآن وضعنا إعلاناً في كثير من الصحف، صحف محلية وصحيفة التايمز وغيرها من الصحف اليومية الكبرى، واكتفينا بأن طلبنا من أي شخص يعرف أي شيء عن هيلين سبينلاف هاليدي (كينيدي بالولادة) أن يتصل، إلخ. وأظن أننا لا بد أن نحصل على بعض الأجوبة.

- أظن ذلك يا عزيزتي. نعم، أظن ذلك.

كانت نبرة الآنسة ماربل هادئة شأنَها دائماً، ولكن عينيها بدتا قلقتين، واختلست نظرة سريعة إلى الفتاة الجالسة إلى جانبها. إن نبرة الحماسة والتصميم تلك لم تبدُ لها حقيقيةً تماماً. وفكرت الآنسة ماربل بأن غويندا تبدو قلقة، فإن ما أسماه الدكتور هيدوك «مضامين القضية» ربما بدأت تنكشف لغويندا. نعم، ولكن الوقت أصبح متأخراً بما لا يسمح بالنكوص.

قالت الآنسة ماربل بلطف واعتذار: لقد أصبحت فعلاً مهتمة بهذا الأمر. ليس في حياتي إلاّ القليل من الأحداث المثيرة، وآمل أن لا تعتبروني فضولية إن طلبت منكم أن تطلعوني على ما يستجد معكم؟

أجابتها غويندا بحرارة: طبعاً سنطلعك. سوف تشتركين معنا

في كل شيء، فلولاك لكنت الآن أدفع الأطباء دفعاً ليقفلوا عليّ قفص المجانين! أعطيني عنوانك هنا، وبعدها ينبغي أن تزورينا وتتناولي الشاي معنا وتشاهدي البيت. لا بد أن تشاهدي مسرح الجريمة، أليس كذلك؟

ضحكت، ولكن كان في ضحكتها مسحة طفيفة من العصبية. وعندما ذهبت في طريقها هزت الآنسة ماربل رأسها وقطبت جبينها.

-٢-

دأب غايلز وغويندا على غربلة البريد بلهفة في كل يوم، ولكن آمالهما خابت في البداية. كان كل ما تلقياه رسالتين من وكيلي تحريات خاصة أبديا استعدادهما وخبرتهما في تولي البحث نيابة عنهما، وعلق غايلز على الرسالتين بقوله: لدينا متسع من الوقت لهما فيما بعد، وإذا ما اضطررنا إلى استخدام وكالة ما فينبغي أن تكون من الدرجة الأولى تماماً وليست واحدة تبحث عن زبائنها من خلال البريد. ولكنني لا أرى في الواقع شيئاً يمكن لهم أن يفعلوه ولم نقم به نحن.

ثم جاء ما يبرر تفاؤله بعد بضعة أيام، فقد وصلت رسالة كتبت بواحد من تلك الخطوط الواضحة ولكن غير المفهومة بعض الشيء التي تميز الرجل المحترف:

سيدي العزيز،

جواباً على إعلانكم في صحيفة التايمز فإن هيلين سبينلاف كينيدي هي أختي. لقد فقدت الاتصال معها

منذ سنوات طويلة، وسأكون مسروراً بتلقي أخبار عنها.

المخلص: الدكتور جيمس كينيدي
«غالز هيل»، وودلي بولتن

هتف غايلز: وودلي بولتن ليست بعيدة؛ إنها تبعد عنا بنحو ثلاثين ميلاً فقط. سنكتب ونسأل الدكتور كينيدي إن كان بوسعنا الذهاب لرؤيته أو إن كان يفضّل أن يأتي هو إلينا.

جاء جوابٌ بأن الدكتور كينيدي سيكون مستعداً لاستقبالهما يوم الأربعاء التالي، وفي ذلك اليوم بدآ سفرتهما.

* * *

كانت وودلي بولتن قرية مبعثرة البيوت غير منظمة تمتد على طول سفح إحدى التلال، وكان «غالز هيل» أعلى منزل يتربع على قمة المرتفع بما يمنحه إطلالة على القرية وعلى المستنقعات باتجاه البحر.

قالت غويندا وهي ترتجف: إنها منطقة جرداء باردة.

كان البيت نفسه أجرد بارداً، وبدا واضحاً أن الدكتور كينيدي كان يزدري الابتكارات الحديثة مثل التدفئة المركزية. كانت المرأة التي فتحت الباب سمراء منفّرة، وقادتهما عبر الصالة التي كادت تكون عارية جرداء إلى مكتب صغير حيث نهض الدكتور كينيدي لاستقبالهما. كانت غرفة طويلة عالية الجدران فيها رفوف مليئة بالكتب.

كان الدكتور كينيدي رجلاً كهلاً أشيب الشعر ذا عينين لاذعتين

تحت حاجبيه الكثّين. وتنقّلت نظراته بحدة بينهما ثم قال: السيد والسيدة ريد؟ اجلس هنا يا سيد ريد، ربما كان هذا أكثر الكراسي راحة. والآن، ما هو هذا الموضوع؟

مضى غايلز يروي بطلاقة قصتهما التي اتفقا عليها مسبقاً: لقد تزوجا هو وغويندا في نيوزيلندا مؤخراً ثم جاءا إلى إنكلترا التي عاشت فيها زوجته لفترة قصيرة عندما كانت طفلة، وكانت تحاول تتبع أصدقاء ومعارف العائلة القدامى.

بقي الدكتور كينيدي ثابتاً صلباً متحفظاً. كان مؤدباً ولكنه انزعج -كما هو واضح- من هذا الإصرار الذي يميز أهل المستعمرات على الروابط العائلية العاطفية، ثم سأل غويندا بتهذيب ولكن بمسحة من العدائية: وهل تعتقدين أن شقيقتي من أقربائك؟

أجابت غويندا: لقد كانت زوجة أبي... الزوجة الثانية لوالدي. لا أستطيع أن أتذكّرها بشكل جيد بالطبع لأنني كنتُ صغيرة جداً. كان اسمي قبل الزواج هو غويندا هاليدي.

حدق الدكتور كينيدي إليها، ثم فجأة أضاءت ابتسامة وجهه. أصبح شخصاً آخر ولم يعد متحفظاً محايداً، وقال: يا إلهي، لا تقولي لي إنك غويني!

هزّت غويندا رأسها بلهفة بالإيجاب، فقد رنّ اسم الدلع الذي نسيته لفترة طويلة، رنّ في أذنيها بألفة مُطَمئنة. قالت: نعم، أنا غويني.

قال الدكتور كينيدي: يا إلهي كيف يجري الزمن! لقد كبرت

وتزوجت. لقد مرت... كم؟ خمس عشرة سنة. لا ، بل أكثر من ذلك بكثير. أظن أنك لا تتذكرينني؟

هزت غويندا رأسها بالنفي وقالت: أنا لا أتذكر حتى والدي. أعني أن ذكرياتي ضبابية غائمة.

- طبعاً؛ زوجة هاليدي الأولى كانت من نيوزيلندا؛ أتذكّر أنه أخبرني بذلك. إنها بلاد جميلة كما أعتقد.

- إنها أجمل بلد في العالم، ولكنني مغرمة جداً بإنكلترا كذلك.

- هل جئتما في زيارة أم أنكما ستستقران هنا؟

ثم رنّ جرساً وهو يقول: يجب أن نشرب شاياً.

وعندما أتت المرأة الطويلة قال لها: أحضري شاياً من فضلك، وخبزاً محمصاً بالزبدة أو... أو كعكاً أو أي شيء آخر.

بدت مدبرة المنزل المحترمة حقودة، ولكنها قالت: حاضر يا سيدي.

قال الدكتور كينيدي بشيء من الغموض: أنا لست معتاداً على تناول الشاي ولكن ينبغي أن نحتفل.

قالت غويندا: هذا لطف كبير منك. لقد اشترينا بيتاً... «هيلسايد».

أجاب الدكتور كينيدي بغموض: آه، نعم، في ديلماوث. لقد كتبتما لي من هناك.

غويندا: إنها أغرب مصادفة تخطر بالبال، أليس كذلك يا غايلز؟

غايلز: نعم في الحقيقة، مذهلة تماماً بالفعل.

قالت غويندا: "كان معروضاً للبيع". ثم أضافت أمام عدم الفهم الظاهر لدى الدكتور كينيدي: إنه نفس البيت الذي عشنا فيه منذ زمن طويل.

قطب الدكتور كينيدي جبينه ثم قال: «هيلسايد»؟ ولكن المؤكد... آه، نعم. لقد سمعت أنهم غيروا الاسم. كان اسم المنزل سينت كذا... لا أذكر. إذا كان نفس المنزل الذي أفكر فيه... في شارع ليهامبتون على الجانب الأيمن وأنت قادم إلى المدينة؟

غويندا: نعم.

كينيدي: ذاك هو إذن. من المضحك كيف تهرب الأسماء من رأس المرء. انتظري لحظة، سينت كاثرين، ذلك هو اسمه القديم.

غويندا: وقد عشت أنا هناك، أليس كذلك؟

قال كينيدي: "نعم، طبعاً عشت هناك". ثم حدق إليها مستغرباً وقال: ولماذا أردت العودة إلى هناك؟ لا يمكنك تذكر الكثير في ذلك البيت بالتأكيد، أليس كذلك؟

غويندا: نعم، ولكن المكان أشعرني بأنه بيتي على نحو ما.

كرر الدكتور: أشعرني أنه بيتي...

لم يظهر أي تعبير في الكلمات، لكن غايلز تساءل عمّا كان الدكتور يفكر فيه.

قالت غويندا: ولذلك كان أملي أن تخبرني عن كل شيء، عن والدي وهيلين... وكل شيء.

نظر إليها كينيدي متأملاً ثم قال: أظن أنهم لم يكونوا يعرفون الكثير هناك في نيوزيلندا. ولكن لماذا يعرفون؟ حسناً، ليس هناك الكثير لأقصّه. كانت أختي هيلين عائدة من الهند في نفس الباخرة مع والدك، وكان قد فقد زوجته لتوه ومعه ابنته الطفلة، وشعرت هيلين بالشفقة عليه أو أحبته، وكان وحيداً ولعلّه أحبها. من الصعب معرفة الطريقة التي تحدث بها الأشياء بالضبط. تزوجا في لندن فور وصولهما ثم ذهبا إلى ديلماوث عندي. كنت طبيباً متمرناً هناك وقتها، وبدا كيلفين هاليدي رجلاً لطيفاً ولكنْ عصبياً مرهَقاً، ومع ذلك بدا أنهما سعيدان تماماً معاً آنذاك.

ثم صمت برهة قبل أن يقول: ولكنها هربت مع شخص آخر قبل انقضاء السنة الأولى. ربما كنت تعرفين ذلك؟

غويندا: من هو الذي هربت معه؟

ركز عليها عينيه اللاذعتين وقال: إنها لم تخبرني، فلم أكن محلّ ثقتها. لقد لاحظت (ولم أستطع تفادي ملاحظة) أنه كان هناك احتكاك بينها وبين كيلفين، ولم أعرف السبب. لم يكن ممكناً تجاهل ذلك ولكنني كنت دوماً رجلاً من الطراز المتزمت ومؤمناً بالإخلاص الزوجي. ولم تحب هيلين أن أعرف ما كان يجري. سمعت إشاعات، فالمرء يسمع أحياناً، ولكن لم يُذكَر أي شخص بعينه. كانا غالباً ما يستقبلان ضيوفاً من لندن أو من أجزاء أخرى من إنكلترا يقيمون معهما، ولعلّه كان واحداً من هؤلاء الضيوف.

غويندا: لم يكن هناك طلاق إذن؟

- هيلين لم تكن تريد طلاقاً؛ كيلفين أخبرني بذلك، ولذلك تخيلت (وربما كنت مخطئاً) أنها كانت قضية رجل متزوج، رجل متزوج بامرأة كاثوليكية مثلاً.

- ووالدي؟

- لم يُرِد الطلاق هو أيضاً.

كان الدكتور كينيدي يتكلم باختصار، وسألت غويندا: أخبرني عن أبي، لماذا قرر فجأة أن يرسلني إلى نيوزيلندا؟

سكت كينيدي لحظة قبل أن يقول: لقد فهمت أن أقاربك هناك كانوا يضغطون عليه، وبعد انفصام زواجه الثاني ربما فكر بأن إرسالك كان أفضل حل.

غويندا: لماذا لم يأخذني بنفسه إلى هناك؟

نظر الدكتور كينيدي إلى رف الموقد باحثاً عن منظف غليونه بشرود، ثم قال: آه، لا أعرف... كان في صحة سيئة.

- ماذا كانت مشكلته الصحية؟ ماذا كان سبب موته؟

فُتح الباب وظهرت مدبرة المنزل المتجهّمة حاملة صينية عليها خبز محمص مطلي بالزبدة ومربى ولكن لم يكن عليها كعك. وبحركة غامضة أشار الدكتور كينيدي إلى غويندا لتسكب الشاي، فسكبته. وعندما امتلأت الفناجين ووُزّعت وأخذت غويندا قطعة من الخبز المحمّص قال الدكتور كينيدي بابتهاج مفتعَل نوعاً ما:

أخبريني ماذا فعلت للبيت؟ لا أعتقد أن بوسعي تمييزه الآن بعد أن استكملتما عملكما فيه.

أجاب غايلز: إننا نقوم بتحويرات ممتعة للحمامات.

قالت غويندا وعيناها مركزتان على الدكتور: بأي شيء مات والدي؟

- إننا لا نعرف حقاً يا عزيزتي. كما قلت لك، كانت صحته سيئة نوعاً ما لفترة، ثم دخل أخيراً إلى مصح في مكان ما على الساحل الشرقي، ثم توفي بعدها بسنتين تقريباً.

- أين كان هذا المصح بالضبط؟

- أنا آسف؛ لا أستطيع أن أتذكر الآن، لكن لديّ انطباع بأنه كان على الساحل الشرقي كما قلت.

وضحت المراوغة في أسلوبه في تلك اللحظة. نظر غايلز إلى غويندا لبرهة وجيزة ثم قال: بوسعك يا سيدي أن تخبرنا أين دفن على الأقل، فمن الطبيعي أن غويندا متلهفة على زيارة قبره.

انحنى الدكتور كينيدي على الموقد وهو يحك تجويف غليونه بمطواة، ثم قال بشكل غامض نوعاً ما: هل تعرفان؟ لا أعتقد حقاً أن على المرء أن يعيش على الماضي. إن عبادة الأسلاف هذه مسألة خاطئة، فالعبرة في المستقبل. أنتما شابان تتمتعان بالصحة والحياةُ أمامكما، فكرا بالآتي فلا فائدة ترجى من الشروع في وضع الأزهار على قبر شخص لم تكادي تعرفينه من الناحية العملية.

قالت غويندا بتمرد: لكنني أحب أن أرى قبر أبي.

أجابها الدكتور كينيدي بنبرة ودودة ولكنها باردة: أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك. لقد كان ذلك منذ زمن طويل وذاكرتي لم تعد كما كانت، وقد فقدت الاتصال بوالدك بعد أن غادر ديلماوث. أظن أنه كتب لي مرة من المصح، وكما قلت: لديّ انطباع بأنه كان على الساحل الشرقي ولكني لا أستطيع التأكد من هذا الأمر، وليست لديّ أي فكرة عن مكان دفنه.

قال غايلز: ما أغرب ذلك!

- ليس غريباً في الواقع، فقد كانت هيلين هي الصلة بيننا. لقد أحببت هيلين دوماً، إنها أختي غير الشقيقة وكانت أصغر مني بسنوات كثيرة، ولكني حاولت تربيتها بأفضل ما أستطيع بإرسالها إلى المدارس المناسبة وغير ذلك. ولكن لا ينكر أن هيلين... حسناً، أنها لم تكن يوماً ذات شخصية مستقرة. كانت لها مشكلات عندما كانت في مقتبل شبابها مع شاب كريه جداً وأخرجتُها من تلك الورطة سالمة، وبعدها اختارت الذهاب إلى الهند لكي تتزوج وولتر فين. حسناً، كان ذلك مناسباً، فقد كان شاباً لطيفاً وابناً لأفضل المحامين في ديلماوث، ولكنه كان أبلد وأبرد من المياه الراكدة! كان مغرماً بها تماماً ولكنها لم تنظر إليه قط، ومع ذلك غيرت رأيها وسافرت إلى الهند لتتزوج به، لكنها حين رأته ثانية انتهى كل شيء ورفضت أن تتزوجه وأبرقت إليّ طالبة نقوداً لرحلة العودة، وأرسلت لها النقود. وفي طريق عودتها التقت بكيلفين، وقد تزوجا قبل أن أعلم بالأمر. وشعرت أنني ألتمس العذر لأختي تلك، وهذا ما يفسر عدم استمرارنا (كيلفين وأنا) في علاقتنا بعد أن ذهبت.

ثم أضاف فجأة: أين هي هيلين الآن؟ هل بوسعكما إخباري؟ أنا توّاق إلى الاتصال بها.

قالت غويندا: لكننا لا نعرف، لا نعرف أبداً.

- آه! لقد حسبت من إعلانكم...

ثم نظر إليهما بفضول مفاجئ وقال: أخبراني، لماذا نشرتما الإعلان؟

قالت غويندا: أردنا تحقيق صلة...

ثم توقفت فقال كينيدي: صلة مع شخص لا تكادين تذكرينه؟

بدا الدكتور متحيراً، فأجابته غويندا بسرعة: فكرت أنني لو استطعت تحقيق صلة معها فسوف تخبرني عن والدي.

كينيدي: نعم، فهمت. أنا آسف لأنني لا أستطيع مساعدتك فالذاكرة لم تعد كما كانت، وقد مضى على الأمر زمن طويل.

قال غايلز: على الأقل أنت تعرف أي نوع من المصحّات كان ذاك. هل كان مصحّاً لأمراض السل مثلاً؟

بدا وجه كينيدي فجأة بلا تعبير وقال: نعم، ربما كان كذلك.

- إذن لا بد أن نكون قادرين على الاهتداء إليها بسهولة، شكراً جزيلاً لك يا سيدي على كل ما أخبرتنا به.

قال غايلز ذلك ثم نهض، وتبعته غويندا على الفور قائلة: أشكرك كثيراً وأرجوك أن تأتي لزيارتنا في «هيلسايد».

خرجا من الغرفة، والتفتت غويندا لتلمح الدكتور كينيدي للمرة الأخيرة واقفاً قرب رف الموقد يمسّد شاربه الأشيب ويبدو قلقاً.

قالت غويندا وقد دخلا السيارة: إنه يعرف شيئاً لا يريد أن يخبرنا به. ثمة شيء ما. آه يا غايلز، أتمنى... أتمنى الآن لو لم نبدأ بهذا الأمر أبداً.

نظر كل منهما إلى صاحبه، وفي عقل كل منهما انبثق الخوف نفسه الذي لا يريد كل واحد أن يعترف به للآخر.

قالت غويندا: لقد كانت الآنسة ماربل على حق؛ كان علينا أن نترك الماضي وشأنه.

- لسنا بحاجة إلى المضي في الموضوع.

قال ذلك غير متأكد، ثم أضاف: يا عزيزتي غويندا، أظن من الأفضل أن لا نستمر.

هزت غويندا رأسها وقالت: لا يا غايلز، لا نستطيع التوقف الآن لأننا سنبقى نتساءل ونتخيل. علينا أن نستمر. لم يرد الدكتور كينيدي أن يخبرنا لأنه أراد أن يكون لطيفاً، ولكن مثل هذا العمل ليس صحيحاً. سنضطر إلى المضي قدماً وكشف ما حدث بالفعل حتى لو، حتى لو... لو كان والدي هو...

ولكنها لم تستطع أن تكمل.

* * *

الفصل الثامن

أوهام كيلفين هاليدي

في صباح اليوم التالي كانا في الحديقة عندما خرجت السيدة كوكر وقالت: عفواً يا سيدي، يوجد رجل يدعى الدكتور كينيدي على الهاتف.

ترك غايلز غويندا تتشاور مع البستاني العجوز فوستر ودخل إلى المنزل ورفع سماعة الهاتف قائلاً: معك غايلز ريد.

- أنا الدكتور كينيدي. لقد كنت أعيد التفكير بمحادثتنا أمس يا سيد ريد. هناك حقائق معينة أظن أنه ربما كان ضرورياً لك ولزوجتك أن تعرفاها، فهل تكونان في البيت إن مررت عصر هذا اليوم؟

- سنكون هنا بالتأكيد. في أية ساعة؟

- الساعة الثالثة؟

- هذا يناسبنا.

في الحديقة قال فوستر العجوز لغويندا: هل هو نفسه الدكتور كينيدي الذي كان يعيش في ويست كليف؟

قالت غويندا: أظن ذلك، هل تعرفه؟

- لقد كان أفضل طبيب هنا إلاّ أن الدكتور ليزنبي كان أكثر شعبية. كان في جعبته دوماً كلمة وضحكة تفرحك، ذاك هو الدكتور ليزنبي، أما الدكتور كينيدي فقد كان مقتضباً وجافاً بعض الشيء، ولكنه كان يتقن عمله.

- متى أنهى تدريبه هنا؟

- مضى على ذلك وقت طويل، ربما خمسة عشر عاماً. وقالوا إن صحته تدهورت.

خرج غايلز وأجاب عن سؤال غويندا الصامت: إنه قادم إلينا بعد الظهر.

- آه!

قالتها ثم التفتت إلى فوستر سائلة: هل كنت تعرف أخت الدكتور كينيدي في يوم من الأيام؟

- أخته؟ لا أذكر أنني رأيتها. كانت مجرد فتاة لعوب التحقت بالمدرسة ثم سافرت إلى الخارج، مع أنني سمعت أنها عادت إلى هنا بعض الوقت بعد زواجها. ولكن أظن أنها هربت مع شاب ما. يقولون إنها كانت طائشة، لا أدري مقدار صحة ذلك كوني لم أرها مطلقاً شخصياً، فقد كنت أعمل وقتها في بلايموث.

قالت غويندا لغايلز وهما يمشيان حتى نهاية المصطبة: لماذا يأتي؟

- سنعرف ذلك في الساعة الثالثة.

وصل الدكتور كينيدي في موعده تماماً. قلّب نظره في غرفة الاستقبال وقال: يبدو غريباً أن أكون هنا مرة أخرى!

ثم دخل في الموضوع بلا مقدمات قائلاً: أحسب أنكما مصممان على تقصّي المصح الذي مات كيلفين هاليدي فيه ومعرفة كل ما تستطيعونه من تفاصيل عن مرضه وموته؟

غويندا: بالتأكيد.

- حسناً، بإمكانكما تدبر ذلك بكل سهولة طبعاً، ولذلك فقد توصلت إلى نتيجة مفادها أن سماعكما للحقائق مني سيشكل صدمة أخف. وأنا آسف لاضطراري إلى إخباركما لأن ذلك لن يعود بأي نفع عليكما أو على أي كان، وربما سبب لك -أنت يا غويني- كثيراً من الألم... ولكن لا مفر من ذلك. والدك لم يكن يعاني من مرض السل، والمصحّ الذي ذهب إليه كان مصحاً عقلياً.

غويندا: مصح عقلي؟ هل كان مجنوناً إذن؟

غدا وجه غويندا أبيض تماماً، فقال كينيدي: لم يُصنَّف كمجنون، وفي رأيي أنه لم يكن مجنوناً بالمعنى العام للكلمة. كان قد تعرض إلى انهيار عصبي شديد جداً وعانى من بعض الوساوس الوهمية، ثم ذهب إلى مصح الرعاية بمحض إرادته واختياره. وكان يمكنه طبعاً أن يغادره ساعة يشاء، ولكن حالته لم تتحسن وتوفي هناك.

- وساوس وهمية؟

ردد غايلز الكلمات بتساؤل، ثم قال: ماذا تعني بأنها وهمية، أي نوع من الأوهام؟

قال الدكتور كينيدي بجفاء: كان خاضعاً لانطباع بأنه قد خنق زوجته.

أطلقت غويندا صرخة مكبوتة، فامتدت يد غايلز بسرعة ليأخذ يدها الباردة بيده وقال: وهل... هل فعل ذلك حقاً؟

حدق الدكتور كينيدي إليه ثم قال: ماذا؟! لا، بالطبع لم يفعل؛ ما من شك في ذلك.

تساءلت غويندا بصوت غائب غير واثق: ولكن... ولكن كيف عرفت؟

- يا طفلتي العزيزة! لم يوجد شكٌّ أبداً في شيء كهذا. لقد تركته هيلين من أجل رجل آخر، وكان يمر في حالة من عدم التوازن الكبير لفترة من الوقت: أحلام عصبية وأوهام وخيالات مرَضية... والصدمة الأخيرة جعلته ينهار. أنا لست محللاً نفسياً ولكن لأطباء النفس تفسيراتهم لحالات كهذه؛ إن كان ثمة رجل يفضل موت زوجته على خيانتها فبوسعه أن يتدبر أمر إقناع نفسه بأنها ميتة... بل حتى بأنه قد قتلها.

باحتراس تبادل غايلز وغويندا نظرة تحذير، ثم قال غايلز بهدوء: إذن فأنت متأكد تماماً من أنه لا يمكن أن يكون قد قام فعلاً بما قال إنه قد فعله؟

- آه، متأكد تماماً. لقد استلمت رسالتين من هيلين، الأولى

كانت من فرنسا بعد نحو أسبوع من فرارها والثانية بعد نحو ستة أشهر. لا، كان الأمر كله مجرد وهم لا أكثر ولا أقل.

سحبت غويندا نفساً عميقاً وقالت: رجاء، هل لك أن تخبرني كل شيء عن الموضوع؟

- سأخبرك بما أستطيعه يا عزيزتي. بداية كان كيلفين يعيش حالة عصبية خاصة نوعاً ما لفترة من الوقت، وقد جاءني طالباً النصح بشأن ذلك. قال إنه يرى أحلاماً مقلقة وإن هذه الأحلام كانت تتكرر هي نفسها دائماً وتنتهي بنفس الطريقة، بخنقه هيلين! وقد حاولت الوصول إلى جذر المشكلة وخطر ببالي أن يكون قد عانى في طفولته المبكرة من صراع ما، ويبدو أن والديه لم يكونا زوجين سعيدين. حسناً، سوف لا أطيل في ذلك فهذا لا يهم إلاّ الطبيب. واقترحت على كيلفين أن يستشير طبيباً نفسياً، ولكنه كان لا يطيق سماع ذلك ويرى أن مثل هذا الأمر كلامٌ فارغ. وخطرت لي فكرة أنه وهيلين لم يكونا منسجمَين وأنهما ليسا على ما يرام، ولكنه لم يتحدث عن ذلك وأنا لم أرغب في طرح أسئلة. وقد وصل الأمر كله إلى ذروته عندما دخل بيتي ذات مساء، وكان يوم جمعة كما أذكر، وكنت قد عدت لتوي من المستشفى لأجده في انتظاري في غرفة المكتب. كان قد وصل قبلي بربع ساعة تقريباً، وحالما دخلت نظر إليّ وقال: "لقد قتلت هيلين"! للحظات لم أعرف فيمَ أفكر، فقد كان بارداً جداً في أسلوبه وواقعياً. وقلت له: "هل تعني... أنك تعرضت لحلم آخر؟" فقال: "إنه ليس حلماً هذه المرة. إنها الحقيقة، وهي متمددة هناك مخنوقة... لقد خنقتها". ثم قال ببرودة وعقلانية تامة: "الأفضل أن تعود معي إلى البيت، ثم يمكنك أن تتصل بالشرطة من

هناك". ولم أدرِ بماذا أفكر، فركبنا السيارة وأتينا إلى هنا. كان البيت هادئاً ومظلماً، وصعدنا إلى غرفة النوم...

انفجرت غويندا قائلة: غرفة النوم؟!

بدت في صوتها دهشة شديدة، فاستغرب الدكتور كينيدي قليلاً ثم مضى ليقول: نعم، هناك حدث كل شيء. وبالطبع فعندما صعدنا هناك لم يكن ثمة شيء أبداً! لا امرأة ميتة تتمدد على السرير ولا شيء فسد ترتيبه... بل حتى ملاءات السرير لم تتغضن. كان الأمر هلوسة تماماً.

غويندا: ولكن ماذا قال والدي؟

- لقد أصرّ على روايته طبعاً، كان يصدّقها تماماً. أقنعتُه بأن يأخذ مسكّناً ووضعته في فراشه، ثم فتشت المنزل تفتيشاً دقيقاً فوجدت ملاحظة كانت هيلين قد تركتها مكوَّرة ومرمية في سلة المهملات في غرفة الاستقبال، وبدا الأمر واضحاً تماماً. كانت قد كتبت شيئاً من قبيل: «هذه رسالة وداع. أنا آسفة ولكن زواجنا كان خطأً منذ البداية، إنني ذاهبة مع الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي. اغفر لي إن استطعتَ. هيلين». والظاهر أن كيلفين دخل وقرأ ملاحظتها فصعد إلى الطابق العلوي، وهناك أصابته نوبة صرع دماغية عاطفية فأتاني مقتنعاً بأنه قد قتل هيلين. بعد ذلك حققت مع الخادمة. كانت عطلتها في ذلك المساء وكانت قد عادت متأخرة، فأخذتها إلى غرفة هيلين حيث قامت بتفحص ثياب هيلين وأشيائها. وبدا الأمر واضحاً تماماً، فقد حزمت هيلين حقيبة يدوية وحقيبة سفر وأخذتهما معها. فتّشت المنزل فلم أجد فيه أي أثر لأي شيء

غير عادي ولا أي أثر لامرأة مخنوقة بالتأكيد. وقد أمضيت وقتاً عصيباً جداً مع كيلفين صباح اليوم التالي، ولكنه أدرك أخيراً أن ذلك كان مجرد وهم (أو أن هذا ما قاله على الأقل) ووافق على الذهاب إلى مصح للمعالجة. بعد أسبوع تلقيت رسالة من هيلين قالت فيها إنها ذاهبة إلى إسبانيا، وطلبَت مني أن أخبر كيلفين أنها لا تريد طلاقاً وأن من الأفضل له أن ينساها بأسرع ما يمكن. وعرضت الرسالة على كيلفين فلم يقل إلاّ القليل. كان ماضياً في خططه، فقد أبرق إلى أهل زوجته الأولى في نيوزيلندا طالباً منهم أن يأخذوا الطفلة، وسوّى شؤونه ثم دخل مصحاً عقلياً خاصاً ووافق على تلقي علاج مناسب، ولكن ذلك العلاج لم يُجدِ نفعاً في مساعدته فمات هناك بعد سنتين. أستطيع إعطاءكم عنوان المكان، إنه في نورفولك، ومدير المصحة الحالي كان طبيباً شاباً هناك في ذلك الوقت وربما يكون قادراً على إعطائك تفاصيل كاملة عن حالة والدك.

قالت غويندا: وقد تلقيتَ رسالة أخرى من أختك بعد ذلك أيضاً؟

- آه، نعم؛ بعد نحو ستة أشهر. كتبت إليّ من فلورنسا وأعطت عنواناً لدائرة بريد يمكن أن تحتفظ بالرسائل حتى يمر أصحابها لأخذها شخصياً، وأعطت اسمها «الآنسة كينيدي». قالت إنها أدركت أنه ربما كان من الظلم لكيلفين أن لا يمضي بالطلاق، مع أنها لا تريد الطلاق هي نفسها. فإذا ما أراد الطلاق وأعلمتها أنا بذلك فسوف تتولى تزويده بالدليل. أخذت الرسالة إلى كيلفين فقال فوراً إنه لا يريد طلاقاً، فكتبت لها وأخبرتها بذلك، ومنذ ذلك الحين لم أسمع منها شيئاً. لا أعرف أين تعيش أو إن كانت حيّة أم

ميتة، ولذلك جذبني إعلانك وأملت بأن أحصل على أخبار عنها.

ثم أضاف بلطف: أنا آسف جداً لذلك يا غويني، ولكن كان عليك أن تعرفي. مع أنني تمنيت لو أنك تركت الأمور على حالها.

* * *

الفصل التاسع

عنصر مجهول؟

-١-

عندما عاد غايلز من وداع الدكتور كينيدي وجد غويندا تجلس حيث تركها وعلى كل خد من خدّيها بقعة حمراء لامعة، وبدت عيناها محمومتين. وعندما تكلمت كان صوتها أجش منفعلاً وهي تقول: ماذا يقول المثل القديم السائر؟ «الموت أو الجنون أنّى ذهبت»! هذا هو ملخص القضية؛ الموت أو الجنون!

قال غايلز: غويندا، حبيبتي!

ثم مضى إليها ووضع ذراعه حولها فوجد جسدها قاسياً متشنجاً.

قالت: لماذا لم نترك الأمر كله وشأنه؟ لماذا لم نتركه؟ لقد كان أبي الذي خنقها، وكان صوت والدي هو الذي سمعته يردّد تلك الكلمات! فلا عجب أن تعود لي الذكرى من جديد، لا عجب أن أجد نفسي مرعوبة إلى ذلك الحد... إنه والدي أنا!

- انتظري يا غويندا، انتظري. نحن غير متأكدين.

- بل متأكدون طبعاً! ألم يخبر والدي الدكتور كينيدي بأنه قد خنق زوجته؟

- ولكن كينيدي متأكد تماماً من أن هذا لم يحصل.

لأنه لم يجد جثة. ولكن كانت هناك جثة... وأنا قد رأيتها.

- ولكنك رأيتِها في الصالة وليس في غرفة النوم.

- وما الفرق في ذلك؟

- الأمر مستغرَب، أليس كذلك؟ لماذا يقول هاليدي إنه خنق زوجته في غرفة النوم إن كان قد خنقها في الصالة؟

- آه، لا أدري، ولكن هذا أمر ثانوي.

- لست واثقاً من أنه ثانوي فعلاً. حاولي أن تتفهمي يا حبيبتي؛ هناك نقاط مضحكة تماماً في مجمل هذه التركيبة. حسناً، سنفترض أن والدك خنق هيلين في الصالة بالفعل، فما الذي حدث بعد ذلك؟

- ذهب إلى الدكتور كينيدي.

- وأخبره أنه قد خنق زوجته في غرفة النوم، ثم أحضره معه فلم يجد الدكتور كينيدي أي جثة لا في الصالة ولا في غرفة النوم. فإذا نحّينا جانباً كل شيء لقلنا إنه لا يمكن أن تكون هناك جريمة قتل بلا جثة. ماذا فعل بالجثة؟

- ربما كانت هناك جثة وساعده الدكتور كينيدي في إخفائها، ويبقى طبعاً أنه لم يستطع أن يقول لنا ذلك.

هز غايلز رأسه مشككاً وقال: لا يا غويندا، لا أستطيع أن أتخيل كينيدي يعمل بتلك الطريقة. إنه إسكتلندي عنيد ذكي غير عاطفي. إن ما يوحي به كلامك هو أنه كان مستعداً لتعريض نفسه لخطر محدق كمتستر ومتعاون في جريمة بعد وقوعها، ولا أعتقد أنه كان مستعداً لذلك. كان من شأنه -لو صح هذا- أن يبذل جهده في مساعدة هاليدي بالإدلاء بشهادة حول حالته العقلية... هذا ممكن، ولكن لماذا يخاطر إلى هذا الحد في سبيل تغطية الجريمة؟ لم يكن كيلفين هاليدي من أقربائه ولم يكن صديقاً حميماً له، وقد كانت القتيلة أخته، ومن الواضح أنه كان يحبها رغم إظهاره اعتراضاً فكتورياً بسيطاً على سلوكياتها اللاهية. لا، إن كينيدي لم يكن ليتواطأ في إخفاء جريمة قتل، ولو أنه أراد التواطؤ لكانت هناك طريقة واحدة متاحة يمكن له أن يتصرف من خلالها، وهي أن يتعمّد الإدلاء بشهادة وفاة تبين أن أخته ماتت نتيجة سكتة قلبية أو ما إلى ذلك. وأحسب أنه ربما كان قادراً على تدبير شيء كهذا، ولكننا نعلم علم اليقين بأنه لم يقم بذلك لأنه ليس هناك تسجيل لوفاتها في مكتب تسجيل الوفيات، ولو أنه فعلها لكان أخبرنا بأن أخته قد ماتت. انطلقي من ذلك كله وفسّري إن استطعت: ماذا حصل للجثة؟

- ربما دفنها أبي في مكان ما... في الحديقة مثلاً؟

- هل يعقل أن يكون قد دفنها ثم ذهب إلى كينيدي وأخبره أنه قتل زوجته؟ لماذا؟ لماذا لا نثق بالرواية التي تقول إنها تركته؟

أزاحت غويندا شعرها عن جبينها. كان جسمها قد أصبح أقل تصلباً وتشنجاً وبدأت بقع اللون الفاقع على خدها تتلاشى. اعترفت

قائلة: لا أدري. لا يبدو الأمر مستهجَناً أبداً الآن بعد أن شرحتَه على هذا النحو. هل تظن أن الدكتور كينيدي كان يقول الحقيقة؟

- نعم، أنا واثق من ذلك تماماً. إنها رواية معقولة تماماً من وجهة نظره؛ أحلام وهلوسات ثم هلوسة كبرى... لم يكن لديه شك في أن الأمر كان مجرد هلوسة لأنه لا يمكن وجود جريمة قتل دون جثة، وهذه هي النقطة التي يختلف فيها موقعه عن موقعنا، فنحن نعرف أنه كانت هناك جثة.

صمت قليلاً ثم تابع: من وجهة نظره تتوافق كل الأحداث بشكل مقنع: حقيبة وثياب مفقودة ورسالة وداعية وبعدها رسالتان من أخته.

تململت غويندا وقالت: تلك الرسالتان... كيف نفسرهما؟

- نحن لم نفسرهما، ولكن ينبغي لنا أن نجد لهما تفسيراً. إذا افترضنا أن كينيدي كان صادقاً فيما يقوله (وأنا واثق من صدقه كما أسلفت) فإن علينا أن نفسر هاتين الرسالتين.

- هل تظن أنهما كانتا بخط أخته حقاً؟ هل ميز خطها فيهما؟

- أتعلمين يا غويندا، لا أظن أن تلك النقطة يمكن أن تثار لأن الأمر لا يشبه توقيعاً على شيك مشتبَه به. إن كانت تلك الرسالتان قد كُتبتا بخط يقلّد خط أخته بشكل معقول فلم يكن ليخطر في باله أن يشك فيهما، إذ أن لديه أصلاً فكرة مسبقة بأنها هربت مع شخص ما، ثم تأتي الرسالتان لترسّخا ذلك الاعتقاد. ولو أنه لم يستلم منها شيئاً أبداً فلربما كانت شكوكه ستثور عندها. ومع كل ذلك، فإن في

تلك الرسالتين نقاطاً معينة تثير التساؤل، نقاطاً ربما لم تسترعِ انتباهه ولكنها استرعت انتباهي أنا؛ فهما رسالتان متشابهتان بشكل غريب: لا عنوان فيهما سوى عنوان دائرة بريد تحتفظ بالرسائل لأصحابها، ولا إشارة إلى هوية الرجل المعني بالقضية، ثم إن هناك تصميماً واضحاً على الطيّ الكامل لصفحة العلاقات والروابط القديمة كلها. ما أعنيه هو أن الرسالتين هما تماماً من نوع الرسائل التي يمكن لقاتل أن يبتكرها إن أراد تبديد أية شكوك لدى عائلة الضحية.

- هل تظن أن أبي...؟

- لا، وهنا مربط الفرس؛ لا أظن أن أباك أقدم على ذلك. تخيلي رجلاً قرر عامداً متعمداً أن يتخلص من زوجته. إنه يقوم بنشر الشائعات حول خيانتها المفترَضة ثم يُخرج مسرحية رحيلها: رسالة تُترَك بعدها وملابس تُحزم في حقيبة وتؤخذ ورسائل تَرِد منها في فترات مدروسة بعناية من مكان ما في الخارج... ولكنه عملياً قتلها بهدوء وأخفى جثتها تحت أرضية القبو مثلاً. هذا نمط من جرائم القتل وكثيراً ما تم القيام به، لكن الذي لا يقوم به قاتلٌ من ذلك النوع هو الاندفاع إلى زوج أخته لإخباره أنه قتل زوجته ثم استشارته بشأن الذهاب لإبلاغ الشرطة! ومن جهة أخرى، إن كان والدك من نوع القاتل العاطفي وكان يحبّ زوجته حباً جنونياً ثم خنقها في نوبة من الغيرة المجنونة على طراز عطيل (وهو ما يتناسب مع الكلمات التي سمعتِها) فإنه بالتأكيد لا يُقدم على حزم ملابس ويخطط لقدوم رسائل قبل أن يسارع إلى إفشاء أمر جريمته إلى رجلٍ ليس من النوع الذي يُحتمَل أن يساعد في تغطية الأمر والتستر عليه. يوجد خطأ في التركيبة كلها يا غويندا، إن الأسلوب والنمط خطأ كله.

- ما الذي تريد الوصول إليه يا غايلز؟

- لا أدري. أشعر فقط أنه خلال القصة كلها يبدو أن هناك عنصراً مجهولاً، سمِّه «س»، شخص لم يظهر حتى الآن لكن بوسع المرء أن يلحظ ومضاتٍ من أسلوبه.

قالت بدهشة: «س»؟! إنك تختلق كل ذلك يا غايلز لكي تريحني.

- أقسم أنني لا أؤلّف. ألا ترين بنفسك أنك لا تستطيعين وضع رواية مقنعة تناسب كل الحقائق وتجيب على كل الأسئلة؟ نحن نعرف أن هيلين هاليدي خُنِقت لأنك رأيت...

توقف قليلاً ثم هتف: يا إلهي! لقد كنت أبله. لقد فهمت الآن، إن هذا يفسر جميع الحقائق. أنت على صواب وكينيدي على صواب أيضاً. اسمعي يا غويندا: هيلين تستعد للمغادرة مع صاحبها الذي لا نعرف من هو.

- «س»؟

استبعد غايلز مداخلتها بنفاد صبر ومضى قائلاً: كتبت ملاحظتها لزوجها، ولكنه دخل في تلك اللحظة فقرأ ما كتبته وطار صوابه، فكوّر ورقة الرسالة ورماها في سلة المهملات وتقدم منها. أصيبت بالرعب فانطلقت إلى الصالة، فلحقها وأمسك بها وخنقها حتى غدت بلا حراك فخلّى عنها. ثم وقف بعيداً عنها قليلاً واقتطف تلك الكلمات من مسرحية «دوقة مالفي» في الوقت الذي كانت فيه الطفلة في الطابق العلوي قد وصلت إلى الدرابزين وأطلت إلى الأسفل.

- وبعد ذلك؟

- النقطة الأساسية أنها ليست ميتة. ربما اعتقد أنها ماتت ولكنها كانت نصف مختنقة، وربما أتى صديقها بعد أن انطلق الزوج المهتاج إلى بيت الطبيب في الجانب الآخر من البلدة أو ربما استعادت وعيها بمفردها. على أي حال، حالما استعادت وعيها هربت، هربت بسرعة. وهذا يفسر كل شيء: اعتقاد كيلفين بأنه قتلها واختفاء الملابس التي رُزمت وأخذت في وقت مبكر من ذلك اليوم والرسائل التالية التي كانت أصلية تماماً. هذه هي القصة... هذا يفسر كل شيء.

قالت غويندا ببطء: إنها لا تفسر لماذا قال إنه خنقها في غرفة النوم.

- كان مضطرباً جداً بحيث لم يستطع أن يتذكر تماماً أين حدث الأمر كله.

- أود أن أصدقك. أريد أن أصدقك ولكنني ما أزال أشعر بالثقة، بل بالثقة التامة بأنني عندما نظرت إلى الأسفل كانت ميتة، ميتة تماماً.

- ولكن كيف تستطيعين الجزم؟ كنت طفلة لم تكد تبلغ الثالثة.

نظرت إليه نظرة غريبة وقالت: أظن أن بوسع الطفل أن يعرف أكثر مما لو كان أكبر، تماماً مثل الكلاب؛ إن الكلاب تعرف الموت فتُرجع رؤوسها إلى الخلف وتنبح. أعتقد أن الأطفال يعرفون الموت!

- هذا هراء، إنه خيال.

قاطعهما صوت جرس الباب الأمامي فقال غايلز: عجباً! من تراه يكون؟

بدت غويندا خائفة وقالت: لقد نسيت تماماً. إنها الآنسة ماربل؛ لقد دعوتها لتناول الشاي اليوم. دعنا لا نخبرها شيئاً بشأن هذا الأمر.

-٢-

كانت غويندا خائفة من أن يكون شرب الشاي مناسبة يصعب التعامل معها بشكل طبيعي، ولكن لم يظهر على الآنسة ماربل -لحسن الحظ- أنها تلاحظ أن مضيفتها تتحدث بشكل سريع ومحموم بعض الشيء وأن بهجتها كانت متكلِّفة قليلاً. أما الآنسة ماربل فقد كانت مهذارة ولكن بلطف، كانت مستمتعة بإقامتها في ديلماوث إلى أبعد الحدود وقالت إن بعض أصدقاء أصدقائها كتبوا إلى أصدقاء لهم في ديلماوث، وأنها نتيجة لذلك تلقّت بعض الدعوات الرائعة من السكان المحليين.

وأضافت الآنسة ماربل: لا يكاد المرء يشعر بالغربة يا عزيزتي عندما يتعرف إلى بعض الناس الذين عاشوا هنا منذ زمن بعيد، فأنا سأتناول الشاي مثلاً مع السيدة فين، وهي أرملةُ كبير المشاركين في أفضل مكتب محاماة هنا، وهو من طراز تلك الشركات العائلية القديمة وولدها هو الذي يدير المكتب الآن.

ومضى الصوت الرقيق (المعتاد على القيل والقال) ليشرح كيف كانت صاحبة الفندق الذي تقيم الآنسة ماربل فيه لطيفة جداً وحقّقت لها الراحة التامة، بالإضافة إلى الطبخ اللذيذ حقاً. وقالت: لقد عملَت عند أصدقائي القدامى عائلة بانتري لبضع سنوات، مع أنها ليست من هذه المنطقة شخصياً، فقد عاشت خالتها هنا سنوات طويلة واعتادت هي وزوجها الحضور هنا لقضاء عطلاتهما، ولذلك فهي تعرف الكثير من أخبار البلدة وقصصها. بالمناسبة، هل وجدتِ بستانيّك مناسباً؟ لقد سمعت أنهم يعتبرونه هنا كسولاً متهرباً من أعماله ويتكلم أكثر مما يعمل.

قال غايلز: الكلام والشاي هما حقل اختصاصه؛ يشرب خمسة أكواب من الشاي يومياً، ولكنه يعمل بشكل رائع عندما نكون حاضرين.

اقترحت غويندا: قومي لتشاهدي الحديقة.

أطلعوها على البيت والحديقة وأبدت الآنسة ماربل تعليقاتها المناسبة، وإذا كانت غويندا قد خشيت أن تلاحظ الآنسة ماربل الذكية بعض الفوضى فهي لم تكن محقّة في هذه الخشية، لأن الآنسة ماربل لم تُبدِ أية إشارة خاصة بأن شيئاً ما غير عادي.

لكن الغريب تماماً أن غويندا هي التي تصرفت بأسلوب لا يمكن فهمه، فقد قاطعت الآنسة ماربل في وسط قصة كانت تحكيها عن طفل وقوقعة بحرية لكي تقول لغايلز بلهفة: إنني لا أهتم، سوف أخبرها...

أدارت الآنسة ماربل رأسها بانتباه، وهمّ غايلز بالحديث ثم

توقف، وأخيراً قال: حسناً، إن الهمّ همّك يا غويندا.

وهكذا أفرغت غويندا القصة كلها: زيارتهما للدكتور كينيدي وزيارته التالية لهما وما أخبرهما به، ثم سألت بنفَس متقطع: هذا هو ما أشرتِ إليه في لندن، أليس كذلك؟ لقد فكرتِ وقتها بأن... بأن والدي قد يكون متورطاً؟

أجابت الآنسة ماربل برفق: لقد خطرت الفكرة ببالي كاحتمال. نعم، إن هيلين ربما كانت زوجةَ أبٍ شابةً رائعة، وفي حالة الخنق غالباً ما يكون المعنيّ بالأمر هو الزوج.

تكلمت الآنسة ماربل بأسلوبِ مَن يراقب الظواهر الطبيعية دون دهشة أو عاطفة، فقالت غويندا: لقد فهمت لماذا نصحتِنا بأن نترك الأمر وشأنه. آه، ولكم أتمنى لو أننا تركناه وشأنه! ولكن ليس بوسع المرء أن يتراجع في هذه المرحلة.

الآنسة ماربل: نعم، ليس بوسع المرء التراجع.

غويندا: والآن يحسن بك أن تصغي إلى غايلز، فقد كان يثير بعض الاعتراضات ويدلي باقتراحات.

غايلز: إن كل ما أقوله هو أن القصة ليست منسجمة.

ثم مر بشكل واضح وجَليّ على النقاط التي سبق أن عرضها على غويندا، وبعدما فصّل نظريته الأخيرة قال: لو أننا نستطيع فقط أن نقنع غويندا بأن هذه هي الطريقة الوحيدة المعقولة التي جرت بها الأمور!

انتقلت عينا الآنسة ماربل منه إلى غويندا ثم إليه ثانية وقالت: إنها فرضية معقولة تماماً، ولكن -كما أشرت أنت نفسك يا سيد ريد- هناك دوماً احتمال لوجود السيد «س».

غويندا: «س»؟

الآنسة ماربل: العنصر المجهول، شخص ما لم يظهر بعد (إذا جاز لنا القول)، لكن حضوره يمكن استنتاجه من خلف الحقائق الواضحة.

قالت غويندا: نحن ذاهبان إلى المصح الذي توفي فيه والدي في نورفولك، وربما وجدنا شيئاً هناك.

* * *

الفصل العاشر
سيرة مرَضية

-١-

كان «سولت مارش هاوس» مبنياً في موقع بهيج يبعد ستة أميال عن الساحل، وكانت تربطه خدمة قطارات جيدة إلى لندن من بلدة ساوث بينهام التي تبعد عنه خمسة أميال.

تم إدخال غايلز وغويندا إلى غرفة جلوس جيدة التهوية، ثم دخلت الغرفةَ عجوزٌ رائعة الشكل ذات شعر أبيض وفي يدها كأسٌ من الحليب. حيتهما ثم جلست قرب الموقد، واستقرت عيناها بإمعان على غويندا ثم أمالت رأسها إلى الأمام باتجاهها وتحدثت بما يشبه الهمس: هل هو طفلك المسكين يا عزيزتي؟

دُهشت غويندا وقالت بارتياب: لا، لا، ليس هو.

هزت العجوز رأسها وقالت: كنت أتساءل! العاشرة والنصف، ذلك هو الوقت. دائماً في العاشرة والنصف، أمر عجيب تماماً!

ثم خفضت رأسها وانحنت إلى الأمام وقالت هامسة: خلف

الموقد، ولكن لا تقولا لأحد إنني أخبرتكما.

في تلك اللحظة دخلت الغرفةَ خادمةٌ بزيّ أبيض وطلبت من غايلز وغويندا أن يتبعاها، ثم قادتهما إلى المكتب الخاص للدكتور بينروز الذي نهض لتحيتهما. ولم تستطع غويندا أن تمنع نفسها من التفكير بأن الدكتور بينروز نفسه بدا مجنوناً إلى حد ما، بل أكثر جنوناً من السيدة العجوز الرائعة في غرفة الاستقبال! ولكن الظاهر أن هذه سمة عادية للأطباء النفسانيين.

قال الدكتور بينروز: لقد استلمت رسالتكما ورسالة الدكتور كينيدي، وقد كنت أراجع سيرة والدك المرَضية يا سيدة ريد. إنني أتذكر حالته تماماً بالطبع، ولكني أردت أن أنعش ذاكرتي بحيث أكون في وضع يمكنني من إخباركما بكل ما تريدان معرفته. لقد فهمت بأنكما لم تطّلعا على الحقائق إلاّ مؤخراً، هل هذا صحيح؟

شرحت له غويندا بأنها نشأت في نيوزيلندا على يد أقرباء أمها وأن كل ما كانت تعرفه عن والدها هو أنه توفي في مصحّ في إنكلترا.

الدكتور بينروز: هذا صحيح. إن حالة والدك يا سيدة ريد كانت ذات ميزات فريدة بعض الشيء.

غايلز: مثل ماذا؟

الدكتور بينروز: حسناً، كان الوسواس (أو الوهم) قوياً جداً. لقد كان الرائد هاليدي رغم وضوح حالته العصبية الشديدة واثقاً تمام الثقة ومنهجياً في تأكيده على أنه قد خنق زوجته الثانية في

نوبة من غضب الغيرة، وكان عدد كبير من الأعراض المعتادة لهذه الحالات غائباً في حالة والدك، واعذريني إن أخبرتك بصراحة -يا سيدة ريد- بأنه لولا تأكيدات الدكتور كينيدي بأن السيدة هاليدي كانت حية ترزق فعلياً لكنت مستعداً في ذلك الوقت لأخذ تأكيدات والدك على محمل الجد.

غايلز: هل كونت انطباعاً بأنه قتلها فعلياً؟

الدكتور بينروز: لقد قلت «في ذلك الوقت» لأنه حدث لاحقاً ما جعلني أبدّل رأيي بعد أن أصبحَتْ شخصية الرائد هاليدي وتركيبته العقلية مألوفة أكثر بالنسبة لي. إن والدك -يا سيدة ريد- لم يكن من النوع الذي يشعر بجنون الاضطهاد أو العظمة أو الارتياب بالآخرين. لم تكن له أوهام بالاضطهاد ولا اندفاعات عنف، بل كان شخصاً لطيفاً مهذباً مالكاً لنفسه. لم يكن من ذلك النوع الذي يسميه الناس مجنوناً كما لم يكن مؤذياً للآخرين، ولكن كان لديه هذا التأكيد العنيد فيما يخص موت السيدة هاليدي. ولكي نفسر جذور هذه الحالة فأنا مقتنع تماماً بأننا مضطرون للعودة إلى سنوات طويلة بعيدة، إلى تجربة طفولية ما، ولكنني أعترف بأن كل طرق التحليل فشلت في إعطائنا المؤشر الصحيح الذي يمكننا الاهتداء به. إن تحطيم المقاومة التي يبديها المريض للتحليل يكون عملية طويلة جداً في بعض الأحيان، وربما استغرقت عدة سنوات. وفي حالة والدك لم يكن الوقت كافياً.

أطرق لحظة، ثم رفع رأسه بحزم وقال: أحسب أنك تعلمين أن الرائد هاليدي قد انتحر.

صرخت غويندا: آه، لا!

- أنا آسف يا سيدة ريد... حسبت أنك تعلمين. ربما كان يحق لك أن تضعي بعض اللوم علينا بهذا الخصوص. أعترف بأن اليقظة المناسبة كان من شأنها أن تمنع انتحاره، ولكنني بصراحة لم أرَ علامة تدل على أن الرائد هاليدي من النوع الانتحاري؛ فهو لم يُظهر أي ميل للكآبة. لم يَشكُ من أي شرود أو قنوط، فقط كان يشكو من بعض الأرق، وقد سمح له زملائي بقدر من الحبوب المنومة. وفيما كان يتظاهر بتناولها كان يحتفظ بها حتى استطاع أن يجمع كمية كافية و...

ومدّ الطبيب ذراعيه في إشارة إلى عدم الحيلة.

سألت غويندا: هل كان تعيساً جداً؟

- لا، لا أعتقد. كان شعوره نابعاً من عقدة ذنب كما استنتجت، رغبة في استنزال عقوبة ما. كان قد أصرّ في البداية على استدعاء الشرطة، ورغم أنه اقتنع بالكفّ عن ذلك وأُكِّد له بأنه لم يرتكب عملياً أية جريمة على الإطلاق إلاّ أنه رفض بعناد أن يقتنع كلياً. وأمام إصرارنا الدائم اضطر أخيراً إلى الاعتراف بأنه لا يتذكر ارتكاب فعل القتل عملياً.

ثم قلّب الدكتور بينروز الأوراق أمامه وقال: إن روايته عن تلك الليلة المَعنية لم تختلف أبداً: أتى إلى البيت كما قال، وكان البيت معتماً والخدم خارجين. ذهب إلى غرفة الطعام كما يفعل عادة وسكب لنفسه عصيراً وشربه، ثم ذهب إلى غرفة الاستقبال من

خلال الباب الذي يصل بين الغرفتين. وهو لا يتذكر شيئاً بعد ذلك، لا شيء على الإطلاق حتى وجد نفسه واقفاً في غرفة نومه ينظر إلى زوجته الميتة، المخنوقة. وعرف أنه قد فعلها...

قاطعه غايلز قائلاً: اعذرني يا دكتور بينروز، ولكن لماذا عرف أنه فعلها؟

- لم يكن في ذهنه شك. كان قد وجد نفسه لبضعة أشهر قبل الحادثة عرضة لشكوك مثيرة هوجاء، فقد أخبرني -مثلاً- أنه كان مقتنعاً بأن زوجته كانت تضع له بعض المخدرات أو السموم في طعامه وشرابه. كان قد عاش في الهند طبعاً، وهناك تشكّل ممارسة الزوجات في دفع أزواجهن إلى الجنون بواسطة أعشاب مخدّرة سامّة موضوعاً يكثر طرحه في المحاكم المحلية. لقد عانى باستمرار تقريباً من الهلوسة ومن خلط في الزمان والمكان، وكان ينكر بعناد أنه يشكّ في إخلاص زوجته ولكنني أعتقد -مع ذلك- بأن هذا الشك كان هو القوة المحفزّة وراء حالته. ويبدو أن ما حصل فعلاً هو أنه دخل إلى غرفة الاستقبال وقرأ الملاحظة التي تركتها زوجته والتي تقول فيها إنها هجرته، ولعل طريقته في التملص من هذه الحقيقة ورفض الاعتراف بها كانت تفضيله أن «يقتلها»، ومن هنا جاءت الهلوسة.

سألت غويندا: هل تعني أنه كان مهتماً بها؟

- هذا واضح يا سيدة ريد.

- ولم... لم يدرك أبداً أن تلك كانت هلوسة؟

- لقد اضطر إلى الاعتراف بأنها لا بد وأن تكون كذلك،

ولكن قناعته العميقة الداخلية بقيت غير مهزوزة. كان هوسه أكبر وأقوى من أن يستجيب لدواعي العقل. لو أننا استطعنا كشف تلك التجربة الطفولية التي تقف خلف حالته...

قاطعته غويندا (التي كانت غير مهتمة بتجارب الطفولة) قائلة:
ولكنك تقول إنك متأكد تماماً من أنه لم يفعلها، أليس كذلك؟

- آه، إذا كان هذا ما يقلقك يا سيدة ريد فبوسعك أن تنفي هذا الشك من رأسك تماماً. إن كيلفين هاليدي -بغضّ النظر عن مقدار غيرته على زوجته- لم يكن قاتلاً بالتأكيد.

سعل الدكتور بينروز والتقط كتاباً أسود صغيراً قديماً وقال:
إن كنت تريدين هذا يا سيدة ريد فأنت الشخص المعني بأخذه. إنه يحتوي على ملاحظات كتبها والدك خلال الفترة التي قضاها هنا، وعندما أحلنا حاجياته إلى منفّذ وصيته (الذي كان مكتب محاماة في الواقع) استبقى الدكتور ماكغوير الذي كان مديراً للمصحة وقتها هذا الكتاب باعتباره جزءاً من سيرته المرَضية. إن كنت تودين أخذ هذه المفكرة...

مدت غويندا يدها بلهفة وقالت: شكراً لك، بل أودّ ذلك كثيراً.

-٢-

في قطار العودة إلى لندن أخرجت غويندا الكتاب الأسود الصغير الرثّ وبدأت تقرأ. فتحته عشوائياً، وقرأت مما كتب كيلفين هاليدي:

لا أدري إن كان هؤلاء الأطباء يعرفون عملهم، فهذه الأسئلة التي يسألونها تبدو سخيفة جداً: هل كنت أحب أمي؟ هل كنت أكره أبي؟ لا أصدق كلمة واحدة من ذلك... لا أستطيع أن أغالب شعوري بأن الأمر كان قضية يجب أن تحال إلى الشرطة، قضية محكمة جنايات وليست قضية مصح عقلي. ومع ذلك فإن بعض هؤلاء الناس هنا طبيعيون تماماً، عاقلون تماماً ككل الآخرين، إلاّ عندما تصادفك النزوة فجأة. حسناً، يبدو أنني أنا أيضاً صاحب نزوة.

لقد كتبت إلى جيمس أحثّه على الاتصال بهيلين، أرجو أن تأتي وتراني إن كانت حية. يقول إنه لا يعرف مكانها، ذلك لأنه يعرف أنها ميتة وأنني قتلتها. إنه شخص طيب ولكنني لا أنخدع، فهيلين ميتة!

متى بدأت أشك فيها؟ منذ وقت طويل... بعد قدومنا إلى ديلماوث على الفور. تغيّرَ سلوكها، كانت تخفي شيئاً ما... واعتدت على مراقبتها، نعم، وهي اعتادت على مراقبتي. هل كانت تضع لي مخدرات في طعامي؟ تلك الكوابيس الغريبة المفزعة لم تكن أحلاماً عادية بل كوابيس حية... أعرف أنها كانت المخدرات، إنها الوحيدة التي كان بوسعها أن تفعل ذلك. لماذا؟ هناك رجلٌ ما، رجل كانت تخشاه...

لأكن صادقاً، لقد ارتبت بأن لديها عشيقاً، ألم أشكّ في ذلك؟ كان هناك شخص ما، أعرف أنه كان هناك شخص ما لأنها هي قالت لي ذلك على متن الباخرة، شخص أحبته ولم تستطع أن تتزوجه... كان الأمر واحداً لنا كلينا، فأنا لم أستطع نسيان ميغان أيضاً...

لكم تبدو الصغيرة غويني شبيهة بميغان أحياناً. لعبت هيلين مع غويني بشكل لطيف جداً على متن الباخرة. هيلين، كم أنت جميلة يا هيلين!

هل هيلين حية؟ أم أني وضعت يديّ حول عنقها وضغطت حتى أخرجت منها الحياة؟ دخلت عبر باب غرفة الطعام ورأيت الرسالة مسنودةً على المكتب، ثم... سواد شامل، مجرد سواد. ولكن ما من شك في الأمر... لقد قتلتها! أحمد الله على أن غويني في نيوزيلندا. إنها عائلة طيبة هناك وسوف يحبونها إكراماً لميغان. ميغان، كم أتمنى لو كنت هنا!

إنها أفضل طريقة، دون فضائح... أفضل طريقة بالنسبة للطفلة. لا أستطيع الاستمرار سنة بعد سنة، عليّ أن أخرج من أقصر الطرق. لن تعرف غويني أبداً أي شيء عن هذا الأمر، لن تعرف أبداً أن أباها كان قاتلاً.

غامت عينا غويندا بالدموع. نظرت إلى غايلز الجالس مقابلها، ولكن عيني غايلز كانتا مثبتتين على الزاوية المقابلة، ولدى إحساسه بنظرات غويندا حرك رأسه قليلاً. كان المسافر الجالس معهما يقرأ صحيفة مسائية، وعلى الصفحة الخارجية للصحيفة برز عنوان مثير أمام ناظريهما تماماً: «من هم الرجال الذين كانوا في حياتها؟».

هزّت غويندا رأسها ببطء ونظرت إلى المذكرات: «**كان هناك شخص ما، أعرف أنه كان هناك شخص ما**».

* * *

الفصل الحادي عشر
الرجال في حياتها

عبرت الآنسة ماربل شارع سي باريد ومشت في شارع فور، ثم انعطفت صعوداً بموازاة شارع أركيد. كانت المتاجر هنا من تلك المحلات ذات الطراز القديم: محل للصوف وفن التطريز بالإبرة، ومحل حلويات، ومحل خياطة نسائية وأجواخ فكتوري الطراز، وغير ذلك من المحلات المشابهة.

نظرت الآنسة ماربل عبر واجهة محل التطريز بالإبرة. كانت هناك بائعتان شابتان مشغولتان مع بعض الزبائن، ولكن امرأة في أواسط عمرها كانت تقف غير مشغولة في مؤخرة المحل. فتحت الآنسة ماربل الباب ودخلت إلى المحل حيث جلست أمام طاولة عرض المبيعات، فيما سألتها البائعة اللطيفة ذات الشعر الأشيب: بماذا أخدمك يا سيدتي؟

أرادت الآنسة ماربل بعض الصوف الأزرق الفاتح لتنسج سترة طفل. ومضت عملية الأخذ والرد باسترخاء دون عجلة؛ نوقشت أساليب الحياكة، واستعرضت الآنسة ماربل العديد من كاتالوغات

حياكة الأطفال، وفي غضون ذلك ناقشت أحوال أبناء وبنات أخواتها الرائعين. ولم تُظهر لا هي ولا البائعة أي ضجر، فقد سبق للبائعة أن تعاملت مع زبائن كالآنسة ماربل لسنين عديدة، وكانت تفضل هؤلاء العجائز اللطيفات الثرثارات المُسهِبات في أحاديثهن على أولئك الأمهات الشابات العصبيات المستعجلات، بل وغير المهذبات أحياناً، اللاتي لا يعرفن ماذا يردن وتنحصر رغباتهن في المبهرَج والرخيص من البضائع.

قالت الآنسة ماربل: نعم، أظن أن هذا مناسب جداً في الحقيقة. لقد وجدت منتجات ستوركليغ جديرة بالثقة دائماً، فهي فعلاً لا تنكمش بالغسل. سآخذ كمية إضافية.

تحدثت البائعة -وهي تلفّ ما اشترته الآنسة ماربل- عن شدة برد الريح في ذلك اليوم، فأجابت الآنسة ماربل: نعم، بالفعل، لقد لاحظت ذلك وأنا قادمة إلى هنا. لقد تغيرت ديلماوث كثيراً، فأنا لم آتِ إليها منذ... منذ كم يا ترى؟ منذ تسعة عشر عاماً.

- حقاً سيدتي؟ ستجدين كثيراً من التغيّرات إذن. أظن أن مبنى سوبيرب لم يكن قد بني بعد ولا فندق ساوثفيو، أليس كذلك؟

- آه، نعم. كانت بلدة صغيرة تماماً حينذاك. كنت في ضيافة أصدقاء لي... في بيت اسمه «سينت كاثرين»، ربما كنت تعرفيه؟ في شارع ليهامبتون.

لكن البائعة لم يكن قد مضى على وجودها في ديلماوث إلاّ نحو عشر سنوات.

شكرتها الآنسة ماربل وأخذت لفافتها وذهبت إلى محل الأقمشة المجاور، وهناك أيضاً اختارت بائعة متقدمة في العمر. ومضت محادثتهما بشكل مشابه تقريباً، ولكن في تلك المرة استجابت البائعة بشكل حاسم وسريع: لا بد أنه بيت السيدة فينديسون؟

- نعم، نعم. مع أن الأصدقاء الذين عرفتهم استأجروا البيت مفروشاً. شخص اسمه الرائد هاليدي وزوجته وطفلة صغيرة.

- آه، نعم؛ استأجروه لمدة سنة تقريباً كما أظن.

- نعم. كان قد عاد إلى الوطن من الهند وكانت لديهم طباخة ممتازة، وقد أعطتني وصفة تعليمات رائعة لصنع فطيرة التفاح المشوية وأيضاً لكعكة الزنجبيل كما أذكر. كثيراً ما أتساءل ماذا حلّ بها.

- أتوقع أنك تعنين إيديث باجيت. إنها ما تزال في ديلماوث، وهي تخدم الآن في «ويندراش لودج».

- وكان هناك أناس آخرون من عائلة فين، أظنه كان محامياً.

- السيد فين العجوز مات منذ بضع سنين، أما السيد فين الابن، السيد وولتر فين، فهو يعيش مع والدته. إنه لم يتزوج وهو الآن كبير الشركاء.

- حقاً؟ لقد كانت لديّ فكرة بأن السيد وولتر فين قد ذهب إلى الهند لزراعة الشاي أو ما شابه ذلك.

- أظن أنه سافر فعلاً عندما كان شاباً، ولكنه عاد وانضمّ إلى

مكتب المحاماة بعد عام أو عامين. إنهم يقومون بأفضل الأعمال في هذه المنطقة وسمعتهم ممتازة تماماً. السيد وولتر فين رجل هادئ لطيف جداً والجميع يحبونه.

- طبعاً، طبعاً. وقد كان خاطباً للآنسة كينيدي، أليس كذلك؟ وبعد ذلك فسخت هي الخطبة وتزوجت الرائد هاليدي.

- هذا صحيح يا سيدتي. سافرت إلى الهند لتتزوج السيد فين، ولكن يبدو أنها غيرت رأيها وتزوجت السيد الآخر بدلاً منه.

خالطت صوتَ البائعة نبرةٌ طفيفة من الاستهجان، فانحنت الآنسة ماربل نحوها وخفضت صوتها وقالت: لقد شعرت دوماً بالحزن على الرائد هاليدي المسكين، كنت أعرف أمه وطفلته الصغيرة. لقد فهمت بأن زوجته الثانية هجرته وهربت مع شخص ما، أظنها كانت من النوع الطائش.

- كانت كذلك فعلاً. أما أخوها الطبيب فكان شخصاً لطيفاً جداً، لقد عالج ركبتي من الروماتيزم وجعلها كأحسن ما يكون.

- مع من هربت؟ لا أتذكر.

- هذا ما لا أعرفه يا سيدتي. البعض يقول إنه كان واحداً من زوّار الصيف، ولكني أعرف أن الرائد هاليدي قد انهار تماماً وغادر المنطقة، وأظن أن صحته تدهورت... تفضلي باقي نقودك يا سيدتي.

أخذت الآنسة ماربل باقي نقودها ولفافتها وقالت: شكراً جزيلاً

لك. إنني أتساءل: أما زالت إيديث باجيت تملك تلك الوصفة الرائعة لصنع كعكة الزنجبيل؟ لقد أضعت الوصفة... أو بالأحرى أضاعتها خادمتي المهملة، وأنا مغرمة كثيراً بكعك الزنجبيل الجيد.

- أظن ذلك يا سيدتي. وفي الحقيقة فإن أختها تعيش في البيت المجاور لنا هنا، فهي متزوجة بالسيد ماونتفورد الحلواني. إن إيديث عادة ما تأتي إلى أختها هنا في أيام عطلتها، وأنا واثقة من أن السيدة ماونتفورد ستوصل لها أية رسالة منك.

- هذه فكرة رائعة، شكراً جزيلاً لك لكل ما تحملتِه من عناء.

- بكل سرور يا سيدتي، أؤكد لك ذلك.

خرجت الآنسة ماربل إلى الشارع وهي تحدث نفسها: "إذن فلست كمن بدّدَ نقوده عبثاً". ثم ألقت نظرة على الساعة الزرقاء التي تضعها مشكولة بثوبها وقالت: بقيت خمس دقائق فقط قبل أن أقابل هذين الشابين في مقهى «كينغر كات». آمل أن لا يكونا قد وجدا الأمور مزعجة في المصح.

-٢-

جلس غايلز وغويندا معاً على طاولة ركنية في مقهى كينغر كات، وكان دفتر الملاحظات الصغير الأسود ملقى على الطاولة بينهما، ثم دخلت الآنسة ماربل من الشارع وانضمت إليهما.

سألها غايلز: ماذا تشربين يا آنسة ماربل؟ قهوة؟

الآنسة ماربل: نعم، شكراً.

طلب غايلز القهوة، ودفعت غويندا الكتاب الصغير الأسود إلى الآنسة ماربل قائلة: يجب أن تقرئي هذا أولاً ثم نستطيع أن نتحدث بعدها. إنه لأبي، وهو ما كتبه بنفسه عندما كان في المصح. ولكن قبل كل شيء هل لك يا غايلز أن تخبر الآنسة ماربل بما قاله الدكتور بينروز بالضبط؟

قام غايلز بذلك، ثم فتحت الآنسة ماربل الكتاب الصغير الأسود، وأحضرت النادلة ثلاثة أكواب من القهوة الخفيفة.

لم يتكلم غايلز ولا غويندا بل راقبا الآنسة ماربل وهي تقرأ، وأخيراً أغلقت الكتاب ووضعته على المائدة فيما كان التعبير على وجهها صعب القراءة، ورأت غويندا أن في ذلك التعبير غضباً! كانت شفتاها مطبقتين بإحكام وعيناها تشعان بشكل لامع جداً، بشكل لم يكن معتاداً في مثل عمرها.

قالت: نعم، حقاً... نعم، حقاً!

غويندا: لقد نصحتِنا ذات مرة بأن لا نمضي في بحثنا. هل تذكرين؟ وأستطيع أن أفهم سبب نصيحتك. الآن فقط يبدو كما لو أننا وصلنا إلى مكان آخر يمكن للمرء فيه أن يتوقف إن أراد، فهل تظنين أننا يجب أن نتوقف أم نمضي قدماً؟

هزت الآنسة ماربل رأسها ببطء. بدت قلقة حائرة ثم قالت: لا أدري، إنني فعلاً لا أدري. قد يكون من الأفضل أن تتوقفا؛ نعم،

ربما كان الأفضل كثيراً أن تتوقفا لأنه بعد مرور كل هذا الوقت ليس هناك شيء يمكنكما أن تفعلاه.

غايلز: هل تعنين أننا لن نستطيع اكتشاف شيء بعد مرور كل هذا الزمن؟

- آه، لا، لم أعنِ ذلك أبداً. إن تسعة عشر عاماً ليست فترة طويلة إلى هذا الحد، فهناك أناس يمكنهم أن يتذكروا الأشياء ويمكنهم أن يجيبوا على الأسئلة، أناس كثيرون جداً... الخدم مثلاً. لا بد أنه كان هناك خادمتان على الأقل في المنزل في ذلك الوقت، وأيضاً مربية، وربما بستاني. لا يحتاج الأمر غير الوقت وبعض العناء للعثور على أولئك الناس والتحدث معهم. وفي الحقيقة فإنني وجدت واحدة منهم بالفعل... الطباخة. لا، لم يكن ذلك ما قصدته، إنما هو مسألة ما هي الفائدة العملية التي يمكنكم تحقيقها؟ وأنا مضطرة للإجابة على هذا السؤال بالقول: لا فائدة. ومع ذلك...

توقفت، ثم تابعت حديثها: إن هناك، مع ذلك... أنا بطيئة قليلاً في التفكير للخروج بالحلول، ولكن لديّ شعوراً بأن هناك شيئاً ما، شيئاً ربما لا يكون ملموساً جداً ولكنه جدير بالمجازفة من أجله، بل ربما كان ينبغي المجازفة من أجله. ولكنني أجد صعوبة في تبين ماهية ذلك الشيء.

بدأ غايلز بالقول: يبدو لي...

ثم توقف فالتفتت إليه الآنسة ماربل بامتنان وقالت: الرجال

عادة قادرون على ترتيب الأمور بوضوح كبير، وأنا واثقة من أنك قد أمعنت التفكير وخرجت ببعض الاستنتاجات.

- لقد كنت أفكر في الأمر، ويبدو لي أن هناك نتيجتين اثنتين يمكن للمرء أن يتوصل إليهما. الأولى هي نفس ما اقترحتُه سابقاً: أن هيلين هاليدي لم تكن ميتة عندما رأتها غويندا متمددة في الصالة، ثم استعادت وعيها وهربت مع عشيقها كائناً مَن كان. إن هذا الافتراض يستجيب للحقائق كما نعرفها، فهو ينسجم مع اعتقاد كيلفين هاليدي الراسخ بأنه قتل زوجته وينسجم مع الحقيبة والملابس المفقودة ومع الرسالة التي وجدها الدكتور كينيدي، ولكنه أيضاً يترك نقاطاً معينة دون إجابة؛ فهو لا يفسر سبب اقتناع كيلفين بأنه خنق زوجته في غرفة النوم، كما أن هذا الافتراض لا يجيب على سؤال أراه أنا سؤالاً باقياً مربكاً: أين هي هيلين هاليدي الآن؟ لأنه يبدو لي أن مما ينافي العقل تماماً أن لا يسمع أحدٌ من هيلين أو يسمع بها مرة أخرى أبداً. وإذا سلمنا بأن الرسالتين اللتين كتبَتهما كانتا أصليتين حقيقيتين فما الذي حدث بعد ذلك؟ لماذا لم تكتب أبداً مرة أخرى؟ كانت على علاقة ودية بأخيها ومن الواضح أنه متعلق بها بعمق وأنه كان دائماً كذلك. ربما لم يكن راضياً عن سلوكها ولكن هذا لا يعني أنه توقع أن لا تراسله إطلاقاً مرة أخرى. وبرأيي فإن هذه النقطة كانت تؤرق كينيدي نفسه كما هو واضح. لنقل إنه قَبِلَ تماماً -في ذلك الوقت- القصة التي رواها لنا، أي هروب أخته وانهيار كيلفين. ولكنه لم يتوقع أن لا تتصل به أخته ثانية على الإطلاق. الذي أظنه هو أنه حين مرّت السنين دون أن يسمع من أخته خبراً ومع إصرار كيلفين هاليدي على وهمه وإقدامه أخيراً على الانتحار، لا بد أن شكاً رهيباً قد بدأ

يزحف على عقله حينئذ. فماذا لو افترض أن رواية كيلفين كانت صحيحة؟ بأنه قد قتل هيلين فعلاً؟ إنه لم يستلم كلمة منها، ومن المؤكد أنها لو ماتت في مكان ما في الخارج لكانت قد أتته أخبار عن ذلك. أظن أن هذا يفسر لهفته عندما رأى إعلاننا، فقد كان يأمل بأن يقود هذا إلى بعض المعلومات حول مكان وجودها وكيف تسير حياتها. أنا واثق بأنه من غير الطبيعي على الإطلاق لامرئ أن يختفي كلياً كما اختفت هيلين. إن هذا بحدّ ذاته يبعث على الشك كثيراً.

قالت الآنسة ماربل: إنني أتفق معك، ولكن ما هو البديل يا سيد ريد؟

أجابها غايلز ببطء: لقد كنت أفكر محاولاً العثور على البديل. إنه أمر خيالي جداً، بل حتى مرعب بعض الشيء لأنه ينطوي على... كيف أعبّر عن ذلك؟ ينطوي على نوع من الكراهية والضغينة.

غويندا: نعم، الكراهية هي التعبير الصحيح، بل إني لأعتقد أنه شيء لا يتسم بالعقل أيضاً.

وارتعشت فقالت الآنسة ماربل: هذا محتمَل بالفعل. يوجد كثير من... من الغرابة حولنا في هذا العالم أكثر مما قد يتصوره الناس. لقد رأيت أنا بعضاً من ذلك.

كان وجهها غارقاً في التفكير، وقال غايلز: لا يمكن أن يكون هناك أي تفسير طبيعي. إنني أختار الآن الافتراض الغريب القائل إن كيلفين هاليدي لم يقتل زوجته ولكنه اعتقدَ بصدق أنه قتلها، وهذا هو ما يعتقده -كما هو واضح- الدكتور بينروز الذي يبدو شخصاً

من النوع الصادق الشريف. لقد كان انطباعه الأول عن هاليدي أنه رجل قتل زوجته ويريد أن يسلّم نفسه إلى الشرطة، ثم اضطر إلى قبول رواية كينيدي عمّا حدث بأن الأمر لم يكن كذلك، ولذلك اضطر إلى التصديق بأن هاليدي كان ضحية عقدة أو ولع مرضي كائناً ما كانت هذه النظريات الغبية، ولكنه لم يحب حقاً ذلك الحل. كانت له خبرة جيدة بذلك النوع من المرضى، ولكن حالة هاليدي لم تكن لتنسجم مع هذا النوع. ومع ذلك ومع معرفته بهاليدي أكثر فأكثر أصبح واثقاً تماماً وبصدق أن هاليدي لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يمكن أن يخنق امرأة تحت أي دافع أو تحريض، ولذلك فقد قبل نظرية الوسواس المرَضي لكن مع بعض الشكوك. وهذا يعني حقاً أن نظرية واحدة فقط يمكن لها أن تناسب هذه القضية، تلك هي أن هاليدي قد دُفع دفعاً إلى الاعتقاد بأنه قتل زوجته، وأنه قد دُفع بواسطة شخص آخر. وبعبارة أخرى، لقد عدنا ثانية إلى «س» المجهول. وإذا ما عدنا إلى التدقيق مطولاً بالحقائق فإنني أقول بأن هذه الفرضية ممكنة على الأقل، لأن هاليدي -كما يقول هو نفسه- دخل إلى البيت في تلك الليلة وذهب إلى غرفة الطعام فشرب عصيراً كما يفعل عادة، وبعدها دخل إلى الغرفة الأخرى حيث رأى الرسالة على المكتب، ثم لم يعد يتذكر شيئاً بعد ذلك أو أنه فقد الوعي.

صمت غايلز لحظة، وهزت الآنسة ماربل رأسها بالموافقة على كلامه، ثم استمر: لنقل إن الأمر لم يكن فقدان وعي أو غياب ذاكرة، بل كان -ببساطة- مجرد مخدّر... نقاط قُطرت في العصير الذي شربه. الخطوة التالية واضحة تماماً، أليس كذلك؟ قام «س»

بخنق هيلين في الصالة، ولكنه أخذها بعد ذلك إلى الغرفة في الأعلى حيث رتّب وضعها بشكل فني لتبدو جريمة ارتُكبت بسبب الغيرة، وذلك هو المكان الذي وجد كيلفين نفسه فيه عندما استعاد وعيه. وظن المغفل المسكين الذي ربما كان يعاني من الغيرة عليها، ظن أنه هو الذي فعلها. ما الذي سيفعله بعد ذلك؟ يذهب مشياً على الأقدام لطلب زوج أخته من الجانب الآخر من البلدة، وهذا يعطي «س» الوقت ليقوم بخدعته الثانية، فيرزم حقيبة ملابس ويبعدها كما يبعد أيضاً الجثة.

ثم أنهى غايلز حديثه وهو يتميز غيظاً: مع أن ما فعله بالجثة مسألة تقتلني حيرة.

قالت الآنسة ماربل: أنا مدهوشة لقولك هذا يا سيد ريد لأنني أظن أن هذه المشكلة لن تنطوي على كثير من المصاعب، ولكن أكمل من فضلك.

- من هم الرجال الذين كانوا في حياتها؟ لقد رأيت هذه العبارة في إحدى الصحف ونحن عائدان في القطار، وقد جعلتني العبارة أتساءل وأعجب لأن هذا هو صلب القضية حقاً، أليس كذلك؟ إن كان هناك «س» كما نعتقد فإن كل ما نعرفه عنه هو أنه لا بد وأن كان مجنوناً بحبها، بالمعنى الحرفي للكلمة.

غويندا: ولذلك فقد كره والدي وأراد أن يسبّب له المعاناة.

غايلز: وهنا تواجهنا المشكلة؛ فنحن نعرف نوعية هيلين كفتاة عابثة...

رفعت الآنسة ماربل نظرها كما لو أنها تريد الكلام، ثم توقفت. ومضى غايلز قائلاً: ونعرف أنها كانت جميلة، ولكن ليس لدينا أي مؤشر إلى الرجال الآخرين الذين كانوا في حياتها بالإضافة إلى زوجها. ربما كان هناك منهم أي عدد.

هزت الآنسة ماربل رأسها اعتراضاً وقالت: يصعب الجزم بذلك، فقد كانت صغيرة تماماً كما تعلم. ولكنك لست دقيقاً تماماً يا سيد ريد، فنحن نعرف بالفعل شيئاً عما أسميته أنت «الرجال في حياتها». لقد كان هناك الرجل الذي سافرت لتتزوجه.

غايلز: آه، نعم، الشاب المحامي؟ ماذا كان اسمه؟

الآنسة ماربل: وولتر فين.

غايلز: نعم، ولكنكِ لا يمكن أن تحسبيه، فقد كان مسافراً في الملايا أو الهند أو غيرها.

الآنسة ماربل: هل كان هناك حقاً؟ إنه لم يستمرّ في زراعة الشاي. لقد عاد إلى هذه البلدة والتحق بمكتب المحاماة، وهو الآن الشريك الرئيسي في المكتب.

تساءلت غويندا: أيحتمل أن يكون قد تبعها إلى هنا؟

الآنسة ماربل: ربما، إننا لا نعرف.

نظر غايلز بفضول إلى العجوز ماربل ثم سألها: كيف اكتشفتِ كل ذلك؟

ابتسمت الآنسة ماربل باعتذار وقالت: كنت أثرثر قليلاً، في

المحلات وفي أثناء انتظار الحافلات... يُفترض في العجائز أن يكُنَّ فضوليات. نعم، بوسع المرء أن يلتقط الكثير الكثير من الأخبار المحلية.

قال غايلز بتفكير عميق: وولتر فين... رجل رفضته هيلين وخذلته، وهذا جرح ربما يكون قد تفاعل كثيراً. هل تزوج قط؟

الآنسة ماربل: لا، إنه يعيش مع أمه، وأنا ذاهبة لتناول الشاي عندهم في نهاية الأسبوع.

قالت غويندا فجأة: هناك شخص آخر نعرف وجوده أيضاً. لعلك تذكر أنه كان هناك شخص خُطبت هيلين له أو ارتبطت به عندما تركت المدرسة... شخص كريه كما وصفه الدكتور كينيدي. إنني أتساءل فقط: لماذا كان كريهاً غير مرغوب فيه؟

غايلز: ها قد أصبحا رجلين وكل منهما قد تكون لديه ضغينة. قد يكون الشاب الأول ذا حالة عقلية غير سليمة.

غويندا: بوسع الدكتور كينيدي أن يخبرنا بذلك. المشكلة هي أن سؤاله عن ذلك سيكون صعباً قليلاً، أقصد أنه كان من الطبيعي بالنسبة لي أن أذهب لأسأل عن أخبار زوجة لا أكاد أتذكرها، ربما كان ذلك قابلاً للتبرير، ولكن إن أردت أن أعرف شيئاً عن علاقاتها العاطفية المبكرة فإن الأمر سيتطلب بعض التفسير، فهذا يبدو اهتماماً مبالَغاً فيه بزوجة أب لا يكاد المرء يعرفها.

الآنسة ماربل: ربما كانت هناك طرق أخرى للوصول إلى

الحقائق. نعم، أظن أننا بالوقت والصبر نستطيع جمع المعلومات التي نريد.

غايلز: إن لدينا احتمالين على أية حال.

الآنسة ماربل: أظن أن بوسعنا أن نضع احتمالاً ثالثاً. سيكون ذلك طبعاً مجرد افتراض صرف، ولكن تطور الأحداث يبرره على ما أظن.

نظرت غويندا وغايلز إليها بشيء من الدهشة، فأضافت الآنسة ماربل وقد تورد وجهها قليلاً: إنه مجرد تخمين. لقد ذهبت هيلين كينيدي إلى الهند لتتزوج الشاب فين، وبديهي أنها لم تكن تحبه بجنون، ولكن لا بد أنها أحبته وكانت مستعدة لقضاء حياتها معه. ولكنها رغم ذلك فسخت خطوبتها بمجرد وصولها إلى هناك وأبرقت إلى أخيها لكي يرسل إليها مالاً لتعود إلى الوطن. والسؤال هو: لماذا؟

غايلز: غيرت رأيها على ما أظن.

غويندا: طبعاً غيرت رأيها فنحن نعرف ذلك. إن ما تعنيه الآنسة ماربل هو: لماذا؟

أجابها غايلز بضبابية: أظن أن البنات كثيراً ما يغيرن آراءهن.

الآنسة ماربل: في ظروف معينة.

كان في كلماتها كل التلميح والتعريض الحادّ الذي تستطيع العجائز إتقانه بأقل ما يمكن من الكلام الفعلي.

كان غايلز يقترح قائلاً: "شيء ما فَعَله..." عندما تدخلت غويندا بحدة في الحديث: طبعاً، رجل آخر!

نظرت هي والآنسة ماربل كل إلى الأخرى بثقةٍ مَن يُقبَل في جمعية لا تقبل الرجال في عضويتها، ثم أضافت غويندا بتأكيد: على متن الباخرة وهي في طريقها إلى هناك!

الآنسة ماربل: لقد قرَّبتِ.

غويندا: ولكن لا بد أن الأمر كان جدياً وليس مجرد إعجاب.

الآنسة ماربل: نعم، أظن أنه كان كذلك.

غايلز: إن كان الأمر كذلك فلماذا لم تتزوج ذلك الرجل؟

أجابته غويندا ببطء: "ربما لم يهتم بها حقاً". ثم هزّت رأسها واستدركت: لا، أظن أنها كانت ستتزوج وولتر فين في تلك الحالة. آه، طبعاً، كم كنت غبية! إنه رجل متزوج.

ثم نظرت إلى الآنسة ماربل وعلامات الفوز على وجهها، فقالت الآنسة ماربل: بالضبط، هكذا يمكنني أن أعيد بناء القصة. وقعا في غرام بعضهما البعض، ربما في غرام عميق يائس. ولكن إن كان رجلاً متزوجاً (وربما كان له أطفال) وكان من النوع الشريف فهذا يعني نهاية القصة كلها.

غويندا: إلاّ أنها لم تستطع أن تذهب وتتزوج وولتر فين بعد ذلك، ولهذا أبرقت إلى أخيها وعادت إلى البلاد. نعم، هذه القصة تلائم كل الحقائق. وعلى متن باخرة العودة قابلت والدي...

وصمتت تحاول التفكير بمخرج، ثم قالت: لم تقع في حب جارف بل كان الأمر إعجاباً، ثم أني كنت هناك. كانا تعيسين كلاهما وقد واسى كل منهما الآخر، وأخبرها أبي عن أمي وربما أخبرته هي عن الرجل الآخر... نعم، بالتأكيد.

قلّبت بسرعة صفحات مذكرات والدها ثم قرأت: "أعرف أنه كان هناك شخص ما لأنها هي قالت لي ذلك على متن الباخرة، شخص أحبته ولم تستطع أن تتزوجه". ثم مضت تقول: نعم؛ هذا هو الأمر. لقد شعرت هيلين وشعر أبي بأنهما متشابهان، وكنت أنا هناك بحاجة إلى من يرعاني. وفكرت بأنها تستطيع إسعاده، بل لعلها فكرت بأنها ستكون سعيدة تماماً هي نفسها في نهاية المطاف.

توقفت وهزت رأسها بانفعال باتجاه الآنسة ماربل وقالت باندفاع: هذا هو الأمر.

بدا غايلز غاضباً وهو يقول: حقاً يا غويندا أنك تبنين أشياء كثيرة بعضها فوق بعض ثم تزعمين أنها حصلت بالفعل.

غويندا: لقد حصلت فعلاً، لا بد أنها حصلت. وهذا يعطينا مرشحاً ثالثاً لشخصية السيد «س».

غايلز: هل تعنين...؟

غويندا: الرجل المتزوج. نحن لا نعرف كيف كان وضعه. ربما لم يكن لطيفاً، ربما كان مجنوناً قليلاً وربما تبعها إلى هنا.

غايلز: ولكنك جعلتِهِ مسافراً إلى الهند قبل قليل.

غويندا: حسناً، يمكن للناس أن يعودوا من الهند. لقد عاد وولتر فين وكان ذلك بعد نحو سنة. أنا لا أقول إن هذا الرجل قد عاد فعلاً ولكنني أقول إن هذا يشكل أحد الاحتمالات. إنك تركز كثيراً على مسألة الرجال الذين كانوا في حياتها. حسناً، ها نحن لدينا ثلاثة منهم: وولتر فين، وشاب آخر لا نعرف اسمه، ورجل متزوج...

أكمل غايلز عبارتها قائلاً: لا نعرف حتى حقيقة وجوده.

غويندا: سنكشف ذلك. أليس كذلك يا آنسة ماربل؟

الآنسة ماربل: بالوقت والصبر يمكننا أن نكشف الكثير. وفيما يتعلق بحصتي من هذا السعي فقد عرفت نتيجة لحوار صغير موفَّق في محل الأقمشة اليوم أن إيديث باجيت التي كانت طبّاخة في هذا البيت في الوقت الذي يعنينا ما تزال في ديلماوث. شقيقتها متزوجة بائع حلويات هنا، وأظن من الطبيعي جداً أن تكوني راغبة في رؤيتها يا غويندا. قد تكون قادرة على إخبارنا بالكثير.

غويندا: هذا رائع! وقد فكرت في أمر آخر أيضاً، سأضع وصية جديدة. لا تحزن يا غايلز فسوف أترك لك نقودي أيضاً، ولكني سأطلب من وولتر فين أن يضع لي الوصية.

غايلز: غويندا، كوني حذرة.

غويندا: إن وضع وصية هو أكثر الأمور طبيعية، والأسلوب الذي فكرت فيه مناسب تماماً، فأنا أريد رؤيته على أية حال. أريد أن أرى شكله وسلوكه، وإن فكرت أنه من الممكن...

غايلز: ما يدهشني هو أنه ما من أحد آخر استجاب لإعلاننا ذاك... إيديث باجيت هذه مثلاً؟

هزت الآنسة ماربل رأسها معارِضةً وقالت: إن الناس في هذه المقاطعات الريفية يأخذون وقتاً طويلاً في التفكير قبل اتخاذ قراراتهم، فهم شكّاكون ويحبون أن يفكروا في الأمور من كل جوانبها.

* * *

الفصل الثاني عشر
ليلي كيمبل

فرشت ليلي كيمبل صفحتين من جريدة قديمة على طاولة المطبخ استعداداً لتنشيف رقائق البطاطا التي كانت تُصدر حسيساً في المقلاة، واتكأت -وهي تدمدم بإحدى الأغاني الشعبية السائدة- إلى الأمام دون هدف تنظر إلى العناوين الصحفية الممتدة أمامها.

وفجأة توقفت عن الدمدمة ونادت: جيم، جيم، تعال إلي.

كان جيم كيمبل، وهو كهل قليل الكلام، يغسل يديه على المغسلة في غرفة الأطباق المجاورة، وقد استعمل جواباً على زوجته كلمتَه المفضلة: ها؟

- إنه خبر في الجريدة. «على كل من يعرف أي شيء عن هيلين سبينلوث هاليدي، الآنسة كينيدي قبل الزواج، أن يتصل بالسيد ريد في شارع ساوثامبتون». يبدو لي أنهم ربما يقصدون السيدة هاليدي التي كنت أخدم عندها في منزل سينت كاثرين. لقد استأجراه هي

وزوجها من السيدة فينديسون. كان اسمها هيلين، نعم، وكانت أختاً للدكتور كينيدي؛ ذلك الذي قلتُ دائماً إنه ينبغي لي أن أذهب إليه لمعالجة جيوبي الأنفية.

ساد صمت قصير فيما قلبت السيدة كيمبل الشرائح التي تُقلى بلمسة خبيرة، ثم تابعت قائلة: إنها صحيفة قديمة بالطبع.

دققت في تاريخها وقالت: منذ أسبوع أو أكثر تقريباً. عجباً! لماذا هذا كله؟ هل تعتقد أن في الأمر مالاً يا جيم؟

أجابها السيد كيمبل بحيادية: ها.

- ربما كانت وصية مثلاً. كان ذلك منذ زمن بعيد جداً.

- ها.

- ثمانية عشر عاماً أو أكثر. لن أستغرب... أتساءل: ما الذي يدفعهم إلى كل هذا الآن؟ هل تعتقد أن في القضية شرطة يا جيم؟

- لماذا؟

- حسناً، إنك تعرف ما كنت أعتقده دوماً. لقد أخبرتك وقتها، نعم، عندما كنا نتنزه. لقد ادّعوا أنها هربت مع صديق لها، هذا ما يقوله الأزواج عندما «يُصرّفون» زوجاتهم. لقد كانت جريمة قتل، هذا ما قلته لك وما قلته لإيدي. ولكن إيدي لم تكن لتصدق ذلك على الإطلاق، فلم يكن لديها أي خيال. تلك الملابس التي يفترض أنها أخذتها معها لم تكن الملابس الصحيحة... إن كنت تفهم ما أعنيه. لقد فُقدت حقيبة ملابس كبيرة وأخرى صغيرة وفُقد

ما يكفي من الملابس لمَلئهما، ولكنها لم تكن الملابس المناسبة، ولذلك قلت لإيدي: "صدقيني، لقد قتل السيد زوجته ووضعها في القبو"! ولكنه لم يكن القبو حقاً لأن الأخرى، الممرضة السويسرية ليوني، رأت شيئاً ما من النافذة. لقد ذهبت معي إلى السينما، نعم، مع أنه لم يكن يفترض فيها أن تغادر غرفة الطفلة، ولكني قلت لها وقتها: "إن الطفلة لا تصحو أبداً في الليل". كانت طفلة رائعة دوماً في فراشها في الليل والسيدة لا تصعد أبداً إلى غرفة الطفلة ليلاً. قلت لها: "لن يعرف أحدٌ إن تسللتِ معي"، وهذا ما فعلَته. وعندما عدنا كان هناك فوضى كبيرة؛ كان الطبيب هناك والسيد مريضاً ونائماً والطبيب يعتني به، ووقتها سألني عن الملابس، وبدا الأمر عادياً في ذلك الحين. اعتقدت أنها هربت بالفعل مع ذلك الرجل الذي كانت متعلقة به، وكان هو أيضاً متزوجاً، وقالت إيدي إنها تأمل وتبتهل كيلا نتورط في أية قضية طلاق. ماذا كان اسمه وقتها؟ إنني لا أستطيع أن أتذكر أكان يبدأ بحرف الميم أم كان حرف الراء؟ يا إلهي، لقد ذهبت ذاكرة المرء!

تجاهل السيد كيمبل كل القضايا ذات الأهمية الأقل ليسأل إن كان عشاؤه جاهزاً. أجابت زوجته: سأقوم فقط بتجفيف رقائق البطاطا... انتظر، سأحضر صحيفة أخرى، فمن الأفضل أن نحتفظ بهذه الصحيفة. ليس من المحتمل أن تكون الشرطة... ليس بعد كل هذه السنين. ربما كانوا محامين وكان في القضية مال. إن الإعلان لا ينبئ بشيء لفائدة المرء، ولكن ربما كان الأمر كذلك. أتمنى لو أعرف أحداً أسأله عن ذلك. يطلب الإعلان الكتابة إلى أحد العناوين

في لندن، ولكني لست واثقة من رغبتي في الإقدام على أمر كهذا... لن أكتب إلى ناس في لندن. ما هو رأيك يا جيم؟

- ها.

قالها السيد كيمبل وهو يعاين السمك ورقائق البطاطا. وأُجِّل النقاش.

* * *

الفصل الثالث عشر
وولتر فين

نظرت غويندا إلى السيد وولتر فين من وراء المكتب الخشبي العريض.

رأت رجلاً متعباً بعض الشيء قارب الخمسين من عمره ذا وجه لطيف ليس فيه ما يميزه، وفكرت غويندا بأنه من ذلك النوع من الرجال الذين يصعب عليك تذكرهم إن كنت قد التقيت بهم عرَضاً... رجل تنقصه الشخصية بالتعبير الحديث. كان صوته عندما تكلم بطيئاً وحَذِراً ولطيفاً، وقررت غويندا أنه ربما كان محامياً حاذقاً تماماً.

استرقت نظرة على المكتب حولها، مكتب الشريك الرئيسي في الشركة. كان المكتب قديم الطراز لكنه بدا مناسباً لوولتر فين كما رأت، فقد كان الأثاث بالياً لكنه مصنوع من مواد جيدة قوية من العصر الفكتوري، وقد ارتفعت بمحاذاة الجدران صناديق مكوّمة لحفظ الوثائق والمستندات، صناديق كُتبت عليها أسماء ريفية محترمة.

كانت النوافذ الضخمة تطلّ على ساحة خلفية مربعة تحيط

بها جدران مصمتة لبناء ملحق يعود إلى القرن السابع عشر. لم يكن ثمة شيء أنيق أو حديث في أي مكان، ولكن لم يكن ثمة شيء قذر أيضاً. كان المكتب فوضوياً ولكن بشكل مصطنع، بصناديقه المكدَّسة وطاولة المكتب ذات الأوراق المبعثرة وصفوف كتب القانون التي تتكئ مائلة على أحد الرفوف، ولكنه كان مكتب رجل يعرف تماماً أين يضع يده لتناول أي شيء يريده.

توقفت خربشة قلم وولتر فين وانفرجت شفتاه عن ابتسامته البطيئة اللطيفة وهو يقول: أظن أن كل ذلك واضح تماماً يا سيدة ريد، إنها وصية بسيطة جداً. متى تودين الحضور لتوقيعها؟

قالت غويندا إنها مستعدة للحضور في الوقت الذي يريده فلم تكن هناك عجلة في الأمر، ثم أضافت: إن لنا بيتاً هنا كما تعلم، «هيلسايد».

قال وولتر فين وهو يلقي نظرة على ملاحظاته: نعم، لقد أعطيتني العنوان.

لم يطرأ أي تغيير في المستوى والنبرة الثابتة لصوته. قالت غويندا: إنه بيت رائع جداً ونحن نحبه.

- وهل يطل على البحر؟

- لا، وأظن أن اسمه هذا جديد، فقد كان اسمه «سينت كاثرين» من قبل.

خلع السيد فين نظارته الأنفية ونظفها بمنديل حريري وهو ينظر إلى مكتبه وقال: آه! نعم، في شارع ليهامبتون؟

رفع نظره، وفكرت غويندا في الاختلاف الكبير الذي يطرأ على الناس الذين يضعون نظارة عندما يخلعونها. بدت عيناه ذواتا اللون الرمادي الشاحب ضعيفتين وينقصهما التركيز بشكل غريب، وفكرت بأن ذلك يجعل وجهه يبدو وكأنه غائبٌ تماماً عن الوجود.

أعاد السيد فين نظارته وقال بصوت المحامي الدقيق: أظنك قلت إنك كتبت وصية بمناسبة زواجك؟

غويندا: نعم، ولكنني تركت أشياء فيها لعدة أقرباء لي في نيوزيلندا ممن توفوا منذ ذلك الحين، ولذلك فكرت بأن من الأبسط بالفعل أن أكتب وصية جديدة كاملة، ولا سيما أننا ننوي العيش في هذا البلد بشكل دائم.

هز وولتر فين رأسه موافقاً وقال: نعم، لقد اتخذتِ الموقف الصحيح. حسناً، أعتقد أن الأمور واضحة تماماً يا سيدة ريد. ربما استطعت المجيء بعد غد؟ هل تناسبك الساعة الحادية عشرة؟

- نعم، سيكون هذا مناسباً تماماً.

نهضت غويندا على قدميها ونهض وولتر فين أيضاً. قالت وهي تمثل تماماً نفس الاندفاعة البسيطة التي تمرّنت عليها مسبقاً: لقد... لقد سألت عنك بشكل خاص لأنني أظن... أعني أنني أعتقد أنك كنت تعرف أمي في يوم من الأيام.

أضفى على أسلوبه قليلاً من الحرارة الاجتماعية الإضافية وتساءل: حقاً؟ وما اسمها؟

- هاليدي، ميغان هاليدي. أعتقد... لقد أخبروني أنك كنت خطيبها ذات يوم.

دقت ساعة على الجدار: واحد اثنان، واحد اثنان، واحد اثنان... وشعرت غويندا فجأة أن قلبها يضرب بسرعة أكبر قليلاً. يا لوجه ولتر فين الهادئ! وفجأة أحسّت كأنها في بيت مظلم أُسدلت ستائره كلها! ما هذه الأفكار الغبية التي تحملينها يا غويندا؟

قال ولتر فين دون أن يتغير صوته أو يضطرب: لا، لم أعرف أمك أبداً يا سيدة ريد، ولكنني خطبت مرة ولفترة قصيرة هيلين كينيدي التي تزوجت الرائد هاليدي فيما بعد كزوجة ثانية له.

- آه، يا لغبائي! لقد فهمت الأمر كله خطأ. كانت إذن هيلين زوجة والدي. بالطبع حدث هذا كله منذ وقت طويل لا أذكره، لقد كنت مجرد طفلة عندما انهار الزواج الثاني لوالدي ولكنني سمعت شخصاً يقول إنك كنت خاطباً للسيدة هاليدي في الهند، وفكرت طبعاً بأن المقصود هو والدتي بسبب ذكر الهند، هذا ما أعنيه... لأن والدي التقاها في الهند.

- لقد سافرت هيلين كينيدي إلى الهند للزواج ثم غيرت رأيها، وفي الباخرة في طريق عودتها قابلت والدك.

كان كلامه تقريراً واقعياً للحقائق يخلو من العاطفة، ولكن غويندا ما زال لديها انطباع البيت ذي الستائر المسدلة.

- أنا آسفة جداً، هل ارتكبت حماقة بإثارتي للموضوع؟

ابتسم ولتر فين ابتسامته البطيئة اللطيفة، ورُفعت الستائر!

- لقد مضى على ذلك تسعة عشر عاماً أو عشرون يا سيدة ريد، إن مشكلات المرء وحماقاته الشبابية لا تعني كثيراً بعد مرور كل هذا الوقت. إذن فأنت طفلة هاليدي! هل تعلمين بأن أباك وهيلين قد عاشا هنا في ديلماوث لبعض الوقت؟

- آه، نعم، ولذلك جئنا إلى هنا في الواقع. أنا لا أتذكر المكان تماماً بالطبع، ولكن عندما أردنا أن نقرر المكان الذي سنعيش فيه في إنكلترا أتيت إلى ديلماوث قبل أي مكان آخر لأرى كيف هي ديلماوث فعلاً، وقد رأيت أنها مكان جذاب بحيث قررت أن نستقر هنا وليس في أي مكان آخر. وانظر إلى هذا الحظ! فقد حصلنا على نفس البيت الذي عاشت فيه عائلتي قبل وقت طويل.

ابتسم ثانية ابتسامته البطيئة اللطيفة وأضاف: أتذكّر البيت. ربما لا تذكرينني يا سيدة ريد، ولكن أتخيل بأنني اعتدت على أن أحملك على كتفي وأدور بك ذات يوم.

ضحكت غويندا وقالت: حقاً؟ إذن فأنت صديق قديم تماماً، أليس كذلك؟ لا أستطيع التظاهر بأنني أتذكرك، فأنا كنت لا أتجاوز العامين والنصف أو الثلاثة أعوام وقتها كما أظن. هل كنت عائداً في إجازة من الهند؟

- لا، كنت قد تركت الهند نهائياً في ذلك الوقت، فقد سافرت لأجرب زراعة الشاي لكن الحياة لم تناسبني. يبدو أنني خُلقت لأسير على خطى والدي وأكون محامياً ريفياً تقليدياً يؤثر السلامة على المغامرة! كنت قد اجتزت كل امتحانات الحقوق في وقت سابق، وهكذا عدت ببساطة ودخلت مباشرة في مكتب المحاماة.

صمتَ قليلاً ثم قال: وما زلت هنا منذ ذلك الوقت.

ثم ساد الصمت مرة أخرى، وكرر هو بصوت أكثر انخفاضاً: نعم، منذ ذلك الوقت...

وفكرت غويندا بأن ثمانية عشر عاماً ليست حقاً ذلك الوقت الطويل الذي يتخيلون. بعدها ودعها مع بعض التغيير في أسلوبه وقال: ما دمنا أصدقاء قدامى فعليك أن تُحضري زوجك لتناول الشاي مع والدتي في يوم ما. ويبقى موعدنا في الحادية عشرة من يوم الخميس على حاله.

خرجت غويندا من المكتب ونزلت الدرج. كان هناك نسيج عنكبوت في زاوية الدرج، وفي وسط شبكة العنكبوت كان هناك عنكبوت شاحب اللون غريب يصعب وصفه. فكرت غويندا بأنه لا يبدو كعنكبوت حقيقي، ليس من تلك العناكب السمينة النشيطة التي تلتقط الذباب وتأكلها... كان أشبه بشبح عنكبوت، يشبه -في الحقيقة- وولتر فين إلى حد ما!

-٢-

قابل غايلز زوجته على الشاطئ فسألها: حسناً، ما وراءك؟

- لقد كان هنا في ديلماوث في ذلك الوقت، أعني أنه كان قد عاد من الهند لأنه كان يحملني على كتفيه. ولكنه لا يمكن أن يكون قتل أحداً... هذا غير ممكن، فهو هادئ جداً ولطيف، لطيف جداً في الواقع. بل إنه من ذلك النوع الذي لا يثير انتباهك أبداً، من أولئك

الرجال الذين يأتون إلى الحفلات فلا تنتبه لمغادرتهم عندما يغادرون. أظن أنه مستقيم ولديه الكثير من الفضائل وهو متعلق بأمه، ولكنه من وجهة نظر امرأة جامد جداً، وأستطيع الآن أن أفهم لماذا لم يستطع كسب قلب هيلين. إنه من النوع الذي يصلح زوجاً لطيفاً آمناً، غير أن قليلاً من النساء يرغبن حقاً في الزواج بمثل هؤلاء الرجال.

- يا له من مسكين! ربما كان مجنوناً بحبها تماماً.

- آه، لا أدري. لا أظن ذلك حقاً، وعلى أي حال فأنا واثقة من أنه لن يكون مجرمنا الحاقد الذي نبحث عنه. إنه ليس من النوع الذي أراه قاتلاً أبداً.

- ولكنك لا تعرفين الكثير عن القتلة، أليس كذلك يا حبيبتي؟

- ماذا تعني؟

- حسناً، كنت أفكر في عدد من المجرمين المشهورين. لا أظن أن القتلة ينتمون إلى نمط خاص أبداً.

- لكن لا أستطيع أن أصدق أن وولتر فين...

توقفت فقال غايلز: ما به؟

- لا شيء.

ولكنها كانت تتذكر وولتر فين وهو يلمع نظارته، والنظرة الغريبة العمياء لعينيه عندما أشارت إلى منزل «سينت كاثرين» لأول مرة. قالت بارتياب وتردد: ربما كان مجنوناً بها!

* * *

الفصل الرابع عشر

إيديث باجيت

كانت الردهة الخلفية في بيت السيدة ماونتفورد غرفة مريحة، تحتوي على مائدة مستديرة مغطاة بملاءة مع بعض الكراسي قديمة الطراز وأريكة تبدو قاسية قوية لكنها مُنجَّدة بشكل رائع وموضوعة قرب الجدار، وعلى حافة الموقد عُرضت تماثيل كلاب من الخزف الصيني وتحف أخرى وصورة ملونة للأميرة إليزابيث. وعلى الجدار الآخر عُلّقت صورة الملك بزيه البحري وصورة للسيد ماونتفورد ضمن مجموعة من الخبازين والحلوانيين الآخرين، كما كان هناك صورة مصنوعة من الأصداف والألوان المائية لبحر بالغ الاخضرار في منطقة كابري، وأشياء أخرى كثيرة جداً ليس لأي منها قيمة عليا من الناحية الجمالية أو من ناحية دلالتها على أي مستوى حياة رفيع، ولكن النتيجة كانت غرفة سعيدة بهيجة تجلس فيها العائلة وتتمتع بها حيثما توفر وقت للجلوس والمتعة.

وكانت السيدة ماونتفورد (التي كانت تنتمي قبل زواجها إلى عائلة باجيت) امرأة قصيرة مربوعة القامة ذات شعر أسود تتخلله

بعض الخطوط الرمادية. أما أختها إيديث باجيت فقد كانت طويلة نحيفة سمراء، ولا يكاد المرء يرى في شعرها أي شيب رغم أنها كانت تقارب الخمسين من عمرها.

قالت إيديث: تخيلي الآن يا آنسة غويني... عليك أن تعذريني يا سيدتي إن تكلمت بهذه الصيغة ولكن المرء لا يستطيع إلاّ أن يعود بذاكرته إلى تلك الأيام. كُنتِ دوماً تأتين إليّ في المطبخ بأجمل ما تكونين وتقولين: وينيز... نعم، وينيز. وكنت تقصدين بذلك الزبيب، مع أنني لا أعرف أبداً لماذا كنت تسمين الزبيب بهذا الاسم؟ كنت تعنين به الزبيب، وقد اعتدت أن أعطيك الزبيب، أي ذلك الكشمش الذي لا نوى له.

تفرست غويندا بإمعان في ذلك الجسم المشدود والخدين الورديين والعينين السوداوين محاوِلةً أن تتذكر، ولكن لم يسعف ذاكرتها شيء. كانت الذاكرة أمراً مزعجاً، وقالت: أتمنى لو أستطيع التذكر!

علّقت إيديث: ليس من المحتمل أن تتمكني من ذلك، إذ أنك لم تكوني سوى مخلوقة صغيرة جداً. في هذه الأيام لا يبدو أن أحداً يرغب في الخدمة في بيت يوجد فيه أطفال. أنا لا أفهم هذا شخصياً فالأطفال يعطون البيت حياة، هذا ما أحسّه. مع أن وجبات الأطفال تسبب بعض الإزعاج عادة، ولكن ذلك هو خطأ المربية لا خطأ الطفل، فالمربيات صعبات المراس بسبب واجباتهن: الأطباق وخدمة الأطفال والواجبات هنا وهناك... هل تتذكرين ليوني يا آنسة غويني؟ عفواً، أقصد يا سيدة ريد؟

- ليوني؟ هل كانت مربيتي؟

- نعم، كانت فتاة سويسرية ولم تكن تتحدث الإنكليزية بشكل جيد، وكانت حساسة المشاعر كثيراً. كانت تبكي كثيراً إذا قالت لها ليلي شيئاً يزعجها. كانت ليلي هي خادمة صالة الاستقبال، ليلي آبوت، فتاة صغيرة سليطة اللسان وطائشة قليلاً. كانت ليلي تلعب معك كثيراً من الألعاب يا آنسة غويني، كانت تلاعبك لعبة الاختباء على الدرج.

بدرت من غويندا رجفة سريعة لا يمكن السيطرة عليها. الدرج... ثم قالت فجأة: أتذكّر ليلي فعلاً، هي التي ألبست القط ربطة عنق.

- يا إلهي، ما ظننت أنك تتذكرين ذلك! كان ذلك في يوم عيد ميلادك، وكانت ليلي متحمسة لذلك، لكي تضع ربطة عنق في رقبة القط توماس. أخذت ربطة من العلبة وألبسته إياها، وجن جنون توماس فركض إلى الحديقة وظل يحتك بالأغصان حتى تخلص منها. إن القطط لا تحب أن تتعرض لتلك المقالب.

- كان قطاً أسود وأبيض.

- صحيح. يا لتومي العجوز المسكين! كان يصطاد الفئران ببراعة، كان صياداً حقيقياً ماهراً.

صمتت إيديث لحظة ثم سعلت بتأنق وقالت: اعذريني على إسهابي في الحديث بهذا الشكل يا سيدتي، ولكن الحديث يجرّ شؤون الأيام الخوالي وشجونها. هل أردت أن تسأليني شيئاً؟

- أحب أن أسمعك تتحدثين عن الأيام الخوالي تلك. هذا كل ما أردت سماعه، فقد ربّاني بعض الأقارب في نيوزيلندا ولم يكن بمقدورهم طبعاً أن يخبروني بأي شيء عن... عن والدي وزوجة والدي. لقد كانت... كانت لطيفة، أليس كذلك؟

- كانت تحبك جداً. نعم، لقد كان من دأبها أن تأخذك إلى شاطئ البحر وتلعب معك في الحديقة. كانت هي نفسها صغيرة جداً، لم تكن سوى طفلة في الواقع، وكثيراً ما كنت أفكر بأنها تستمتع بذلك اللعب بقدر ما تستمتعين به أنت! لقد كانت طفلة وحيدة بشكل ما قبل ذلك، فأخوها الدكتور كينيدي كان أكبر منها بسنوات وسنوات وكان دوماً معتكفاً مع كتبه، وعندما لم تكن تذهب إلى المدرسة كانت تضطر إلى اللعب بمفردها.

سألت الآنسة ماربل التي كانت تجلس إلى الخلف قرب الجدار: لقد عشتِ كل حياتك في ديلماوث، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدتي. كان والدي يمتلك مزرعة خلف التلّة، ولم يكن له أبناء ولم تستطع والدتي الاستمرار في المزرعة بعد وفاته، ولذلك باعتها واشترت محل التطريز الصغير في نهاية شارع هاي. نعم، لقد عشت هنا طوال حياتي.

الآنسة ماربل: وأحسب أنك تعرفين كل شيء عن كل أهل ديلماوث؟

إيديث: لقد كانت البلدة مكاناً صغيراً في ذلك الوقت، مع أنه كان فيها دوماً كثير من المصطافين كما أذكر. ولكنهم كانوا أناساً

هادئين لطفاء ممن يأتون إلى هنا في كل عام وليس كهؤلاء السوّاح الجوالين الذين يأتوننا هذه الأيام. كانوا من عائلات معروفة ممن يعودون إلى نفس الغرف عاماً بعد عام.

سأل غايلز: أظن أنك كنت تعرفين هيلين كينيدي قبل أن تتزوج وتصبح السيدة هاليدي، أليس كذلك؟

إيديث: آه، كنت أعرف عنها إذا صح التعبير. ربما كنت قد رأيتها ولكنني لم أعرفها جيداً إلاّ بعد أن التحقتُ بعملي هناك.

الآنسة ماربل: وهل أحببتِها؟

دارت إيديث باجيت نحوها وقالت: نعم يا سيدتي، أحببتها. وبغضّ النظر عما يقوله الآخرون فقد كانت لطيفة جداً معي على الدوام. لم أكن لأصدق بأنها فعلت ما فعلته، فقد أذهلني ذلك تماماً. مع أنه كان هناك بعض الكلام.

توقفت بشكل مفاجئ بعض الشيء ونظرت إلى غويندا نظرة اعتذار سريعة، فتحدثت غويندا باندفاع قائلة: أريد أن أعرف، فأرجو أن لا تظني بأنني سأصاب بالحرج من أي شيء تقولينه... وهي لم تكن أمي على أية حال.

إيديث: هذا صحيح تماماً يا سيدتي.

غويندا: ونحن -كما ترين- حريصون جداً على... على العثور عليها، فقد سافرت من هنا ويبدو أن آثارها اختفت تماماً. نحن لا نعرف أين تعيش الآن أو حتى إن كانت على قيد الحياة، كما أن هناك أسباباً...

وترددت في المضي فقال غايلز بسرعة: هناك أسباب قانونية، لا ندري إن كان علينا أن نعتبرها ميتة أم لا.

إيديث: آه، إنني أفهمك تماماً يا سيدي؛ لقد فُقِدَ زوج ابنة عمي بعد معركة إيبريه وحدثت مشكلات بشأن افتراض وفاته، كان ذلك أمراً مربكاً جداً لها. من الطبيعي -يا سيدي- أن أخبركم بأي شيء يمكن أن يعينكم بأي شكل من الأشكال فأنا أحس بأنكم لستم غرباء. الآنسة غويندا وكلمة «وينيز» التي اعتادت قولها... لقد كنت تقولينها بشكل محبب جداً يا سيدتي.

غايلز: هذا لطف كبير منك. إذن فسأبدأ إن كنت تسمحين: لقد فهمت أن السيدة هاليدي غادرت المنزل بشكل مفاجئ تماماً، أليس كذلك؟

إيديث: بلى يا سيدي، كانت صدمة كبرى لنا جميعاً، وخاصة للرائد هاليدي الرجل المسكين. لقد انهار تماماً!

- سأسألك بصراحة: هل لديك أية فكرة عن هوية الرجل الذي هربت معه؟

هزت إيديث رأسها بالنفي وقالت: ذلك ما سألني الدكتور كينيدي عنه ولم أتمكن من إجابته، كما لم تستطع ليلي أن تجيبه، وبالطبع فإن ليوني -كونها أجنبية- لم تكن تعرف شيئاً عن الموضوع.

- إنك لم تعرفي، لكن هل بوسعك أن تخمّني؟ فالآن بعد

مضي كل هذا الوقت لم تعد القضية تهم حتى لو كان تخمينك خطأ. لا بد أنه كانت لديك بعض الشكوك.

- حسناً، لقد كانت لنا شكوكنا... ولكن لا تَنْسَ أنها كانت مجرد شكوك. وفيما يتعلق بي شخصياً فإنني لم أرَ شيئاً أبداً، أما ليلي التي كانت -كما أخبرتكم- فتاة ماكرة فقد كانت لها أفكارها، وقد تمسكت بتلك الأفكار فترة طويلة. كانت تقول لي: احفظي كلامي هذا، ذلك الرجل مغرم بها. لو رأيتِه كيف ينظر إليها وهي تسكب الشاي وكيف يتطاير الشرر من عيون زوجته!

- نعم، ومن كان ذلك الرجل؟

- أخشى أنني لا أذكر اسمه تماماً يا سيدي، ليس بعد كل هذه السنين. كان اسمه الكابتن... إيسدن. لا، لم يكن هذا اسمه. إيميري.... لا. لديّ شعور بأن اسمه يبدأ بحرف الياء أو ربما بحرف الهاء، وكان اسماً غير مألوف نوعاً ما. ولكني لم أفكر في الأمر منذ ست عشرة سنة. كان يقيم مع زوجته في فندق «رويال كلارنس».

- هل كانا مصطافَين؟

- نعم، ولكنني أعتقد أنه (أو أنهما) كانا يعرفان الرائد هاليدي من قبل. كانا يزوران المنزل كثيراً، وقد كان مغرماً بالسيدة هاليدي كما ظنت ليلي.

- وزوجته كانت تكره ذلك؟

- لا يا سيدي. ولكن تذكّر أنني لم أصدّق أبداً أنه كان في علاقتهما أي شيء غير طبيعي.

سألت غويندا: هل كانا ما يزالان هنا في فندق «رويال كلارنس» عندما... عندما هربت هيلين زوجة أبي؟

قالت إيديث: حسبما أذكر فقد سافرا في وقت قريب تقريباً، قبل يوم أو بعد يوم من هربها. كان سفرهما قريباً على أية حال مما جعل الناس يتكلمون في ذلك، ولكني لم أسمع بأي شيء محدد. ولو صحّ ذلك لكان الأمر قد أُعِدّ له بمنتهى السرية. أمر عجيب حقاً أن تهرب السيدة هاليدي هكذا، فجأة. ولكن الناس كانوا يقولون إنها كانت طائشة دوماً، مع أنني لم أرَ أي شيء من هذا القبيل شخصياً. ولو كنت أعتقد ذلك لما كنت أبديت استعدادي للذهاب معهم إلى نورفولك.

حدق الثلاثة بها لحظة ثم قال غايلز: نورفولك؟ هل كانا ذاهبَين إلى نورفولك؟

- نعم يا سيدي، كانا قد اشتريا بيتاً هناك، وقد أخبرتني السيدة هاليدي عنه قبل ثلاثة أسابيع من حصول ذلك كله. سألتني إن كنت مستعدة للذهاب معهما لدى انتقالهما وأجبت بالإيجاب، فأنا لم أكن -في نهاية المطاف- قد سافرت خارج ديلماوث قط، وفكرت بأنه ربما كان من الأفضل تجربة بعض التغيير طالما أنني أحب العائلة.

- لم أسمع قط بأنهما اشتريا بيتاً في نورفولك.

- من الطبيعي أن تستغرب ذلك يا سيدي، فالسيدة هاليدي بدت وكأنها تريد إبقاء الأمر سراً، فقد طلبت مني أن لا أتحدث

بالأمر مع أحد أبداً، ولذلك فإنني لم أتحدث بالطبع. كانت تريد الانتقال من ديلماوث قبل ذلك بوقت طويل وكانت تضغط على الرائد هاليدي للانتقال، ولكنه كان يحبّ الحياة في ديلماوث. بل إنني أظن أنه كتب إلى السيدة فينديسن التي كانت تملك البيت سائلاً إياها إن كانت تفكر في بيعه، ولكن السيدة هاليدي كانت تعارض ذلك بكل قوة. بدا وكأنها انقلبت ضد ديلماوث تماماً؛ كانت وكأنها تخاف من البقاء هنا!

كانت كلماتها تتدفق بطبيعية تامة، ومع ذلك فإنها جعلت الثلاثة يرهفون سمعهم وانتباههم. وسألها غايلز: ألا تعتقدين أنها أرادت الذهاب إلى نورفولك لتكون قريبة منه، من ذلك الرجل الذي لا تذكرين اسمه؟

- آه يا سيدي، إنني حقاً لا أود أن أظن ذلك، ولا أعتقد أنه صحيح أبداً. بالإضافة إلى أنني لا أعتقد أن... لقد تذكرت الآن، كان ذلك الرجل وزوجته قد قدما من مكان ما في الشمال، أظنهما جاءا من نورثمبرلاند. وقد كانا يحبان القدوم إلى الجنوب لقضاء إجازاتهما لأن الطقس معتدل هنا.

غويندا: كانت تخاف من شيء ما، أليس كذلك؟ أم من أحد ما؟ أعني زوجة أبي.

إيديث: لقد ذكّرتني الآن بقولك هذا...

غويندا: نعم؟

- جاءت ليلي إلى المطبخ ذات يوم. كانت تنظّف الدرج

وقالت: "اشتعلت"! كان لها أسلوب عامي في حديثها أحياناً، أقصد ليلي، ولذلك عليكم أن تعذروني. ثم سألتها ما الذي تعنيه فقالت إن السيدة دخلت مع السيد من الحديقة إلى غرفة الاستقبال، وبما أن الباب المفضي إلى الصالة كان مفتوحاً فقد سمعت ليلي ما يقولانه. "أنا خائفة منك"، هذا ما قالته السيدة هاليدي، وعلّقت ليلي بأن السيدة بدا عليها الخوف فعلاً من نبرة صوتها. ونقلت ليلي عن السيدة هاليدي قولها أيضاً: "لقد كنت خائفة منك منذ وقت طويل. أنت مجنون... لست طبيعياً. اذهب واتركني لشأني، عليك أن تتركني. أنا خائفة وأعتقد -في أعماقي- بأنني قد خفت منك دائماً"... شيء من هذا القبيل فأنا لا أستطيع الآن تذكر الكلمات نفسها بالطبع، ولكن ليلي أخذت الأمر في منتهى الجدية فأصرّت بعد أن حدث ما حدث...

توقفت إيديث باجيت فجأة كمن أصيب بصعقة وعلت وجهَها نظرةٌ غريبة خائفة ثم قالت: إنني لا أقصد، بالتأكيد... اعذريني يا سيدتي فقد شطّ بي لساني.

قال لها غايلز بلطف: من فضلك أخبرينا يا إيديث، فمن المهم جداً أن نعرف كما ترين. لقد مضى على الأمر وقت طويل ولكن علينا أن نعرف الحقيقية.

قالت إيديث بألم: لا أستطيع القول.

سألت الآنسة ماربل: ما الذي اعتقدته ليلي أو أصرت عليه؟

قالت إيديث باجيت بلهجة معتذرة: كانت ليلي من النوع الذي يكوّن أفكاراً غريبة في عقله. لم أكن أنا أنتبه لكل ذلك، فقد كانت

تكثر من ارتياد السينما ومن هناك كانت تخطر لها العديد من الأفكار الميلودرامية السخيفة! كانت قد ذهبت إلى السينما في ليلة الحادثة، والأنكى من ذلك أنها أخذت ليوني معها. كان ذلك خطأ كبيراً، وقد قلت لها ذلك فقالت: "آه، لا بأس في ذلك فنحن لا نترك الطفلة وحيدة في البيت، أنت هنا في المطبخ والسيد والسيدة سيأتيان لاحقاً، وتلك الطفلة لا تصحو أبداً بمجرد أن تنام". لكن ذلك كان خطأ وقد أخبرتها بذلك، مع أني طبعاً لم أعلم بذهاب ليوني أيضاً إلاّ بعد ذلك. ولو كنت أعرف لهُرعت إلى الطابق العلوي لأرى إن كانت الطفلة (أعني أنت يا سيدة غويندا) على ما يرام، إذ لا يمكن سماع شيء في المطبخ عندما يكون الباب مغلقاً.

توقفت إيديث باجيت لحظة ثم مضت قائلة: كنت أكوي بعض الملابس ومرّ المساء سريعاً، وكان أول ما شعرت به هو دخول الدكتور كينيدي إلى المطبخ حيث سألني: "أين ليلي؟"، فقلت له: "إنها ليلة إجازتها ولكنها على وشك الحضور في أية لحظة الآن". وبالفعل فقد دخلت في تلك اللحظة تماماً فأخذها إلى الطابق العلوي إلى غرفة السيدة. أراد أن يعرف إن كانت قد أخذت أية ملابس معها أو أي شيء آخر. وهكذا فتّشت ليلي وأخبرته، ثم نزلت إليّ وكلها لهفة وقالت: "لقد طارت... هربت مع شخص ما. وقد انهار السيد، أصيب بنوبة قلبية أو شيء من هذا القبيل. من الواضح أنها كانت صدمة فظيعة له. يا لحماقته! كان عليه أن يرى المصيبة تقترب منه". قلت لها: "عليك أن لا تتحدثي بهذا الشكل. كيف عرفتِ أنها هربت مع شخص ما؟ ربما تلقت برقية من قريب مريض". فقالت: "قريب؟ قرّبَ الله أجلها (لقد كانت سوقية في كلامها كما قلت لكم من

قبل) لقد تركت رسالة". سألتها: "مع مَن هربت؟" فقالت: "مع مَن تعتقدين؟ لا أظنها هربت مع السيد فين، بعينيه اللتين تشبهان عينَي نعجة وطريقته في ملاحقتها كالكلب". فقلت لها: "هل تظنين أنه الكابتن..." الذي نسيت اسمه الآن، فقالت: "أراهن أنه هو"، فقلت لها: "لا أصدق ذلك، ليس السيدة هاليدي فهي لن تقدم على فعل كهذا"، فقالت ليلي: "ولكن يبدو أن هذا هو ما أقدمت عليه".

توقفت إيديث قليلاً ثم تابعت قائلة: كل هذا كان في البداية كما تعلمون. ولكن فيما بعد ونحن فوق في غرفة نومنا أيقظتني ليلي وقالت: "اسمعي، الأمر كله خطأ". سألتها: "ما هو الخطأ؟"، فقالت: "تلك الملابس". قلت لها: "ما الذي تتحدثين عنه؟" فقالت: "اسمعي يا إيديث، لقد عاينتُ ملابسها لأن الطبيب طلب مني ذلك. هناك حقيبة فُقدت وذهب معها من الملابس ما يكفي لمَلئها، ولكنها الملابس الخطأ". قلت لها: "ما الذي تقصدينه؟" فقالت ليلي: "لقد أخذت ثوب السهرة الرمادي والفضي ولكنها لم تأخذ الحزام والصدرية اللذين ترتديهما للسهرة ولا القميص الداخلي الذي تلبسه مع ذلك الثوب، وأخذت حذاء السهرة الذهبي المقصَّب وليس الحذاء الفضي، وأخذت بدلتها الصوفية الخضراء التي لا تلبسها إلاّ في نهاية الخريف ولكنها لم تأخذ تلك السترة الصوفية الرائعة، وقد أخذت بلوزتها المخرمة التي لا تلبسها إلاّ مع بدلة عملية... آه، وملابسها الداخلية أيضاً، كانت مكوَّمة كما هي. تذكّري ما أقوله يا إيديث: إنها لم تهرب أبداً؛ لقد قتلها السيد"!

نظرت إيديث إلى غويندا باعتذار ثم أكملت: حسناً، لقد جعلني هذا الكلام أصحو تماماً، فجلست في فراشي وسألتها عن

أي تتحدث. قالت ليلي: "تماماً كما ورد في «أخبار العالم» في الأسبوع الماضي؛ لقد كشف السيد وجود علاقة عاطفية فقتلها ثم دفنها تحت الأرض في القبو. ولم يكن بوسعك أنت أن تسمعي شيئاً لأن القبو يقع تحت الصالة الأمامية. هذا ما فعله، ثم قام بملء حقيبة ليجعل الأمر يبدو كما لو أنها هربت. ولكنها هناك... تحت أرضية القبو. إنها لم تترك هذا البيت على قيد الحياة"! عند ذلك وبّختها على قولها مثل هذه الأشياء الفظيعة. وأعترفُ بأنني قد تسللت إلى القبو صباحَ اليوم التالي، ولكن كان كل شيء على حاله ولم تكن هناك أية آثار فوضى ولا عملية حفر جرت... وقد ذهبت وأخبرت ليلي بأنها حمقاء تماماً ولكنها تمسكت برأيها بأن السيد قد قتل زوجته، قالت لي: "تذكّري أنها كانت تخافه حتى الموت، لقد سمعتها تقول له ذلك"، فقلت لها: "وفي هذه النقطة بالذات أنت مخطئة يا صغيرتي لأنه لم يكن السيد أبداً، فبعد أن أخبرتِني في ذلك اليوم بأمر مشاجرتهما نظرت من النافذة ورأيت السيد قادماً من التلة حاملاً مضارب الغولف، ولذلك لا يمكن أن يكون هو مَن كان مع السيدة في غرفة الاستقبال... كان ذلك شخصاً آخر.

تردد صدى الكلمات مطوَّلاً في غرفة الجلوس.

قال غايلز بصوت خافت خرج مع أنفاسه: كان ذلك شخصاً آخر!

* * *

الفصل الخامس عشر

عنوان

كان فندق «رويال كلارنس» أقدم فنادق البلدة، وكان ذا واجهة تميل إلى الأمام وجوّ يذكر المرء بالعالم القديم، وهو ما يزال يقدم خدماته لذلك النوع من العائلات التي تأتي لقضاء شهر قرب شاطئ البحر.

كانت الآنسة ناراكوت التي تترأس الموظفين خلف طاولة الاستقبال امرأة ممتلئة في السابعة والأربعين من عمرها وذات شعر صُفِّفَ على الطراز القديم. اعتدلت في وقفتها استقبالاً لغايلز الذي رأت فيه عينُها الخبيرة «أحد زبائننا اللطفاء». أما غايلز ذو اللسان الحاضر والأسلوب المقنع (عندما يروق له أن يكون كذلك) فقد نسج قصة جيدة مقنعة، فهو قد تراهن مع زوجته بشأن عرّابتها وإن كانت تلك العرّابة قد أقامت في فندق رويال كلارنس قبل ثمانية عشر عاماً، وقد قالت زوجته إن من غير الممكن حسم هذا الجدل لأن كل السجلات القديمة ستكون قد رُميت طبعاً في وقت سابق، ولكنه قال لها: إن ذلك هراء، لأن مؤسسة كفندق رويال كلارنس

من شأنها أن تحتفظ بسجلاتها، ولا بد أن تلك السجلات تعود إلى مئة سنة خلت.

قالت الآنسة ناراكوت: حسناً، ليس إلى ذلك الحد يا سيد ريد، ولكننا نحتفظ فعلاً بكل «سجلات الزوار» القديمة كما نفضل أن نسميها. إن فيها أسماء ملفتة للنظر أيضاً، فقد أقام الملك نفسه في فندقنا ذات مرة عندما كان أميراً لمقاطعة ويلز، كما أن الأميرة أدلمار كانت تأتي في كل شتاء مع وصيفتها، ولدينا أيضاً في تلك السجلات بعض من أشهر الروائيين أيضاً والسيد دوفي فنان اللوحات الشهير.

أبدى غايلز الاستجابات المناسبة اهتماماً واحتراماً، وفي أثناء ذلك جيء بذلك السجل المقدس لتلك السنة المحدَّدة وعُرِض عليه. وبعد أن عُرضت عليه بعض الأسماء اللامعة الشهيرة قلب الصفحات وصولاً إلى شهر آب (أغسطس).

نعم، لقد كانت المادة التي يبحث عنها هنا بالتأكيد. الرائد إيرسكين وزوجته السيدة سيتون إيرسكين، عِزبة آنستيل، دايث، نورثمبرلاند. من السابع والعشرين من تموز (يوليو) وحتى السابع عشر من آب (أغسطس).

سألها غايلز: هل يمكن أن أنسخ هذا؟

الآنسة ناراكوت: طبعاً يا سيد ريد. ها هو الورق وهذا الحبر... آه، لديك قلمك. اعذرني، عليّ أن أعود إلى المكتب الخارجي.

تركتْه مع السجل المفتوح وشرع غايلز بالعمل.

* * *

لدى عودته إلى هيلسايد وجد غويندا في الحديقة منكبّة على الإطار العشبي، وحالما رأته اعتدلت في وقفتها ونظرت إليه نظرة استفهام عَجلى: هل حالفك الحظ؟

- نعم، أظن أن هؤلاء هم المعنيون.

قالت غويندا بهدوء وهي تقرأ الكلمات: عزبة آنستيل، دايث، نورثمبرلاند. نعم، لقد ذكرت إيديث باجيت نورثمبرلاند. أتساءل إن كانوا ما زالوا يعيشون هناك.

- سيكون علينا أن نذهب ونرى.

- نعم، سيكون من الأفضل أن نذهب. متى؟

- بأسرع ما يمكن. غداً؟ سنسافر بالسيارة ممّا سيتيح لك الفرصة لمشاهدة المزيد من إنكلترا.

- ولكن لنفترض أنهم ماتوا أو سافروا وتركوا المنزل ووجدنا غيرهم يعيش هناك؟

هز غايلز كتفَيه وقال: عندئذ نعود ونمضي في مساراتنا الأخرى. بالمناسبة: لقد كتبت إلى كينيدي وسألته إن كان يستطيع أن يرسل لي تلك الرسائل التي كتبتها له هيلين بعد هروبها إذا ما كان محتفظاً بها، بالإضافة إلى نموذج من خطها.

- أتمنى لو نستطيع تحقيق اتصال مع الخادمة الأخرى ليلي، تلك التي ألبست القط توماس ربطة عنق...

- لقد كان مضحكاً أن تتذكري ذلك فجأة يا غويندا.

- نعم، كان مضحكاً بالفعل. وأتذكر القط تومي أيضاً، كان أسود مخططاً بالأبيض وله ثلاث قطط صغيرة.

- ماذا؟ القط توماس؟

- آه، لقد كان يُسمّى توماس، ولكن تبين لاحقاً أنه قطة وليس قطاً. أما بخصوص ليلي... أتساءل ماذا حلّ بها؟ يبدو على إيديث باجيت أنها فقدت أثرها تماماً. لم تكن ليلي من هذه المنطقة، وبعد تفرّق مَن كانوا في هذا المنزل وجدت عملاً لها في توركي، وقد كتبت رسالتين إلى إيديث ولم تَزد على ذلك، وقد قالت إيديث إنها سمعت أن ليلي تزوجت ولكنها لا تعرف بمن. لو أمكننا أن نعثر عليها لأمكننا معرفة أمور أخرى كثيرة.

- وليوني أيضاً، الفتاة السويسرية.

- ربما، ولكنها كانت أجنبية ولم تكن لتستطيع متابعة ما كان يحدث بشكل جيد. أتعلم أنني لا أتذكرها أبداً؟ لا، إنها ليلي التي أشعر أنها يمكن أن تكون مفيدة لنا، فقد كانت هي الأكثر نباهة بينهن، أعرف ذلك. غايلز، دعنا نضع إعلاناً آخر... إعلاناً خاصاً بها. ليلي آبوت، هذا هو اسمها.

- نعم، بوسعنا أن نجرب ذلك. وسنذهب غداً شمالاً ونرى ما الذي يمكننا معرفته عن عائلة إيرسكين.

* * *

الفصل السادس عشر

ابن أمّه

قالت السيدة فين لخادمها المصاب بالربو الذي تشتعل عيناه البراقتان بالجشع: تعال يا هنري. تفضلي كعكة أخرى يا آنسة ماربل فهي لم تزلْ حارّة.

قالت الآنسة ماربل: شكراً، يا لها من كعكات لذيذة! إن لديك طباخة ممتازة.

- لويزا ليست سيئة بالفعل، ولكنها تنسى كثيراً ككل الطبّاخات وليس في الفطائر التي تُعِدّها أي تنويع. أخبريني، كيف حال عرق النّسا عند دوروثي يارد في هذه الأيام؟ لقد كانت دوماً تعاني منه، أظن أنها حالة عصبية إلى حد بعيد.

سارعت الآنسة ماربل إلى المساهمة بتفصيلات عن أمراض المرأة التي يشتركان في معرفتها، وفكرت الآنسة ماربل بأنه كان من حسن حظها أن وجدت بين صديقاتها ومعارفها (الكثيرات المنتشرات في طول إنكلترا وعرضها) امرأة تعرف السيدة فين، وأن

تلك المرأة كتبت للسيدة فين تقول: إن صديقة تدعى الآنسة ماربل تقيم في الوقت الحاضر في ديلماوث، فهل تتكرم العزيزة إلينور (أي السيدة فين) وتتلطف بدعوتها إلى جلسة ما؟

كانت إلينور فين امرأة طويلة مسيطرة، ذات عينين رماديتين حادتين وشعر أبيض متجعد وبشرة طفولية حمراء وبيضاء تخفي تحتها حقيقة عدم وجود رقة طفولية من أي نوع فيها.

ناقشت المرأتان أمراض دوروثي (أو أمراضها المتخيَّلة)، ثم انتقلتا إلى صحة الآنسة ماربل وهواء ديلماوث والضعف العام في الحالة الصحية لأغلب أبناء الجيل الجديد.

قالت السيدة فين: إنهم لم يُجبَروا على تناول خبزهم وهم أطفال، أما أنا فلم يكن شيء من هذا مقبولاً في تربيتي لأطفالي.

تساءلت الآنسة ماربل: هل عندك أكثر من ابن؟

- ثلاثة. أكبرهم جيرالد في سنغافورة، في «بنك الشرق الأقصى». وروبرت في الجيش، لقد تزوج امرأة تنتمي إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وأنت تعرفين ما الذي يعنيه ذلك... سوف يربّى كل الأطفال ككاثوليك. لا أدري ما الذي كان والد روبرت سيقوله لو كان حياً! حسناً، نادراً ما أسمع من روبرت في هذه الأيام، فهو يغضب من بعض الأشياء التي لم أقلها إلاّ لمصلحته هو. أنا أؤمن بالصدق ويقول المرء ما يؤمن به تماماً، وقد كان زواجه طامة كبرى في رأيي. ربما تظاهر بالسعادة... ابني المسكين، ولكن ليس بوسعي أن أحس بأن الأمر مقنع على الإطلاق.

- وابنك الأصغر ليس متزوجاً كما أظن؟

انفرجت أسارير السيدة فين وقالت: نعم، وولتر يعيش هنا. إنه حساس بعض الشيء... كان دوماً كذلك، منذ طفولته. وقد اضطررت دوماً إلى الاعتناء بصحته بكل حرص. لا يمكنني أن أصف لك كم هو ابن بارٌّ ومحب. إنني حقاً امرأة محظوظة جداً إذ أن لي ولداً مثله.

- وهو لم يفكر بالزواج أبداً؟

- يردّد وولتر دوماً بأنه لا يستطيع أن يتحمل بنات هذا الجيل فهنّ لا يَرُقْن له. إن لدينا (أنا وهو) كثيراً من الأفكار المشتركة بحيث إنه لا يخرج كثيراً كما ينبغي له أن يفعل، وهو يقرأ في روايات الكاتب وليم ثاكاري في الليل وعادة ما نلعب الورق. إن وولتر من النوع البيتي.

- ما أروع ذلك! وهل كان دوماً في مكتب المحاماة؟ لأنني سمعت أن لك ابناً كان في سيلان يزرع الشاي، ولكن ربما كان هنالك خطأ.

علت وجه السيدة فين تقطيبة خفيفة. شجّعت ضيفتها على تناول كعكة جوز ثم شرعت تشرح: كان ذلك وهو في مقتبل شبابه، كانت تلك واحدة من نزوات الشباب. إذ عادة ما يحب أي فتى أن يرى العالم، وفي الواقع كانت هناك فتاة خلف الموضوع. إن الفتيات يكنّ أحياناً مثيرات للتشويش وعدم الاستقرار.

- آه، فعلاً كما تقولين. أذكر أن ابن أختي أنا...

انطلقت السيدة فين غير آبهة بابن أخت الآنسة ماربل، فقد أمسكت بزمام الحديث وكانت تستمتع بفرصة سرد ذكرياتها لهذه الصديقة المتعاطفة من صديقات عزيزتها دوروثي. قالت: كانت فتاة غير مناسبة أبداً، كما هي الحال دائماً كما يبدو. آه، لا أقصد أنها كانت ممثلة أو أي شيء من هذا القبيل. لقد كانت أخت الطبيب المحلي عندنا، وكانت أقرب أن تكون ابنته في الواقع إذ كانت تصغره بسنوات عديدة، ولم تكن لدى الرجل المسكين فكرة عن كيفية تربيتها. إن الرجال عاجزون تماماً كما تعلمين. وقد أصبحت طائشة فورطت نفسها أولاً مع شاب يعمل في المكتب... مجرد موظف وذي شخصية غير مقنعة أبداً أيضاً، وقد اضطروا إلى التخلص منه لإفشائه معلومات سرية. على أي حال، هذه الفتاة التي كان اسمها هيلين كينيدي... لعلّها كانت جميلة، لكن أنا لم أرَها كذلك بل رأيت دائماً أن شعرها يصفف بطريقة مجنونة. ولكن وولتر، ذلك الفتى المسكين، وقع في حبها حتى أذنيه. ولم تكن هي مناسبة كما قلت، لا مال لديها ولا مستقبل ينتظرها وليست من تلك الفتيات اللائي يمكن للمرأة أن ترغب بإحداهنّ كنّةً لها. ولكن مع ذلك، ما الذي بوسع الأم أن تفعله؟ تقدم وولتر إليها خاطباً ورفضته، ثم دخلت تلك الفكرة السخيفة إلى رأسه: أن يسافر إلى الهند ويزرع الشاي هناك! وقد قال زوجي: "دعيه يذهب"، مع أنه شعر بخيبة أمل كبيرة بالطبع، فقد كان يتطلع إلى أن يأخذ وولتر معه في المكتب وكان وولتر قد أنهى بنجاح كل امتحانات الحقوق، ولكنه أصر على السفر مع ذلك كله. يا للخراب الذي تسببه تلك الفتيات!

- آه، أعرف ذلك. إن ابن أختي...

مرة أخرى اكتسحت السيدة فين ابن أخت الآنسة ماربل: وهكذا سافر الفتى المسكين إلى آسام أو بانغالور... لا أذكر فعلاً بعد كل هذه السنين. وقد شعرت بالقلق الشديد لأنني كنت أعرف أن صحته لن تتحمل هذه التجربة. ولم تمض على إقامته هناك سنة (وكان خلالها ناجحاً في عمله أيضاً، إذ أن وولتر ينجح في كل ما يقوم به) حتى حدث ما لن تصدقيه! لقد غيّرت هذه الفتاة الطائشة اللعينة رأيَها وكتبت له معلنة رغبتها بالزواج به رغم كل شيء!

هزت الآنسة ماربل رأسها متصنعة الإشفاق وقالت: المسكين، المسكين!

- حزمت العروس جهازها وحجزت تذكرة لنفسها. وماذا تظنين أن الخطوة التالية كانت؟

انحنت الآنسة ماربل إلى الأمام باهتمام وانتباه بالغَين وقالت: لا يسعني أن أتخيل.

- وقعت على متن الباخرة في علاقة غرامية مع رجل متزوج، إن كنت تصدقين! رجل متزوج له ثلاثة أطفال كما أظن. وكان وولتر هناك على رصيف الميناء ليستقبلها، وكان أول ما فعلته قولها إنها لا تستطيع الزواج به. ألا تسمّين ذلك عملاً شريراً بالله عليك؟

- آه، طبعاً أسميه كذلك. يمكن لعمل كهذا أن يدمر تماماً إيمان ابنك بالطبيعة البشرية.

- كان ينبغي لهذا التصرف أن يُظهرها أمامه على حقيقتها العارية. ولكن ما العمل؟ ذلك النوع من النساء ينجو بكل ما يفعله.

- ألم يقم...

ترددت الآنسة ماربل قليلاً ثم تابعت: ألم يغضب لفعلتها؟ كان من شأن بعض الرجال أن ينفجروا بالغضب الرهيب.

- كان وولتر رابط الجأش دائماً؛ فمهما كان منزعجاً أو متضايقاً من أمر ما فإنه لا يُظهِر ذلك أبداً.

أمعنت الآنسة ماربل النظر بمضيفتها متأملة، وبتردد ألقت بفكرة لجس النبض: ذلك لأن تلك المشاعر ربما كانت تترسب في الأعماق! يُدهَش المرء أحياناً من الأطفال، إذ ترين انفجاراً مفاجئاً من طفل كنت تحسبينه لا يهتم على الإطلاق. إنها الطبيعة الحساسة التي لا تستطيع التعبير عن نفسها حتى تُدفَع دفعاً إلى خارج حدود الاحتمال.

- آه، من الغريب أن تقولي ذلك يا آنسة ماربل، فأنا أذكر تماماً حدثاً مشابهاً. كان كلٌّ من جيرالد وروبرت حادّ الطبع مستعداً للعراك دوماً، وهذا أمر طبيعي عند الأطفال الأصحاء بالطبع.

- آه، طبيعي تماماً.

- أما العزيز وولتر فكان دوماً هادئاً وصبوراً، ولكن روبرت أخذ في أحد الأيام نموذج طائرته الصغيرة، وكان وولتر قد ركّبها بنفسه طوال أيام من العمل فقد كان صبوراً جداً وبارعاً في العمل اليدوي. أما روبرت الذي كان مندفعاً متحمّساً ولكنه فوضوي فقد كسر طائرة وولتر، وعندما دخلت إلى غرفة دراسة الأطفال رأيت روبرت ملقىً على الأرض ورأيت وولتر يهاجمه بقضيب الموقد

الحديدي... كان قد ألقاه أرضاً بالفعل، وقد استعملتُ كل قوتي لكي أرفعه عنه. وظل يردد: "لقد فعلها عمداً، لقد فعلها عمداً، سأقتله". ولقد خفت من كلامه تماماً، فالأطفال يشعرون بالأشياء بشكل مكثف مركز، أليس كذلك؟

قالت الآنسة ماربل وعيناها غارقتان في التفكير: نعم، فعلاً.

ثم عادت إلى الموضوع السابق: وهكذا فقد فُسخت الخطبة أخيراً. ما الذي حدث للفتاة؟

- عادت إلى إنكلترا، ودخلت في علاقة غرامية في طريق العودة ولكنها تزوجت الرجل هذه المرة، وكان أرمل وله طفلة واحدة. إن الرجل الذي فقد زوجته لتوه يكون هدفاً سهلاً في العادة، يكون رجلاً مسكيناً لا حيلة له. وهكذا تزوجته واستقرا هنا في بيت على الجهة الأخرى من البلدة بجوار المستشفى اسمه «سينت كاثرين». ولم يستمر الزواج بالطبع، فقد تركته قبل مضي عام واحد... هربت مع هذا الرجل أو ذاك.

- آه يا عزيزتي! يا لَحَظّ ابنك في النجاة من تلك الفتاة!

- هذا ما أقوله له دوماً.

- وهل ترك زراعة الشاي لأن صحته لم تتحملها؟

ظهرت تقطيبة خفيفة على وجه السيدة فين وقالت: لم تكن الحياة هناك تناسب طبعه، وقد عاد بعد نحو ستة أشهر من عودة الفتاة.

- لا شك أن ذلك كان فظيعاً، فالفتاة كانت تعيش هنا في ذلك الوقت، في البلدة نفسها.

- كان وولتر رائعاً، فقد تصرف تماماً كما لو أن شيئاً لم يحصل. كان رأيي (وقد قلت ذلك بالفعل) أن من الأفضل قطع كل صلة بالماضي وبدء صفحة جديدة، فاللقاءات -في نهاية المطاف- سوف تكون مؤلمة للطرفين. ولكن وولتر أصرّ أن يبذل كل جهد ليكون ودياً وصديقاً للعائلة، وكان يزورهم في البيت دون أية رسميات ويلعب مع الطفلة... والغريب -بالمناسبة- أن الطفلة عادت إلى هنا. إنها الآن امرأة متزوجة وقد جاءت بالأمس إلى مكتب وولتر ليكتب لها وصية، واسمها الآن السيدة ريد.

- السيد والسيدة ريد؟ أنا أعرفهما! إنهما زوجان شابان رائعان بسيطان. تخيّلي ذلك! وهي حقاً تلك الطفلة؟

- طفلة الزوجة الأولى، فقد ماتت الزوجة الأولى في الهند. الرائد المسكين... لقد نسيت اسمه الآن... هولوي أو شيء من هذا القبيل. لقد انهار تماماً عندما تركته تلك الوقحة. يصعب فهم السبب الذي يجعل أسوأ النساء يجذبن أفضل الرجال دائماً!

- وذلك الشاب الذي تعلق بها منذ البداية؟ أعتقد أنك قلت إنه كان موظفاً في مكتب ابنك. ما الذي حدث له؟

- تحسنت أحواله كثيراً. إنه يدير تلك الرحلات الساحلية، «مراكب أفليك الساحلية»، المراكب المطلية بالأصفر الفاقع. أصبح العالم سوقياً مبتذَلاً في هذه الأيام.

تساءلت الآنسة ماربل: أفليك؟

قالت السيدة فين: نعم، جاكي أفليك. إنه رجل مغامر قذر،

مصمم دوماً على الصعود كما أتخيله. وربما كان هذا هو سبب مرافقته هيلين كينيدي في المقام الأول، فهي أخت طبيب ولعله ظن أن من شأن مثل هذا الزواج أن يحسّن وضعه الاجتماعي.

- وهيلين هذه، هل عادت إلى ديلماوث بعد ذلك قط؟

- لا، مع ألف سلامة. ربما أصبحت في الحضيض الآن. لقد كنت أشعر بالأسف من أجل الدكتور كينيدي فهي لم تكن غلطته. لقد كانت الزوجة الثانية لوالده امرأة خفيفة تافهة أصغر من زوجها بسنوات عديدة، وأظن أن هيلين ورثت عنها طيشها وتهورها. لقد اعتقدت دوماً...

توقت السيدة فين ثم قالت: ها قد جاء وولتر.

ميّزت أذنا الأم صوتاً معروفاً في الصالة، ثم فُتح الباب ودخل وولتر فين. قالت أمّه: أقدم لك الآنسة ماربل يا بني. اقرع الجرس وسنشرب بعض الشاي الساخن.

قال وولتر: لا تزعجي نفسك يا أمي، فقد شربت فنجاناً.

- ولكننا نريد أن نشرب شاياً طازجاً ونأكل بعض الكعكات. بياتريس.

نادت الخادمةَ التي سرعان ما ظهرت قائلة: نعم يا سيدتي.

قال وولتر فين بابتسامة بطيئة محببة: إن أمي تفسدني بدلالها.

درسته الآنسة ماربل وهي تعطي إجابة مؤدبة على كلامه. بدا شخصاً لطيفاً هادئاً حَيِيّاً، في أسلوبه شيء من الاعتذار ولا لون له...

شخصية عادية تماماً. من أولئك الشبان المخلصين في حبهم الذين تتجاهلهم النساء ولا يَقبلن الزواج بهم إلاّ لأن الرجل الذي يحببنه لا يبادلهن الحب. وولتر الموجود دائماً، وولتر المسكين مدلِّل أمه... وولتر فين الصغير الذي هاجم أخاه الأكبر بقضيب موقد حديدي وحاول قتله!

تعجبت الآنسة ماربل.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع عشر
ريتشارد إيرسكين

-١-

كانت عزبة «آنستيل» ذات هيئة مكشوفة موحشة، وهي عبارة عن بيت أبيض بُنِيَ في منطقة من التلال الجرداء موصولة بطريق صاعد ملتوٍ بين مجموعة من الشجيرات البرية العالية الكثيفة.

قال غايلز لغويندا: ما الذي يمكن أن نقوله؟ لماذا أتينا هنا؟

أجابت غويندا: لقد نجحَتْ حتى الآن أعذارُنا التي كانت وليدة اللحظة.

- نعم، حتى الآن. من حسن الحظ أن صهر عمة خال الآنسة ماربل (أو كائنةً ما كانت قرابته لها) يقيم قريباً من هنا... ولكن سؤال مضيفك عن علاقاته العاطفية القديمة خلال زيارة تعارف اجتماعية يعتبر خروجاً كبيراً ومحرجاً عن الأصول.

- ولا سيما بعد مرور كل هذا الوقت الطويل. بل ربما وجدته لا يتذكرها.

- وربما لم تكن بينهما أي علاقة أصلاً.

- غايلز، أترانا نجعل من أنفسنا مغفلَيْن؟

- لا أدري... أحياناً أحس بذلك. لا أفهم لماذا نهتم بهذا الموضوع كله! ما الذي يهم الآن في هذه القضية؟

- بعد كل هذه السنين... نعم، لقد قالت الآنسة ماربل وكذلك الدكتور كينيدي: "اتركوا الأمر وشأنه". فلماذا لا نتركه يا غايلز؟ ما الذي يجعلنا نمضي فيه قدماً؟ هل هي التي تدفعنا؟

- هي؟

- أقصد هيلين. ألذلك تذكرتُ ما حدث؟ هل تكون ذاكرتي الطفولية هي الصلة الوحيدة لها مع الحياة... مع الحقيقة؟ هل هي هيلين التي تستخدمني بحيث تنكشف الحقيقة؟

- أتقصدين لأنها ماتت ميتة عنيفة... مقتولة؟

- نعم؛ يقولون إنهم أحياناً لا يستريحون...

- أعتقد أنك أصبحت كثيرة الأوهام يا غويندا!

- ربما، ولكننا نستطيع الاختيار على أية حال. هذه مجرد زيارة اجتماعية ولا حاجة أن تكون أكثر من ذلك، إلاّ إذا أردنا لها أن تكون...

هز غايلز رأسه بحيرة وقال: سوف نستمر، لا يمكننا إلاّ أن نستمر.

- نعم، أنت على حق. ولكنني خائفة قليلاً.

-٢-

قال الرائد إيرسكين: إنكما تبحثان عن بيت، أليس كذلك؟

قدّم لهما صحناً من الفطائر، فأخذت غويندا واحدة وهي تنظر إليه. كان ريتشارد إيرسكين رجلاً ضئيلاً بعض الشيء، أشيب الشعر وذا عينين متعبتين توحيان بالتفكير، وكان صوته منخفضاً محبَّباً فيه بعض التشدق. لم يكن فيه شيء مميز أو بارز ولكن غويندا فكرت بأنه كان جذاباً بالتأكيد. لم يكن بوسامة وولتر فين ولكنه كان ذا شخصية رغم هدوئه، فقد كان يتحدث عن الأمور العادية بشكل عادي ولكن كان فيه جاذبٌ ما. عدَّلت غويندا -دون وعي منها تقريباً- خصلة جانبية من شعرها، فمنذ تسعة عشر عاماً خلت ربما كانت هيلين كينيدي قد وقعت في غرام هذا الرجل!

رفعت ناظريها لتجد عيني مضيفها مركزتين عليها فتورد وجهها لاإرادياً. وكانت السيدة إيرسكين تتحدث مع غايلز ولكنها كانت تراقب غويندا، وكانت نظرتها تقييمية ومرتابة في آنٍ معاً. كانت جانيت إيرسكين امرأة طويلة ذات صوت عميق يكاد يكون في عمق صوت الرجل، وكان جسمها رياضياً وهي ترتدي ثوباً صوفياً جيد التفصيل ذا جيوب كبيرة. بدت أكبر من زوجها، ولكن غويندا جزمت بأنها ليست أكبر منه فعلاً، وقد كست وجهَها مسحةُ شقاء.

فكرت غويندا بأنها امرأة تعيسة، وقالت لنفسها: "أراهن أنها تجعل من حياته جحيماً". أما بصوت عال فقد استمرت في المحادثة

قائلة: إن البحث عن البيوت مسألة مخيبة للآمال؛ فالأوصاف التي يعطيها وكلاء البيوت دائماً براقة رائعة. وبعدها، عندما تصل إلى البيت فعلاً، تجد المكان مخزياً تماماً.

السيد إيرسكين: هل تفكران في الاستقرار في هذه المنطقة؟

غويندا: في الواقع هذه إحدى المناطق التي فكرنا فيها لأنها قريبة من هادريان وول، وقد شُغف غايلز دوماً بهادريان وول. ربما كان ذلك غريباً بالنسبة لك كما أتوقع، ولكن كل الأماكن في انكلترا سواء بالنسبة لنا. فوطني أنا هو نيوزيلندا وليست لي أية روابط هنا، وغايلز كان قد أقام عند عمّات مختلفات له في كل عطلة كان يقضيها هنا، ولذلك فليست له أيضاً أية روابط خاصة. الأمر الوحيد الذي لا نريده هو القرب الكبير من لندن؛ إننا نريد الريف الحقيقي.

ابتسم إيرسكين وقال: ستجدان ريفاً حقيقياً في هذه المنطقة بالتأكيد، فهي معزولة تماماً وجيراننا قلائل ومتفرقون على مسافات متباعدة.

فكرت غويندا بأنها ميزت في صوته خيطاً رفيعاً من العزلة والكآبة الباردة، ثم ومضت فجأة في ذهنها صورة الحياة المنعزلة، صورة أيام الشتاء القصيرة المعتمة حيث تصفُر الرياح في المداخن وتُسدَل الستائر وتُغلَق الأبواب، تغلق عليه مع تلك المرأة ذات العينين التعيستين والجيران قلائل ومتباعدون.

ثم تلاشت الرؤيا. عاد الصيف ثانية وقد فُتحت النوافذ على الحديقة وشاعت روائح الورد وتراكمت أصوات الصيف.

قالت غويندا: هذا البيت قديم، أليس كذلك؟

هز إيرسكين رأسه بالإيجاب وقال: من عهد الملكة آن. لقد عاشت عائلتي هنا لما يقرب من ثلاثمئة سنة.

- إنه بيت جميل؛ لا بد أنك فخور به.

- إنه الآن بيت قديم بالٍ، فقد جعلت الضرائبُ المحافظةَ على أي شيء وصيانتَه مسألة صعبة. ولكن الأولاد انطلقوا الآن في هذا العالم، لقد مضت وانقضت الفترات الصعبة.

- كم ولداً لديكما؟

- ولدان. الأول في الجيش والآخر تخرّج لتوّه من جامعة أكسفورد وسيعمل في شركة نشر.

واتجهت عيناه إلى العارضة الرخامية فوق الموقد فتبعته عينا غويندا، وهناك وُضعت صورة لصبيين يُفترض أن عمرهما فيها يقرب من الثمانية عشر عاماً والتسعة عشر عاماً، وقدّرت غويندا بأن الصورة أُخذت منذ بضع سنوات.

وبدا الفخر والحب في ملامح إيرسكين وهو يقول: إنهما ولدان طيبان، مع أنني أنا الذي أقول ذلك.

- يبدوان لطيفَين جداً.

- نعم، أظن أن الأمر جدير بالعناء حقاً.

ثم أضاف جواباً على نظرة غويندا المتسائلة: أقصد تضحية المرء من أجل أبنائه.

- أعتقد أن المرء يضطر غالباً إلى التخلي عن الكثير.

- بل الكثير جداً أحياناً...

مرة أخرى التقطت خيطاً من المرارة في كلامه، ولكن السيدة إيرسكين تدخلت قائلة بصوتها العميق الآمر الناهي: وأنتما حقاً تبحثان عن بيت في هذا الجزء من العالم؟ لا أظنني أعرف أي بيت مناسب حولنا هنا.

"ولن تخبرينا لو كنت تعرفين"! هكذا فكرت غويندا وقد انتابتها موجة مشاكسة مؤذية. فكرت في نفسها بصمت: إن هذه العجوز الحمقاء غيورة. غيورة لأنني أتحدث مع زوجها ولأنني شابة صغيرة وجذابة!

قال إيرسكين: هذا يعتمد على مدى استعجالكم.

قال غايلز بابتهاج: لسنا مستعجلَين أبداً في الواقع، فنحن نريد أن نتأكد من عثورنا على شيء نحبه فعلاً. وعلى أي حال فإن لدينا حالياً بيتاً في ديلماوث على الساحل الجنوبي.

السيدة إيرسكين: ديلماوث!

كان صوتها خالياً من التعبير وبدا وكأنها قد اختلست نظرة إلى زوجها.

قال غايلز: إنه مكان صغير جميل، هل تعرفانه؟

سادت لحظة صمت، ثم قالت السيدة إيرسكين بنفس ذلك الصوت الخالي من التعبير: لقد أمضينا بضعة أسابيع هناك ذات

صيف، منذ سنوا . بعيدة بعيدة. لكننا لم نحب ذلك المكان فقد وجدناه يبعث على الاسترخاء بصورة كبيرة.

غويندا: نعم، هذا ما وجدناه تماماً. غايلز وأنا نشعر بأننا نفضل هواء أكثر تنشيطاً.

قال إيرسكين: ستجدين الهواء هنا منشّطاً بما فيه الكفاية.

سألته غويندا ببساطة: هل تتذكر ديلماوث بشكل جيد يا ترى؟

ظهرت على شفتيه رعشة فسّرتها غويندا بأنها نوبة ألم مفاجئة. وأجاب بصوت مبهَم ملتبس المعنى: أظن أنني أتذكرها بشكل جيد تماماً. لقد أقمنا هناك في... ماذا كان اسمه؟ فندق رويال جورج... لا، رويال كلارنس.

غويندا: آه، نعم، ذلك الفندق الجميل قديم الطراز. بيتنا قريب منه، اسمه «هيلسايد»، لكن اسمه كان فيما مضى سينت... سينت ماري؟ هل كان «سينت ماري» يا غايلز؟

غايلز: بل «سينت كاثرين».

هذه المرة لم يكن رد الفعل ليخفى، فقد التفت إيرسكين بحدّة بوجهه بعيداً فيما اهتزّ فنجان السيدة إيرسكين فوق صحنها، ثم قالت فجأة وبحسم: ربما كنتما ترغبان في رؤية الحديقة.

غويندا: آه، نعم من فضلك.

خرجوا إلى حديقة منظمة ومزروعة جيداً وذات سياج طويل وممرات محدودة بالورود من طرفيها، وقدّرت غويندا أن العناية

بالحديقة كانت مسؤولية الرائد إيرسكين بشكل رئيسي. وفي أثناء حديثه معها عن الورود وعن النباتات العشبية توهّج وجهه الأسمر الحزين. كانت العناية بالحديقة شغفه الكبير كما بدا واضحاً.

عندما استأذنا أخيراً بالانصراف وابتعدا بسيارتهما عن المنزل سأل غايلز بتردد: هل... هل أوقعتِهِ؟

هزت غويندا رأسها بالإيجاب وقالت: قرب المجموعة الثانية من أعشاب الدولفينيوم.

ثم نظرت إلى إصبعها وأدارت خاتم الزواج حولها وهي تفكر.

- وماذا لو لم تجديه ثانية؟

- فليكن، إنه ليس خاتم خطوبتي الحقيقي. لم أكن لأخاطر بذلك الخاتم.

- يسعدني سماع ذلك.

- إنني متعلقة كثيراً بذلك الخاتم. هل تذكر ما قلته لي عندما وضعته في أصبعي؟

- يمكنني القول إن الصيغ الخاصة التي نستخدمها في التحبّب قد تبدو غريبة لشخص من جيل الآنسة ماربل مثلاً.

- أتساءل: ما الذي تفعله الآن تلك العجوز العزيزة؟ هل تجلس في الشمس أمام البيت؟

- إنها تتحرى شيئاً ما إنْ صدقت معرفتي بها! تشمشم هنا أو

تتطفل هناك أو تطرح بعض الأسئلة. أتمنى لو تقلل أسئلتها ذات يوم!

قالت غويندا: إنه أمر طبيعي تماماً. أعني بالنسبة لامرأة عجوز، وهو لا يثير الانتباه كما لو كنا نحن من يطرح كل هذه الأسئلة.

تجهم وجه غايلز وقال: لهذا فأنا لا أحبّ... إن اضطرارك أنت للقيام بذلك هو ما لا أحبذه. لا أستطيع تحمل شعوري بأنني أجلس في البيت وأرسلك لتقومي بالمهام الصعبة.

- أعرف يا حبيبي، أعرف. ولكن عليك أن تعترف بأن الأمر دقيق ويتطلب براعة وحذراً. إنه لمن الوقاحة أن تستجوب رجلاً عن علاقاته العاطفية الماضية، ولكنه نوع من الوقاحة التي يمكن لامرأة أن تنجو بها إن كانت ذكية. وأنا أريد أن أكون ذكية.

- أعرف أنك ذكية. ولكن إن كان إيرسكين هو الرجل الذي نبحث عنه...

قالت غويندا بتأمل: لا أظنه هو!

- هل تعنين أننا نهزّ شجرة لا ثمار فيها؟

- ليس تماماً. أظن أنه كان يحبّ هيلين على الأغلب. ولكنه لطيف يا غايلز، لطيف جداً وليس من النوع الذي يقتل خنقاً أبداً.

- أنتِ لست خبيرة ضليعة بالنوع الذي يخنق يا غويندا، أليس كذلك؟

- صحيح، ولكن لديّ غريزة الأنثى.

- يمكنني القول إن هذا هو ما يقوله ضحايا ذلك النوع من

الخانقين غالباً. لا يا غويندا، دعي المزاح جانباً وكوني حذرة. هل تعدينني؟

- طبعاً. إنني أشعر بالأسى على ذلك الرجل المسكين مع هذه الزوجة المفترسة! أراهن أنه عاش حياة بائسة.

- إنها امرأة مُسنّة مخيفة بعض الشيء.

- نعم، شريرة تماماً. هل لاحظت كيف راقبتني طوال الوقت؟

- آمل أن تسير الخطة على ما يرام.

-٣-

وُضعت الخطة موضع التنفيذ في صباح اليوم التالي، فقد أخذ غايلز موقعه وهو يشعر -كما قال- وكأنه رجل تحرٍّ غامض في قضية طلاق! أخذ موقعه في مكان يمنحه أفضلية الإطلالة على البوابة الأمامية لعزبة آنستيل، وفي الحادية عشرة والنصف أعطى غايلز تقريره لغويندا بأن كل شيء أصبح على ما يرام، فقد غادرت السيدة إيرسكين بسيارة أوستن صغيرة متجهة -كما هو واضح- إلى سوق البلدة الذي يبعد ثلاثة أميال. أصبح الجو مهيئاً.

قادت غويندا السيارة إلى الباب الأمامي وقرعت الجرس. سألت عن السيدة إيرسكين فقيل لها إنها قد خرجت، بعدها سألت عن الرائد إيرسكين. كان الرائد إيرسكين في الحديقة، وقد اعتدل واقفاً أمام بعض الأزهار عندما اقتربت غويندا

قالت غويندا: أنا آسفة جداً على إزعاجك، ولكن أظن أنني أسقطت خاتماً في مكان ما هنا بالأمس. أتذكّر أنه كان في أصبعي عندما خرجنا بعد شرب الشاي، كان رخواً بعض الشيء ولكني لا أستطيع تحمل فقدانه لأنه خاتم خطوبتي.

وسرعان ما بدأت عملية البحث. حاكت غويندا خطواتها بالأمس وحاولت تذكر الأماكن التي وقفت فيها والأزهار التي لمستها، وسرعان ما ظهر الخاتم قرب مجموعة ضخمة من أزهار الديلفينيوم. وأسرفت غويندا في التعبير عن ارتياحها.

قال إيرسكين: والآن هل يمكنني أن أقدم لك شراباً يا سيدة ريد؟ كأس من العصير؟ أم تفضلين القهوة، أم مشروباً ساخناً آخر؟

غويندا: شكراً، لا حاجة لأي شيء من ذلك، لكنني سأرتاح قليلاً بعد كل هذا البحث.

جلست على مقعد خشبي طويل وجلس إيرسكين بجانبها. بقي الاثنان صامتَين لعدة دقائق فيما كان قلب غويندا يضرب بشكل سريع. لم يكن هناك خيار آخر؛ لا بد لها من الإقدام على ما ليس منه بد. قالت: أريد أن أسألك شيئاً، وربما رأيت فيه وقاحة فظيعة مني لكنني أريد يائسة أن أعرف... وربما كنت أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يخبرني. أظن أنك كنت تحب زوجة أبي ذات يوم.

أدار نحوها وجهاً علته الدهشة وقال: زوجة أبيك؟

- نعم، هيلين كينيدي التي أصبحت هيلين هاليدي فيما بعد.

- آه، فهمت.

كان الرجل الجالس بجانبها هادئاً جداً، سرحت عيناه بلا تركيز على ساحة العشب التي تنيرها أشعة الشمس، وأحست غويندا في حالته التي كان عليها تلك أن اضطراباً يعتمل في ذلك الجسم المشدود.

قال إيرسكين وكأنه يجيب على سؤال طرحه على نفسه: الرسائل كما أظن؟

لم تجبه غويندا.

- لم أكتب لها كثيراً من الرسائل... اثنتين أو ثلاثاً فقط. قالت إنها مزقتها، ولكن النساء لا يمزقن الرسائل أبداً، أليس كذلك؟ وهكذا وقعت الرسائل في يديك أنت. وأنت تريدين أن تعرفي.

- أريد أن أعرف المزيد عنها. لقد كنت متعلقة بها مع أنني كنت طفلة صغيرة جداً عندما... عندما رحلت.

- رحلت؟

- ألا تعرف ذلك؟

التقت عيناه الودودتان المدهوشتان بعينيها وقال: ليست لديّ أخبار عنها منذ... منذ ذلك الصيف في ديلماوث.

- إذن فأنت لا تعرف أين هي الآن؟

- كيف لي أن أعرف؟ لقد مرت سنوات، سنوات طويلة. وقد مضى كل شيء وانتهى وأصبح منسياً.

- منسياً؟

- لا، ربما لم يُنسَ... إنك شديدة الإدراك والفهم يا سيدة ريد. ولكن أخبريني عنها. إنها ليست ميتة، أليس كذلك؟

هبت فجأة ريح باردة خفيفة أثلجت رقبتيهما.

قالت غويندا: لا أدري إن كانت ميتة أم لا. لا أعرف أي شيء عنها، وقد ظننت أنك ربما تعرف أنت.

هزّ رأسه بالنفي فمضت قائلة: لقد رحلَت من ديلماوث في ذلك الصيف بشكل مفاجئ تماماً في إحدى الليالي دون أن تخبر أحداً، ولم تعد بعد ذلك قط.

- وظننتِ أنني ربما أكون قد استلمت شيئاً منها؟

- نعم.

هزّ رأسه بالنفي وقال: لا، لم أستلم أو أسمع كلمة واحدة. ولكنّ هناك أخاها الطبيب الذي يعيش في ديلماوث. لا بد أنه يعرف، أم أنه مات أيضاً؟

- لا، إنه حي يُرزق ولكنه لا يعرف هو الآخر. لقد اعتقدوا جميعاً أنها رحلت... مع شخص ما.

أدار وجهه لينظر إليها، وكانت عيناه عميقتين حزينتين: هل ظنوا أنها هربت معي؟

- كان هذا أحد الاحتمالات.

- هل كان ذلك محتمَلاً بالفعل؟ لا أعتقد. لم أكن أبداً

كذلك. أم أننا كنا مغفلَين، مغفلَين ذوَي ضمير حي أهدرنا فرصتنا في السعادة؟

لم تتكلم غويندا، وأدار إيرسكين رأسه مرة أخرى ونظر إليها: ربما كان من الأفضل أن تسمعي القصة. ليس هناك حقاً الكثير مما يمكن سماعه ولكنني لا أريدك أن تسيئي الحكم على هيلين. لقد التقينا في باخرة ذاهب إلى الهند. كان أحد أبنائي مريضاً فتخلفت زوجتي معه على أن تتبعني في الباخرة التالية. وكانت هيلين ذاهبة لتتزوج رجلاً يعمل هناك في الزراعة أو الغابات. لم تكن تحبه بل كان مجرد صديق قديم لطيف ودود، وأرادت هي أن تبتعد عن الوطن حيث لم تكن سعيدة... وتعلق كل منا بالآخر.

صمت قليلاً ثم تابع: إنها من العبارات الصريحة الجافة. ولكن ذلك لم يكن مجرد علاقة استلطاف عادية مما يحدث في أثناء السفر... أريد أن أوضح ذلك تماماً. كانت علاقة جادة جعلتنا نحن الاثنين محطمَين من جرّائها، ولم يكن ثمة شيء نستطيع فعله. لم يكن بوسعي أن أخذل جانيت والأطفال، وقد رأت هيلين الأمر كما رأيته أنا. لو كانت جانيت وحدها هناك... ولكن كان هناك الصبية. كان الأمر ميؤوساً منه، فاتفقنا على أن يبتعد أحدنا عن الآخر وأن نحاول النسيان.

ضحك ضحكة قصيرة لا مرح فيها وأكمل: النسيان؟ إنني لم أنسَ أبداً ولا لحظة واحدة. صارت حياتي جحيماً ولم أستطع التوقف عن التفكير بهيلين. حسناً، لم تتزوج الشاب الذي سافرت للزواج به، ففي اللحظة الأخيرة لم تستطع أن تواجه هذا الأمر.

فعادت إلى إنكلترا، وفي طريقها إلى الوطن قابلت ذلك الرجل الآخر، والدك كما أعتقد، وكتبت لي بعد شهرين من ذلك تخبرني بما فعلت. كان تعيساً جداً بسبب فقدان زوجته ولديه طفلة، هكذا قالت، وظنّت أن بوسعها أن تجعله سعيداً وأن ذلك كان أفضل شيء تفعله. وقد أرسلت رسالتها من ديلماوث. وبعد ثمانية أشهر توفي والدي فعدت إلى إنكلترا، واحتجنا إلى إجازة لبضعة أسابيع ريثما نستطيع الاستقرار في هذا البيت. وقد اقترحت زوجتي ديلماوث إذ كان أحد الأصدقاء قد ذكرها كمكان هادئ جميل، وبالطبع فإن زوجتي لم تكن تعرف عن هيلين أي شيء. هل تستطيعين تخيل الإغراء؟ أن أراها ثانية وأرى كيف هو هذا الرجل الذي تزوجته؟

ساد صمت قصير ثم تابع إيرسكين: ذهبنا وأقمنا في فندق رويال كلارنس. كان ذلك خطأً لأن رؤية هيلين مرة أخرى كانت جحيماً بالنسبة لي، لكنها بدت سعيدة بما فيه الكفاية ولم أعرف إن كانت ما تزال مهتمة بي أم لا... ربما كانت قد تجاوزت المسألة. وأظن أن زوجتي شكّت في شيء ما فهي... إنها امرأة غيورة جداً، كانت دوماً كذلك.

ثم أضاف بجفاء: هذا كل ما هنالك، ثم غادرنا ديلماوث.

قالت غويندا: في السابع عشر من آب؟

- هل كان ذلك هو التاريخ؟ ربما، لا أستطيع أن أتذكر بدقة.

- كان يوم سبت.

- نعم، هذا صحيح. أذكر أن جانيت قالت: "ربما كان يوماً

مزدحماً لمن يريد السفر شمالاً"، لكن لا أظنه كان كذلك.

- أرجوك حاول أن تتذكر يا سيد إيرسكين. متى كانت آخر مرة رأيت فيها زوجة أبي؟

ابتسم ابتسامة لطيفة متعبة وقال: لا حاجة لأن أرهق نفسي بالمحاولة، فقد رأيتها على الشاطئ في الليلة التي سبقت سفرنا. كنت قد تمشيت هناك بعد العشاء وكانت هي هناك، ولم يكن بقربنا أحد. مشيت معها حتى بيتها وعبرنا الحديقة.

- في أية ساعة؟

- لا أدري، أحسبها التاسعة.

- وودعتها هناك؟

- آه، ليس الوداع الذي تفكرين فيه. كان وداعاً جافاً ومقتضباً، وقالت لي: "أرجوك اذهب الآن، اذهب بسرعة، فأنا لا أريد..." وتوقّفَتْ هناك، ثم... ثم ذهبت أنا.

- عدتَ إلى الفندق؟

- نعم، نعم في نهاية المطاف. لقد مشيت كثيراً في البداية، مشيت حتى الريف.

- إن تذكّر التواريخ صعب بعد كل هذه السنين، ولكن أظن بأن تلك الليلة هي الليلة التي رحلَت فيها... ولم تعد أبداً.

- آه، لقد فهمت. وبما أنني غادرتُ مع زوجتي في اليوم التالي فقد ثرثر الناس وقالوا إنها هربت معي. إن للناس عقولاً بديعة!

سألت غويندا بفظاظة: ألم ترحل معك حقاً؟

- يا إلهي! لم يحدث أي أمر من هذا القبيل أبداً.

- لماذا رحلت إذن؟

تجهم وجه إيرسكين، واختلف أسلوبه إذْ أصبح مهتماً وقال: هذه مشكلة، ألم تترك أيّ إيضاح؟

فكرت غويندا، ثم أعطت رأيها الخاص: لا أظن أنها تركت أية كلمة على الإطلاق. هل تعتقد أنها رحلت مع شخص آخر؟

- لا، لم تفعل ذلك بالطبع.

- تبدو كالواثق من ذلك.

- إنني واثق فعلاً.

- إذن لماذا رحلت؟

- إن كانت هربت فجأة بهذا الشكل فإنني لا أرى سوى سبب واحد ممكن، وهو أنها كانت تهرب مني.

- منك؟

- نعم. ربما كانت خائفة من أنني سأحاول رؤيتها ثانية... أن أضايقها. لا بد أنها أحست أنني كنت ما أزال مجنوناً بها. نعم، لا بد أن ذلك كان هو السبب.

- ولكن هذا لا يفسر سبب عدم عودتها. قل لي: هل قالت لك هيلين أي شيء عن والدي؟ هل كانت قلقة عليه أو... أو خائفة منه؟ أي شيء من هذا القبيل؟

- خائفة منه؟ لماذا؟ آه، فهمت؛ أنت تظنين أنه ربما كان غيوراً. هل كان حقاً رجلاً غيوراً؟

- لا أدري، لقد مات عندما كنت طفلة.

- آه، نعم. حسناً، بالعودة إلى الماضي أستطيع القول إنه كان يبدو طبيعياً ولطيفاً دوماً. كان مغرماً بهيلين وفخوراً بها، لا شيء أكثر من ذلك كما أعتقد. لا، لقد كنت أنا من يغار منه.

- هل كانا سعيدين في نظرك؟

- نعم، كانا سعيدين، وكنت سعيداً بذلك... ولكن في الوقت ذاته كان ذلك يؤلمني، أن أرى ذلك أمامي... لا، إن هيلين لم تكن تتحدث عن زوجها أبداً معي. كما قلتُ لك: لم يكد يُتاح لنا أن نكون بمفردنا ولم نتبادل أي أسرار، ولكن الآن -وقد ذكرتِ ذلك- فإنني أتذكر فعلاً بأن هيلين كانت قلقة.

- قلقة؟

- نعم، وقد ظننت بأن هذا ربما كان بسبب زوجتي... ولكن الأمر كان أبعد من ذلك.

نظر بحدّة إلى غويندا وقال: هل كانت خائفة من زوجها؟ هل كان غيوراً من الرجال الآخرين عليها؟

- يبدو أنك لا تظن ذلك.

- إن الغيرة أمر غريب جداً، فهي تخفي نفسها أحياناً بحيث لا

تشكّين في وجودها. ولكنها قد تكون مرعبة... مرعبة جداً.

- هناك أمر آخر أريد معرفته.

اقتربت سيارةٌ عبر الطريق فقال الرائد إيرسكين: آه، لقد عادت زوجتي من السوق.

وعلى الفور صار شخصاً مختلفاً، صارت نبرته سلسة ولكنها رسمية وأصبح وجهه خالياً من أي تعبير، وفضحته رجفة خفيفة أظهرت أنه عصبي.

أتت السيدة إيرسكين تمشي من وراء ركن المنزل فمضى زوجها نحوها وقال: لقد فقدت السيدة ريد أحد خواتمها في الحديقة أمس.

قالت السيدة إيرسكين بشكل فظ: حقاً؟

غويندا: صباح الخير. نعم، ولحسن الحظ أنني وجدته.

السيدة إيرسكين: هذا من حسن الحظ.

غويندا: آه، نعم. حسناً، عليّ أن أذهب.

لم تقل السيدة إيرسكين شيئاً، أما الرائد إيرسكين فقد قال: سأرافقك حتى سيارتك.

وشرع يتبع غويندا أمام المصطبة، ثم جاءه صوت زوجته بحدة: ريتشارد، إن كانت السيدة ريد تسمح لك هناك مكالمة لك.

قالت غويندا بسرعة: آه، لا بأس؛ أرجوك لا تزعج نفسك.

مشت بسرعة، واستدارت عند ركن المنزل إلى الطريق ثم توقفت، فقد أوقفت السيدة إيرسكين سيارتها بطريقة جعلت غويندا تشك في إمكانية إخراج سيارتها هي من أمام سيارة إيرسكين والخروج بها إلى الطريق. ترددت قليلاً ثم عادت أدراجها ببطء باتجاه المصطبة.

قريباً من النافذة وقفت مصعوقة جامدة، فقد وصل إلى أذنيها صوت السيدة إيرسكين عميقاً رنّاناً مميزاً: إنني لا آبه لما تقوله. أنت رتبت ذلك... رتبته بالأمس. أنت اتفقت مع تلك الفتاة لتأتي عندما أذهب إلى السوق. إنك تبقى كما أنت... أمام أية فتاة جميلة. لن أتحمل ذلك، إنني أخبرك... لن أتحمل ذلك!

ثم سمعت صوت إيرسكين هادئاً شبه يائس: أحياناً أظنك مجنونة حقاً يا جانيت.

- لست أنا المجنونة، بل أنت! فأنت لا تستطيع ترك النساء وشأنهن.

- إنك تعرفين أن هذا غير صحيح يا جانيت.

- بل صحيح! حتى في الماضي البعيد... في المكان الذي جاءت منه هذه الفتاة، في ديلماوث. هل تجرؤ على القول إنك لم تكن تحب زوجة هاليدي ذات الشعر الأصفر تلك؟

- ألا تنسين أبداً أي شيء؟ لماذا تستمرين في العزف على هذه الأوتار؟ إنك تضرين نفسك و...

- أنت السبب، إنك تكسر قلبي! أقول لك إنني لن أتحمل

ذلك، لن أتحمله! إنك لا تأبه بي... لم تأبه بي أبداً من قبل. سأقتل نفسي... أتمنى لو كنت ميتة!

- جانيت، جانيت، بالله عليك...

انكسر الصوت العميق وانتشر صوت النشيج المنفعل في هواء الصيف. انسلّت غويندا على رؤوس أصابعها مبتعدة إلى حيث السيارة مرة أخرى، وفكرت قليلاً ثم رنّت جرس الباب الأمامي لتخرج خادمة من المنزل. قالت غويندا: أتساءل إن كان عندكم مَن يستطيع تحريك هذه السيارة؛ لا أظن أنني أستطيع الخروج.

دخلت الخادمة إلى المنزل، وسرعان ما خرج رجلٌ رافعاً قبعته تحية لغويندا فركب سيارة الأوستن وساقها إلى الساحة، ثم ركبت غويندا سيارتها وقادتها بسرعة عائدة إلى الفندق حيث كان غايلز بانتظارها.

لدى دخولها بادرها قائلاً: لقد أمضيت وقتاً طويلاً، هل حصلت على أي شيء؟

- نعم، إنني أعرف كل شيء عن علاقتهما الآن، وهي محزنة نوعاً ما. لقد كان يحب هيلين بشكل رهيب.

ثم قصّت عليه أحداث الصباح وانتهت إلى القول: أعتقد فعلاً أن السيدة إيرسكين مجنونة بعض الشيء. لقد فهمت الآن ما الذي عناه بالغيرة، لا بد أن الإحساس بهذه المشاعر أمر رهيب. على أية حال نحن نعرف الآن أن إيرسكين لم يكن الرجل الذي رحل مع

هيلين وأنه لا يعرف شيئاً عن موتها؛ لقد كانت حية ترزق في تلك الليلة عندما تركها.

غايلز: نعم، على الأقل... هذا ما يقوله هو.

بدت غويندا ساخطة من قوله، ولكنه كرر بثبات: ذلك ما يقوله هو.

* * *

الفصل الثامن عشر

اللّبْلاب

انكبّت الآنسة ماربل على الأرض وانشغلت ببعض جذور اللبلاب القاسية. كان تقطيعها لتلك الجذور مجرد انتصار ثانوي، إذ أن اللبلاب يبقى مسيطراً تحت سطح التربة كعادته، ولكن نباتات الديلفينيوم ستعرف بعض الحرية المؤقتة على الأقل.

ظهرت السيدة كوكر في نافذة غرفة الاستقبال وقالت: اعذريني يا سيدتي، ولكن الدكتور كينيدي جاء زائراً وهو حريص على أن يعرف إلى متى سيغيب السيدة والسيدة ريد، وقد أخبرته أنني لا أستطيع أن أحدد وقتاً معيناً وأتحمل مسؤوليته وأنك ربما كنت تعرفين. فهل أدعوه للمجيء إلى هنا؟

قالت الآنسة ماربل: نعم، أرجوك أدخليه يا سيدة كوكر.

وسرعان ما عادت السيدة كوكر إلى الظهور مع الدكتور كينيدي.

قدمت الآنسة ماربل نفسها بشيء من الارتباك، ثم مضت

تقول: وقد اتفقت مع العزيزة غويندا بأن أمرّ للقيام ببعض التعشيب في أثناء غيابها. أظن أن صديقيّ الشابين يجري استغلالهما من قِبَل البستاني الذي يعمل لديهما، فوستر؛ فهو يأتي مرتين في الأسبوع فيشرب الكثير من أكواب الشاي وينشغل بالكثير من الأحاديث والثرثرة، لا بكثير من العمل كما أرى.

قال الدكتور كينيدي وهو شارد الذهن: نعم، كلهم على نفس الشكل، كلهم سواء.

نظرت إليه الآنسة ماربل نظرة تقويم. كان رجلاً أكبر سناً مما تخيلته من وصف غويندا وغايلز له، وخمّنت أنه قد كبر قبل أوانه، وبدا قلقاً وتعيساً أيضاً. وقف هناك وأصابعه تربت على الخط الطويل المشاكس لفكّه وقال: لقد سافرا... هل تدرين كم سيبقيان؟

- لن يمكثا طويلاً كما أظن، لقد ذهبا لزيارة بعض الأصدقاء في شمال إنكلترا. يبدو لي أن الشبان قلقون في هذه الأيام، فهم ينتقلون دائماً هنا وهناك.

- نعم، هذا صحيح تماماً.

صمت قليلاً ثم قال بشيء من التردد: لقد كتب لي الشاب غايلز ريد طالباً مني بعض الأوراق... رسائل سألني إن كنت أستطيع العثور عليها.

وتوقف متردداً، فقالت الآنسة ماربل بهدوء: رسائل أختك؟

رماها بنظرة سريعة وقال: إذن فأنت موضع ثقتهما أيضاً، أليس كذلك؟ هل أنت من أقاربهما؟

- بل صديقة فقط. لقد نصحتهما بقدر ما أستطيع، ولكن الناس نادراً ما يتقبلون النصح... ربما كان ذلك مؤسفاً ولكنه الواقع.

سألها بفضول: وماذا كانت نصيحتك؟

أجابته بثبات وثقة: أن يتركا الجريمة النائمة راقدة.

جلس الدكتور كينيدي بتثاقل على مقعد خشبي غير مريح وقال: إنه تعبير جميل. أنا أحب غويني كثيراً، فقد كانت طفلة صغيرة لطيفة ثم كبرت لتصبح شابة رائعة، ولكنني أخشى أنها تتقدم باتجاه المتاعب.

- هناك أنواع عديدة من المتاعب.

- ماذا؟ نعم، هذا صحيح.

وتنهد ثم قال: لقد كتب لي غايلز ريد وتساءل إن كنت أستطيع إعطاءه رسائل أختي التي كتبَتْها بعد مغادرتها وبعض النماذج الموثوقة من خطها. هل ترين ماذا يعني هذا؟

هزت الآنسة ماربل رأسها وقالت: نعم، أظن ذلك.

- إنهما يعودان إلى تلك الفكرة القائلة بأن كيلفين هاليدي عندما قال إنه خنق زوجته إنما كان يقول الحقيقة دون زيادة أو نقصان، إنهما يعتقدان أن الرسائل التي كتبتها أختي هيلين بعد رحيلها لم تكن هي التي كتبتها أبداً... أنها كانت مزورة. لعلهما يظنان أنها لم تغادر هذا البيت على قيد الحياة.

قالت الآنسة ماربل بلطف: وأنت غير متأكد من ذلك حتى الآن؟

كان الدكتور ما يزال يحدق نحو الأمام وهو يقول: كنت متأكداً آنذاك. بدا الأمر واضحاً كل الوضوح... هلوسة واضحة من جانب كيلفين. لم تكن هناك جثة وقد أُخذت حقيبةٌ وملابس... بماذا عساني أفكر غير ذلك؟

- وأختك كانت قبل ذلك... إحمم، كانت مهتمة برجل ما. أليس كذلك؟

نظر إليها الدكتور كينيدي وفي عينيه ألم عميق ثم قال: لقد أحببت أختي، ولكن عليّ أن أعترف بأنه مع هيلين كان هناك دوماً رجلٌ ما على مقربة.

- لقد بدا لك كل شيء واضحاً في ذلك الوقت ولكنه لا يبدو بمثل هذا الوضوح الآن، لماذا؟

قال كينيدي بصراحة: لأنه يبدو لي من غير المعقول إن كانت هيلين على قيد الحياة أن لا تتصل بي كل هذه السنين، وإن كانت ميتة فإنه أمر لا يقل غرابة أن لا يتم إبلاغي بالأمر. حسناً...

نهض وأخرج رزمة من جيبه وقال: ها هو أفضل ما أستطيع فعله. لا بد أنني قد مزقت الرسالة الأولى التي تلقيتها من هيلين، فلم أستطع العثور على أثر لها. ولكنني احتفظت بالثانية، تلك التي أعطت فيها عنواناً في مكتب بريد. وهذا لأغراض المقارنة النموذج الوحيد من خط هيلين الذي استطعت العثور عليه. إنها قائمة بالأبصال

وغيرها لأغراض الزراعة، نسخة كانت قد احتفظت بها لغاية ما، ويبدو الخط في القائمة وفي الرسالة متشابهَين بالنسبة لي، ولكن أنا لست خبيراً على أية حال. سأتركهما هنا لغايلز وغويندا عندما يعودان، وربما لا تستحق الوثيقتان أن أعود لتسلّمهما لاحقاً.

- أظن أنهما يتوقعان العودة غداً أو بعد غد.

هزّ الدكتور رأسه ووقف هناك ينظر عبر النافذة وعيناه ما تزالان غائبتين، ثم قال فجأة: هل تدرين ما الذي يقلقني؟ إن كان كيلفين هاليدي قتل زوجته بالفعل فلا بد أنه أخفى الجثة أو تخلص منها بطريقة ما، وهذا يعني (ولا أدري ما الذي يعنيه غير ذلك) أن قصته التي رواها لي كانت حكاية تم حبكها بذكاء وأنه قد ملأ حقيبة بالملابس ثم أخفاها ليضيف مصداقية إلى فكرة أن هيلين قد رحلت، وأنه رتب حتى مسألة وصول رسائل من الخارج... وهذا -في الحقيقة- يعني أن الأمر كان جريمة قتل عن سابق تصميم وبأعصاب باردة. لقد كانت غويني الصغيرة طفلة جميلة وسيكون سيئاً بالنسبة لها أن يكون لها أب موسوس إلى حد الجنون، ولكن الأسوأ من ذلك بعشرة أضعاف أن يكون لها أب قاتل.

استدار بهدف المغادرة، ولكن الآنسة ماربل استوقفته بسؤال سريع: مَن الذي كانت تخافه أختك يا دكتور كينيدي؟

- تخافه؟ لا أحد بحدود علمي.

- كان مجرد تساؤل... أرجوك أن تعذرني إن كنت أسأل أسئلة وقحة ولكن كان هناك شاب، أليس كذلك؟ أعني كانت في مقتبل شبابها. شاب أظن أن اسمه أفليك.

- آه، ذلك الفتى! إنها من العلاقات السخيفة التي تمرّ بها معظم الفتيات، شاب مقيت مخادع ولم يكن من طبقتها بالطبع، لم يكن من طبقتها أبداً، وقد تورط في مشكلات هنا فيما بعد.

- تساءلتُ فقط إن كان يُحتمَل أن يكون ميالاً للثأر.

ابتسم الدكتور كينيدي بشيء من الارتياب وقال: آه، لا أعتقد أن الأمر وصل إلى هذا الحد. وعلى أية حال فقد تورط -كما أشرتُ- في متاعب هنا وغادر المنطقة غير مأسوف عليه.

- أي نوع من المتاعب؟

- لم يكن شيئاً جنائياً أو إجرامياً بل مجرد حماقات، لقد أفشى بعضاً من أسرار مُستَخدِميه.

- ومستخدمه كان السيد وولتر فين؟

بدا الدكتور كينيدي دَهِشاً قليلاً وقال: نعم، لقد تذكرت الآن بعد أن قلتِ ذلك. لقد عمل بالفعل في مكتب فين، ولم يكن يعمل بعقد بل كان مجرد موظف عادي.

مجرد موظف عادي؟ تردد هذا السؤال في ذهن الآنسة ماربل وهي تنكبّ على نباتات اللبلاب من جديد بعد ذهاب الدكتور كينيدي.

* * *

الفصل التاسع عشر
السيد كيمبل يتحدث

قالت السيدة كيمبل: أنا واثقة من أنني لا أعرف.

خرج زوجها عن صمته مدفوعاً إلى ذلك بالغضب وحده، لا أكثر ولا أقل. دفع فنجانه إلى الأمام وقال: ما الذي تفكرين فيه يا ليلي؟ ولماذا لم تضعي سكّراً؟

سارعت السيدة كيمبل بمعالجة غضبه ثم مضت لتوضّح موضوعها الخاص: إنني أفكر بهذا الإعلان، إنه يقول: «ليلي آبوت» بكل وضوح، ثم يحدد الخادمة السابقة في منزل «سينت كاثرين» في ديلماوث. هذه أنا بكل وضوح.

وافقها السيد كيمبل بحرفه اليتيم: ها.

- بعد كل هذه السنين؟ لا بد أن تتفق معي على أن هذا غريب يا جيم.

- ها.

- حسناً، ما الذي سأفعله يا جيم؟

- دعي الأمر وشأنه.

- وماذا لو كان في الموضوع مال؟

صدر صوت قرقرة عندما أفرغ السيد كيمبل فنجان الشاي في جوفه ليقوّي نفسه على الجهد العقلي الذي ينطوي عليه الخوض في خطبة طويلة. دفع فنجانه إلى الأمام وقدّمَ لملاحظاته بعبارة: "صبّي المزيد" المقتضبَة، ثم انطلق قائلاً: لقد تكلمتِ كثيراً ذات يوم عمّا حدث في «سينت كاثرين»، ولم أُلقِ بالاً لذلك الموضوع لأنني اعتبرته كله حماقة وثرثرة نساء. حسناً، ربما لم يكن الأمر كذلك، ربما حدث شيء فعلاً. فإن كان الأمر كذلك فإنها مسألة خاصة بالشرطة وأنت لا تريدين التورط في ذلك. لقد مضى الأمر كله وانقضى، أليس كذلك؟ فاتركي الأمور على ما هي عليه يا عزيزتي.

- جيد أن تقول ذلك، ولكن ربما كان هناك مال؛ كأن يكون قد تُرِكَ لي ضمن وصية. ربما كانت السيدة هاليدي على قيد الحياة كل هذا الوقت وماتت الآن وتركت لي شيئاً في وصيتها.

- تركت لك شيئاً في وصيتها؟ لماذا؟ ها!

قال ذلك مختتماً جملته بالعودة إلى مقطعه المفضل.

- حتى لو كانت الشرطة... أنت تعرف يا جيم أن هناك جائزة كبرى أحياناً لمن يستطيع إعطاء معلومات تؤدي إلى الإمساك بقاتل.

- وما الذي يمكنك أن تعطيه؟ كل ما تعرفينه قُمتِ بتركيبه بنفسك في رأسك!

- هذا ما تقوله أنت، ولكنني كنت أفكر..

قاطعها زوجها باشمئزاز بمقطعه المفضل: ها.

- حسناً، كنت أفكر بالفعل منذ أن رأيت تلك الفقرة الأولى في الجريدة. ربما أكون قد فهمت الأمور بشكل خاطئ قليلاً. تلك اللعينة ليوني كانت غبية بعض الشيء ككل الأجانب ولا تستطيع أن تفهم ما يُقال لها بشكل صحيح، وكانت لغتها الإنكليزية فظيعة. إن كانت لا تعني ما حسبتُ أنها كانت تعنيه... ماذا كان اسم ذلك الرجل؟

دفع السيد كيمبل كرسيه إلى الخلف مُصدِراً صوت صرير ونهض واقفاً بشيء من البطء والثقل، وتمهيداً لمغادرة المطبخ قام بتوجيه إنذار، إنذار رجل يمتلك بعض الدهاء رغم أنه ليس متكلماً عادة: اتركي الأمر كله وشأنه يا فتاتي، وإلاّ فربما ندمت.

جلست ليلي على الطاولة بعدما خرج زوجها ودماغها الأبله الصغير يحاول العثور على حل. إنها لا تستطيع أن تتصرف بعكس ما قاله زوجها تحديداً بالطبع، ولكن مع ذلك... كان جيم متزمتاً جداً ومحافظاً جداً، وتمنّت لو كان هناك أحد آخر تسأله، شخص يعرف كل شيء عن الجوائز والشرطة ومعنى كل ذلك. من المؤسف إضاعة فرصة فيها مال كثير. سوف تكون قادرة على شراء جهاز الراديو ذاك، وجهاز تصفيف الشعر، وذلك المعطف الجميل... بل ربما طقم أرائك لغرفة الجلوس...

مضَت تلك المتلهفة الجشعة قصيرة النظر في أحلامها!

ما الذي قالته ليوني بالضبط قبل كل تلك السنين؟

ثم جاءتها فكرة. نهضت وأحضرت المحبرة والقلم ومجموعة أوراق وقالت لنفسها: أعرف ما الذي سأفعله. سأكتب للطبيب أخي السيدة هاليدي وسوف يخبرني هو بما ينبغي عليّ فعله، هذا إذا كان ما يزال على قيد الحياة، فأنا -على كل حال- أشعر بالذنب لأنني لم أخبره عن ليوني... أو عن تلك السيارة.

ساد الصمت لبعض الوقت، لم يُسمَع سوى صوت الخربشة المجهدة لقلم ليلي. كان من النادر جداً أن تكتب رسالة، لذلك وجدت في صياغتها عناء كبيراً. ولكنها كُتبت أخيراً فوضعتها في ظرف وختمتها.

رغم ذلك أحست بأنها أقل اقتناعاً ورضا مما توقعت. أغلب الظن أن الطبيب قد مات أو أنه رحل عن ديلماوث. هل كان هناك أحد آخر؟

ماذا كان اسم ذلك الرجل؟ ليتها تستطيع أن تتذكر!

* * *

الفصل العشرون

الفتاة هيلين

كان غايلز وغويندا قد أنهيا لتوّهما إفطارهما في الصباح الذي أعقب عودتهما من نورثمبرلاند عندما أُبلغا بحضور الآنسة ماربل. دخلت معتذرة وقالت: أخشى أن تكون هذه الزيارة مبكرة جداً. وهو شيء لم أتعود فعله ولكن هناك شيئاً وددت إيضاحه.

قدّم لها غايلز كرسياً وهو يقول: نحن سعيدان برؤيتك، فلتأخذي فنجاناً من القهوة.

- آه، لا، شكراً؛ لا أريد شرب شيء فقد أفطرت بأفضل ما يكون. والآن دعني أشرح: لقد جئت هنا عندما كنتما مسافرَين لأعتني بالزرع كما تفضّلتما وسمحتما لي...

غويندا: هذا منتهى اللطف منك!

- وقد أدركت بأن عمل يومين في الأسبوع ليس كافياً لهذه الحديقة، وفي كل الأحوال أعتقد أن فوستر البستاني يستغلكما: كثير من الشاي وكثير من الكلام. لقد وجدت أنه لا يستطيع تدبّر

أمر يوم آخر بنفسه ولذلك تجرأت واستأجرت رجلاً آخر ليوم واحد فقط في الأسبوع... في أيام الأربعاء، أي اليوم في الواقع.

نظر غايلز إليها باستغراب وقد دُهِش قليلاً. ربما كان تصرفها مدفوعاً بنية سليمة لطيفة ولكنْ كان فيه شيء من التدخل، ولم يكن التدخل من شِيَم الآنسة ماربل. قال لها ببطء: لقد صار فوستر أكبر من أن يمارس عملاً شاقاً، أعرف ذلك.

قالت الآنسة ماربل: أخشى أن مانِنْغ أكبر منه يا سيد ريد، فهو في الخامسة والسبعين كما قال لي. ولكنني فكرت بأن استخدامه لبضعة أيام فقط قد يكون إجراء مفيداً تماماً؛ فقد عمل قبل سنوات طويلة في حديقة الدكتور كينيدي. وبالمناسبة فإن اسم الشاب الذي خُطبت له هيلين كان أفليك.

هتف غايلز: آنسة ماربل، لقد استغبتك في عقلي قبل قليل، لكنك عبقرية! حسناً، وهل تعرفين أيضاً أننا قد حصلت على تلك العينة من خط هيلين من الدكتور كينيدي؟

- نعم، أعرف؛ فقد كنت هنا عندما أحضرها.

قال غايلز: بالطبع؛ فأنت تعرفين كل شيء! سوف أرسلها بالبريد اليوم، فقد حصلت على عنوان خبير جيد بالخطوط في الأسبوع الماضي.

قالت غويندا: دعونا نخرج إلى الحديقة ونرىماننغ.

كان ماننغ عجوزاً أحدب ذا عينين دامعتين وماكرتين قليلاً، وقد تزايدت السرعة التي كان يمهّد بها أحد الممرات مع اقتراب

مستخدِميه. قال: صباح الخير يا سيدي، صباح الخير يا سيدتي. لقد قالت السيدة إنكما بحاجة إلى مساعدة إضافية في أيام الأربعاء. سيسرّني القيام بذلك، يبدو المكان مهمَلاً جداً هنا.

غايلز: أظن أن هذه الحديقة قد تُركت منذ سنوات لتسوء حالتها بعد ازدهار.

- نعم، هذا صحيح. أذكرها كيف كانت أيام السيدة فينديسون. كانت لوحة رائعة وقتها، فقد كانت السيدة فينديسون مغرمة جداً بحديقتها.

قطعت غويندا بعض الورود وتراجعت الآنسة ماربل قليلاً إلى خلفية المشهد لتنكبّ على اللبلاب، واستند مانّغ العجوز على مجرفته، وبدا أن الجو كله قد أصبح مهيئاً لنقاش صباحي متمهل حول الأيام الخوالي والبستنة في تلك الأيام القديمة الرائعة.

قال غايلز مشجّعاً بدءَ النقاش: أحسب أنك تعرف أغلب الحدائق في هذه المنطقة.

- نعم، أعرف هذه المنطقة جيداً وأعرف نزوات الناس هنا. فالسيدة يول (هناك في شارع نياغرا) لديها سياج من شجيرات الطّقسوس اعتادت أن تجزّه ليصبح كذيل السنجاب، وقد رأيت ذلك سخيفاً لأن أذيال السناجب ليست في جمال ريش الطواويس! وهناك الكولونيل لامبارد الذي كان مغرماً بشتلات البيغونيا وكانت لديه مساكب رائعة منها. لقد ولّت الآن، أعني انتهت موضتها. لا أودّ أن أخبركم كم من مرة اضطررت خلال السنوات الست الماضية

إلى ردم مساكب في الحدائق الأمامية وإعادة كسوها بالعشب. يبدو أن الناس لم يعودوا يقدّرون وجود شتلات من نوع إبرة الراعي واللوبيليا على الأسيجة.

غايلز: هل عملت في حديقة الدكتور كينيدي؟

- آه، كان هذا منذ زمن بعيد. لقد انتقل الآن... ترك العمل. الطبيب الشاب برنت هو الذي يعمل الآن في مستوصف كروسبي لودج، لكنه يستعمل أساليب مضحكة... أقراص صغيرة بيضاء يسميها «فيتابينات» كما أظن.

- أظن أنك تتذكر الآنسة هيلين كينيدي، أخت الطبيب.

- أتذكّر الآنسة هيلين تماماً. كانت فتاة جميلة بشعرها الأشقر الطويل، وكان الطبيب يحبها ويرعاها كثيراً. وقد عادت وعاشت في هذا المنزل ذاته بعد أن تزوجت، تزوجت رجلاً في الجيش من الهند.

غويندا: نعم، نحن نعرف ذلك.

- آه، لقد سمعت أنكما تمتّان أنت وزوجك بالقرابة إليها. كانت جميلة كاللوحة، وكانت مولعة بالمرح وتريد الذهاب إلى كل مكان، إلى الرقص وإلى التنس وكل ذلك... وقد اضطررت أنا إلى تحديد ملعب التنس وتنظيفه إذْ لم يكن قد استُعمل لما يقرب من عشرين سنة كما أظن، وكانت النباتات والشّجيرات تنمو فيه وتفسده فقطعتها، كما أحضرت دهاناً أبيض ودهنت خطوط الملعب. لقد

أنفقت في ذلك الكثير من العمل، وفي النهاية قلّما كان يلعب أحدٌ فيه. لقد فكرت دوماً بأن ذلك كان أمراً غريباً.

غايلز: ما الذي كان غريباً؟

- أمر ملعب التنس ذاك... شخص مجهول جاء في إحدى الليالي ومزّق الشبكة إلى خِرَق، أصبحت خِرَقاً تماماً. أظن ذلك من باب النكاية، تلك كانت حقيقة الأمر... مسألة نكاية قذرة.

- ولكن مَن عساه يفعل شيئاً كهذا؟

- هذا ما أراد الدكتور كينيدي معرفته. لقد انزعج من هذا الأمر تماماً، وأنا لا ألومه لأنه كان قد دفع لصيانة الملعب لتوّه. ولكن لم يستطع أحدٌ منا أن يعرف هوية الفاعل... لم نعرف أبداً. وقال إنه لن يضع شبكة أخرى، وكان محقّاً في ذلك أيضاً لأن نكاية أولى ستعني نكاية ثانية وثالثة. إلا أن الآنسة هيلين انزعجت كثيراً. لم يكن للآنسة هيلين أي حظ أبداً، في البداية تلك الشبكة وبعدها جاء جرح قدمها.

غويندا: جرح قدمها؟

- نعم، وقعت على كاشطة الأحذية التي توضع عند الأبواب لتنظيف الأحذية فجُرحت قدمها، ويبدو أن الجرح لم يكن أكثر من كشطة جلد ولكنها لم تكن لتشفى. كان أخوها قلقاً تماماً من وضعها وكان يضمّد الجرح ويعالجه، ولكن قدمها لم تتحسن. أتذكّر قوله: "لا أستطيع فهم الأمر! لا بد أنه كان هناك جراثين (أو كلمة من هذا القبيل)... ولكن ما الذي جاء بالكاشطة إلى وسط ممر الحديقة؟".

سأل الطبيب ذلك السؤال لأن الكاشطة كانت هناك عندما وقعت الآنسة هيلين عليها وهي عائدة إلى البيت في ليلة مظلمة. وبقيت الفتاة المسكينة قابعة في المنزل ورجلها مربوطة مما ضيّع عليها الذهاب إلى الحفلات... يبدو أنه لم يصادفها دوماً إلاّ سوء الحظ.

فكر غايلز بأن اللحظة قد أَزِفَت، فسأل عَرَضاً: هل تتذكر أحداً يدعى أفليك؟

- هل تقصد جاكي أفليك؟ ذلك الذي كان في مكتب فين؟

- نعم، ألم يكن صديقاً للآنسة هيلين؟

- لقد وضع الدكتور كينيدي حداً له، وخيراً فعل؛ إذ لم يكن جاكي أفليك شخصاً يُعتَدّ به. كان من النوع الحاد جداً، والحدة عند هذا النوع من الناس لا تؤدّي في النهاية إلى خير. ولكنه لم يبقَ هنا طويلاً، فقد ورّط نفسه في متاعب ثم غادر. لا ردّه الله، فنحن لا نريد أمثاله في ديلماوث، ليذهب ويمارس ألاعيبه في مكان آخر!

غويندا: هل كان هنا عندما تم تمزيق شبكة التنس تلك وتقطيعها؟

- أفهم بماذا تفكّرين، ولكنه لم يكن ليفعل شيئاً لا معنى له كهذا. كان ذكياً، نعم، كان أفليك ذكياً. كائناً مَن كان الفاعل فإن دافعه هو مجرد النكاية.

غويندا: وهل كان هناك أحدٌ يعادي الآنسة هيلين؟ مَن عساه يريد النكاية بها؟

ضحك مانغ العجوز بلطف وقال: بعض الفتيات الشابات

ربما شعرن بالحقد أو الغيظ منها، فمعظمهن لم يكن أحدٌ لينظر إليهن أبداً بوجود هيلين. نعم، أعتقد أن ذلك العمل لم يكن الدافع إليه إلاّ النكاية... مجرد شخص حاقد.

غويندا: هل انزعجت هيلين كثيراً بسبب رحيل جاكي أفليك؟

قال ماننغ: لا أظن أن الآنسة هيلين كانت تهتم بأي شاب في الحقيقة. كل ما أرادته هو التسلية، ولكن بعضهم كان متعلقاً بها كثيراً... الشاب وولتر فين مثلاً، لقد اعتاد أن يتبعها كالكلب الوفي.

غويندا: وهي لم تهتم به مطلقاً؟

- لم تكن الآنسة هيلين ممّن يهتمون. كانت تكتفي بالضحك، هذا هو كل ما تفعله. لقد ذهب فين إلى بلدان أجنبية ولكنه عاد لاحقاً، وهو الآن أكبر واحد في الشركة. لكنه لم يتزوج، وأنا لا ألومه فالنساء يسبّبنَ كثيراً من المتاعب في حياة الرجل.

- وهل أنت متزوج؟

- لقد دفنتُ اثنتين. آه، إنني لا أتذمر، فأنا أستطيع أن أدخّن غليوني الآن بسلام في أي وقت أريد.

ساد الصمت بعد ذلك، فأخذ ماننغ مجرفته وعاد إلى العمل، وعاد غايلز وغويندا باتجاه المنزل، وأوقفت الآنسة ماربل هجومها على اللبلاب وانضمت إليهما.

سألتها غويندا: إنك لا تبدين بخير يا آنسة ماربل، هل هناك شيء؟

- لا شيء يا عزيزتي.

ثم صمتت السيدة العجوز لحظة قبل أن تقول بشيء من الإصرار الغريب: هل تعلمان؟ أنا لم أحبّ تلك القصة عن شبكة التنس وتقطيعها، فحتى في ذلك الحين...

ثم توقفت فنظر إليها غايلز بفضول وقال: لا أفهم ما تعنينه تماماً.

- ألا تفهم؟ يبدو الأمر واضحاً إلى حدٍّ مخيف بالنسبة لي. ولكن ربما كان من الأفضل لك أن لا تفهم، وربما كنت أنا مخطئة على أية حال. والآن أخبراني كيف سارت الأمور معكما في نورثمبرلاند.

روى الاثنان لها نبذة عما قاما به من أنشطة، وأصغت الآنسة ماربل إلى كلامهما بكل انتباه.

قالت غويندا: إن الأمر محزن حقاً، بل إنه مأساوي تماماً في الواقع.

- نعم، بالفعل. يا للبؤس!

- هذا ما شعرت به. لكم تبدو معاناة هذا الرجل عميقة!

- الرجل؟ آه، نعم، طبعاً.

- ولكن... هل استغربتِ كلامي عن معاناة الرجل.

- في الواقع نعم، فقد كنت أفكر فيها؛ في الزوجة. ربما كانت تحبه أشد الحب، وربما تزوجها هو لأنها كانت مناسبة أو

لأنه كان يشفق عليها، أو بسبب واحد من تلك الأسباب اللطيفة تماماً والمعقولة التي غالباً ما يملكها الرجال والتي تكون من الناحية العملية ظالمة بشكل مخيف.

قاطعها غايلز مستشهداً ببيت من الشعر: «إني لأعرف مئة طريقة للحب، وكل منها يجعل المحبوب يندم»!

التفتت الآنسة ماربل نحوه وقالت: نعم، هذا صحيح تماماً. إن الغيرة ليست مسألة أسباب في العادة، بل إنها بالأحرى... كيف أعبّر عن ذلك؟ إنها أكثرُ جوهريةً من ذلك؛ إنها تعتمد على معرفة المرء بأن حبه غير متبادَل. وهكذا يستمر المرء في الانتظار والترقب والتوقع منتظِراً أن يتحول المحبوب إلى شخص آخر! ولذلك فقد جعلت السيدة إيرسكين هذه من حياة زوجها جحيماً، وهو أيضاً جعل من حياتها جحيماً دون أن يستطيع لذلك مردّاً. أعتقد أنها هي التي عانت أكثر، ومع ذلك يمكنني القول إنه مغرم بها بالفعل.

صرخت غويندا: لا يمكن أن يكون كذلك.

- آه يا عزيزتي! أنت ما زلت صغيرة جداً. إنه لم يترك زوجته قط وهذا له مغزى كما تعلمين.

- بسبب الأطفال... لأن ذلك كان واجبه.

- الأطفال؟ ربما. ولكن عليّ أن أعترف بأن الرجال (كما أراهم) لا يكنّون احتراماً كبيراً للواجب عندما يتعلق الأمر بزوجاتهم، أما في الحياة الحقيقية والخدمة العامة فتلك مسألة أخرى.

ضحك غايلز وقال: يا لك من رائعة في سخريتك المتشائمة يا آنسة ماربل!

الآنسة ماربل: آه يا عزيزي السيد ريد! إنني آمُل فعلاً أن لا تكون الأمور هكذا، فالمرء يحتفظ دوماً بالأمل في الطبيعة البشرية.

قالت غويندا وهي تفكر بعمق: ما زلت أشعر بأن وولتر فين لا يمكن أن يكون الفاعل، كما أنني واثقة من أنه لم يكن الرائد إيرسكين أيضاً، بل إنني في الواقع أعرف أنه لم يكن الفاعل.

الآنسة ماربل: إن مشاعر المرء ليست مرشداً موثوقاً دائماً؛ فإن أبعد الناس احتمالاً يقومون بأشياء. لقد حدثت حادثة مثيرة تماماً في قريتي الصغيرة نفسها، وذلك عندما اكتُشف أن أمين الصندوق في «نادي عيد الميلاد» قد وضع كل قرش من أموال النادي في رهان على حصان. كان هو نفسه معارضاً لسباقات الخيل، بل ولأيّ نوع من المراهنات أو القمار، لكن والده كان أحد وكلاء سباق الخيل. وتصادف في أحد الأيام أنه كان يقود سيارته قرب نيوماركيت وشاهد بعض الخيول تتدرب، وهناك غُلِبَ على أمره فجأة... إن الدم يحنّ.

قال غايلز بجدية: إن ماضي كلا الرجلين (وولتر فين وريتشارد إيرسكين) يبدو فوق الشبهات، ولكن ليس غريباً أن القتل بدأ يصبح نوعاً من جرائم الهواة!

قالت الآنسة ماربل: الشيء المهم هو أنهما كانا هناك؛ في

نفس مكان الحدث. لقد كان وولتر فين هنا في ديلماوث، ولا بد أن إيرسكين كان -بناء على قوله هو نفسه- مع هيلين قبل موتها بوقت قصير جداً، وهو لم يرجع إلى فندقه إلاّ بعد مضي بعض الوقت في تلك الليلة.

غويندا: ولكنه كان صريحاً تماماً في ذلك. إنه...

ثم توقفت غويندا فجأة حين رأت أن الآنسة ماربل تنظر إليها بإمعان كبير. قالت الآنسة ماربل: أريد فقط أن أؤكد على أهمية الوجود في مكان الحدث.

ثم نظرت إليهما وأضافت: أظن أنكما لن تجدا صعوبة في العثور على عنوان جاكي أفليك، فهو لا بد أن يكون صاحب عنوان سهل تماماً.

هز غايلز رأسه وقال: سأحصل عليه، ربما يكون دليل الهاتف. هل تظنين أن علينا أن نذهب ونراه؟

انتظرت الآنسة ماربل للحظات ثم قالت: إنْ ذهبتما فينبغي أن تكونا حذرَين جداً. تذكّرا ما قاله ذلك البستاني العجوز قبل قليل: "إن جاكي أفليك ذكي"، لذلك أرجوكما كونا حذرَين.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

جاكي أفليك

-١-

كان هناك رقمان مدرجان في دليل الهاتف، عنوان المكتب في إيكزيتر وعنوان خاص في ضواحي تلك البلدة، وتم تحديد موعد في اليوم التالي.

وبينما كان غايلز وغويندا يغادران إلى موعدهما في السيارة هُرعت السيدة كوكر خارج المنزل ولوّحت لهما، فأوقف غايلز السيارة. قالت: إنه الدكتور كينيدي على الهاتف يا سيدي.

ركض غايلز عائداً إلى المنزل ورفع سماعة الهاتف قائلاً: غايلز ريد يتكلم.

- صباح الخير. لقد استلمت لتوي رسالة غريبة بعض الشيء من امرأة اسمها ليلي كيمبل. لقد كنت أعصر دماغي لأتذكر مَن تكون، وقد فكرت في مريضة في البداية لكنني تذكرت الآن أنها فتاة كانت تعمل في منزلكم ذات يوم. أنا واثق تقريباً أن اسمها كان ليلي، مع أنني لا أتذكر اسم عائلتها.

- غويندا تتذكرها؛ فهي التي ألبست القط رباط العنق.

- لا بد أن لغويني ذاكرة رائعة!

- آه، إن لها ذلك بالفعل.

- حسناً، أود أن نتحاور قليلاً بشأن هذه الرسالة ولكن ليس بالهاتف. هل تكون موجوداً إذا مررت عليك؟

- كنا على وشك الذهاب إلى إيكزيتر، لكن بوسعنا أن نمر بك إن كنت تفضل ذلك فبيتك في طريقنا.

- جيد، هذا سيفي بالغرض تماماً.

عندما وصلا إلى منزل الدكتور كينيدي شرح موقفه قائلاً: لا أحب أن أتحدث كثيراً بشأن هذا الأمر في الهاتف، فلديّ فكرة دائمة بأن موظفات البدالات يستَرِقنَ السمع. ها هي رسالة المرأة.

ثم وضع الرسالة على الطاولة. كانت مكتوبة على ورق مخطط رخيص بخط ينقصه التعليم.

سيدي العزيز،

سأكون ممتنة إن استطعت نصحي حول هذا المرفَق الذي قطعته من الجريدة. كنت أفكر في الموضوع وقد تحدثت فيه مع السيد كيمبل، زوجي، لكنني لا أعرف ما هو أفضل تصرّف إزاء الموضوع. هل تعتقد أنه يعني مالاً أو جائزة؟ سأكون سعيدة بالمال بالتأكيد، ولكني لا أريد الشرطة أو ما يشابهها. لقد كنت أفكر دوماً بتلك الليلة التي رحلَت فيها السيدة هاليدي، وأنا لا أعتقد

-يا سيدي- بأنها قد رحلت قط لأن الملابس كانت الملابس الخطأ. اعتقدت في البداية أن السيد هو الذي فعلها، ولكنني الآن لست واثقة كثيراً من ذلك بسبب السيارة التي رأيتها من النافذة. كانت سيارة فخمة وقد رأيتها من قبل، ولكني لا أحب أن أقوم بشيء دون أن أسألك قبلها إن كان الأمر كما يرام. هل للشرطة شأن بالموضوع؟ أنا لم يسبق لي أن تورطت مع الشرطة، كما أن السيد كيمبل لن يعجبه ذلك. يمكنني أن آتي لرؤيتك إذا سمحت يوم الخميس القادم باعتباره يوم التسوُّق، وسيكون السيد كيمبل خارج البيت. سوف أكون ممتنة جداً إن كان هذا ممكناً.

مع كل احترامي: ليلي كيمبل

قال الدكتور كينيدي: لقد أُرسلَت إلى بيتي القديم في ديلماوث ثم أُعيدَ إرسالها إليّ هنا، والورقة المقطوعة هي إعلانكما.

غويندا: أمر رائع، فليلي هذه... نعم، إنها لا ترى أن أبي هو الذي فعل ذلك!

كانت تتكلم بفرح غامر، فنظر إليها الدكتور كينيدي بعينين متعقبتين لطيفتين وقال: هذا جيد بالنسبة لك يا غويني، آمل أن تكوني على حق. والآن إليكما ما أعتقد أن علينا أن نفعله: سوف أجيب على رسالتها وأخبرها بأن تأتي إلى هنا يوم الخميس. إن جداول القطارات مناسبة تماماً، فعن طريق تغيير قطارها في تقاطع ديلماوث بوسعها الوصول إلينا هنا بعد الرابعة والنصف بقليل. فإذا جئتما أنتما عصر ذلك اليوم أمكننا أن نقابلها معاً.

قال غايلز وهو ينظر إلى ساعته: رائع. هيا يا غويندا، علينا أن نسرع فلدينا موعد.

ثم أوضح قائلاً: مع السيد أفليك، وهو رجل مشغول دوماً كما قال لنا.

كينيدي: أفليك؟

قطب الطبيب جبينه ثم استدرك قائلاً: آه، طبعاً! «ديفون للسياحة»، الشركة التي تملك تلك الزوارق الضخمة الصفراء كلون الزبدة. ولكن الاسم يبدو مألوفاً لأسباب أخرى، ربما...

غويندا: نعم، بسبب هيلين.

- آه، يا إلهي! لا تقولي إنه ذلك الرجل.

- نعم، إنه هو.

- ولكنه كان مجرد مشرد بائس، فهل ضحكت له الدنيا إذن؟

قال غايلز: هل لك أن تخبرني بشيء يا سيدي؟ لقد قطعتَ علاقة سخيفة كانت بينه وبين هيلين، فهل كان ذلك لمجرد... لمجرد وضعه الاجتماعي؟

نظر إليه الدكتور كينيدي نظرة جافة وقال: أنا من الطراز القديم أيها الشاب. في القيم الحديثة يُعتبَر كل رجل جيداً كغيره من الرجال، وهذا يصح من الناحية الأخلاقية دون شك، لكنني أحد المؤمنين بالحقيقة القائلة إن هناك حالة من الحياة يولد المرء لها، وأعتقد بأن

المرء يكون أسعد حالاً بالبقاء فيها. هذا بالإضافة إلى أنني اعتقدت أن ذلك الشاب كان سيئاً، كما أثبت على نفسه بالفعل.

- ما الذي فعله بالضبط؟

- حسبما أذكر فإن القضية كانت تنطوي على محاولته الاستفادةَ من بعض المعلومات التي حصل عليها من خلال عمله مع فين... مسألة سرية تتعلق بأحد زبائنهم.

- هل كان مغتاظاً من فصله؟

رماه كينيدي بنظرة حادة ثم قال باقتضاب: نعم.

- ألم يكن هناك أي سبب آخر لكراهيتك لعلاقته مع أختك؟ ألم تعتقد أنه كان... غريباً بأي معنى من المعاني؟

- طالما أنك ذكرت هذا الموضوع فسأجيبك بصراحة. لقد بدا لي أن جاكي أفليك (ولا سيما بعد طرده من عمله) أصبح يُظهر علامات معينة تدل على مزاج غير متوازن، بل على بوادر جنون اضطهاد في الواقع. ولكن يبدو أن هذا لم يثبت بدليل نجاحه اللاحق في حياته.

سأل غايلز: مَن الذي طرده؟ وولتر فين؟

- ليست لديّ فكرة إنْ كان وولتر فين مَعنياً بالأمر أم لم يكن، فقد طردته الشركة.

- وهل اشتكى أنه كان ضحية؟

هز كينيدي رأسه بالإيجاب فقال غايلز: فهمت. حسناً، علينا أن نقود سيارتنا بسرعة الريح. نراك يوم الخميس يا سيدي.

-٢-

كان البيت حديث البناء مبنياً بالإسمنت الأبيض كثير الأقواس ذا نوافذ واسعة، وتم إدخال الشابين عبر قاعة فخمة إلى غرفة خصوصية احتل مكتبٌ ضخم نصف مساحتها.

تمتمت غويندا بعصبية تخاطب غايلز: لا أدري حقاً ما الذي كنا سنفعله لولا الآنسة ماربل، فنحن نعتمد عليها في كل مرة. في المرة الأولى كانت قصة أصدقائها في نورثمبرلاند والآن قصة الرحلة السّنوية لنادي فتيان زوجة الكاهن!

رفع غايلز يداً محذّرة فيما فُتح الباب ودخل جاكي أفليك الغرفة. كان رجلاً بديناً في أواسط عمره ويرتدي بدلة ذات قماش منقوش بمربعات صارخة بعض الشيء، وكانت عيناه سوداوين لاذعتين ووجهه أحمر ودوداً. كان يبدو كأنه تجسيد للفكرة الشعبية السائدة عن وكيل ناجح لمراهنات سباق الخيل!

قال أفليك: السيد ريد؟ صباح الخير، أنا مسرور برؤيتك.

قام غايلز بتقديم غويندا له، وشعرت عندما صافحها بأن قبضته بدت مفرطة في حماستها.

وجلس أفليك خلف مكتبه الضخم وقال: وبماذا أستطيع خدمتك يا سيد ريد؟

دخل غايلز في موضوع رحلة «نادي الفتيان» قائلاً إن بعض أصدقائه القدامى يديرون النادي وإنه كان متلهفاً على ترتيب جولة لمدة يومين في ديفون، فأجابه أفليك فوراً وبأسلوب عملي ذاكراً الأسعار ومقدّماً بعض الاقتراحات. ولكن كانت تبدو على وجهه نظرة فيها شيء من الحيرة. وأخيراً قال: حسناً، كل هذا واضح تماماً يا سيد ريد وسأرسل لك رسالة قصيرة لتأكيد الحجز، ولكن هذا من عمل المكتب حصراً، وقد فهمت من سكرتيري أنك أردت موعداً خاصاً في منزلي.

قال غايلز: هذا صحيح يا سيد أفليك. كانت هناك قضيتان أردت رؤيتك بشأنهما، ولقد انتهينا من واحدة، أما الأخرى فهي مسألة خاصة تماماً. إن زوجتي متلهفة جداً على الاتصال بزوجة أبيها التي لم ترَها لسنين طويلة، وقد تساءلنا إن كان بوسعك أن تساعدنا إن أمكن.

- حسناً، إن أخبرتماني باسم السيدة. هل أفهم من هذا أنني أعرفها؟

- كنت تعرفها ذات يوم. اسمها هيلين هاليدي، وكان اسمها قبل الزواج الآنسة هيلين كينيدي.

بقي أفليك ثابتاً لا يتحرك، ثم قلّص عينيه تركيزاً ومال بكرسيه ببطء إلى الخلف وقال: هيلين هاليدي... لا أتذكّر. هيلين كينيدي...

قالت غويندا: من أهالي ديلماوث سابقاً.

عادت رجلا كرسيّهِ لتضرب الأرض فجأة وتهلّل وجهه الأحمر

المستدير بالسرور وقال: تذكّرتها، بالطبع... هيلين كينيدي الصغيرة! نعم، أذكرها. ولكن هذا كان منذ وقت طويل... لا بد أنه كان منذ عشرين سنة.

غويندا: ثماني عشرة سنة.

- حقاً؟ السنون تمرّ كالسحاب كما يقول المثل! ولكن أخشى أنّ أمَلك سيخيب يا سيدة ريد، فأنا لم أرَ هيلين منذ ذلك الوقت، بل إنني لم أسمع عنها أي شيء.

- آه، يا إلهي! هذا مؤسف جداً. لقد أملنا كثيراً بأنك تستطيع مساعدتنا.

تنقّلت عينا أفليك بسرعة من وجه إلى آخر وهو يقول: ما هي المشكلة؟ هل تشاجرت؟ تركت البيت؟ قضية نقود؟

غويندا: لقد رحلت من ديلماوث فجأة... منذ ثمانية عشر عاماً، مع... مع شخص ما.

قال جاكي أفليك مستمتعاً: وقد ظننتما أنها ربما تكون قد رحلت معي! لماذا؟

تحدثت غويندا بجرأة: لأننا سمعنا أنك وهيلين كنتما ذات يوم... كنتما متحابّين.

- أنا وهيلين! آه، ولكن الأمر لم يكن كذلك أبداً. كانت مجرد علاقة ودّية بين فتى وفتاة ولم يحمل أي واحد منا الأمر على محمل الجد.

ثم أضاف بجفاء: لم نُشَجِّع على ذلك!

بدأت غويندا بالقول: لا شك أنك ستعتبرنا وقحَين جداً...

لكنه قاطعها قائلاً: ما هو الموضوع؟ أنا لست مفرط الحساسية. إنكما تريدان العثور على شخص ما وتعتقدان أنني ربما كنت قادراً على المساعدة. اسألاني ما بدا لكما فليس لديّ ما أخفيه.

ثم نظر إليها بإمعان وقال: إذن فأنت ابنة هاليدي؟

غويندا: نعم، هل كنت تعرف والدي؟

هز رأسه بالنفي وقال: مررت مرة لرؤية هيلين عندما ذهبتُ في عمل إلى ديلماوث، وكنت قد سمعت أنها تزوجت وأنها تعيش هناك. كانت مهذبة تماماً، وأذكر أنها لم تعرض عليّ البقاء لتناول العشاء. ولم أقابل والدك.

تساءلت غويندا في سرّها إن كان في عبارته تلك أي أثر للضغينة: "لم تعرض عليّ البقاء لتناول العشاء"! ثم سألته: هل بدت سعيدة إن كنت تذكر؟

- كانت سعيدة تماماً، كنت سأتذكّر لو أنها بدت تعيسة.

ثم أضاف بما بدا أنه فضول طبيعي تماماً: هل تقصدان أنكما لم تسمعا عنها شيئاً منذ تركت ديلماوث قبل ثمانية عشر عاماً؟

قالت غويندا: لم نسمع شيئاً.

- ولا رسائل؟

قال غايلز: كانت هناك رسالتان، ولكن لدينا من الأسباب ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها لم تكتبهما.

بدا أفليك وكأنه مستمتع بالموضوع وقال: تعتقدان أنها لم تكتبهما؟ يبدو هذا وكأنه من ألغاز الأفلام!

غايلز: وهذا ما بدا لنا أيضاً.

- وماذا عن أخيها الطبيب، ألا يعلم أين هي؟

- لا يعلم أي شيء.

- نعم، لغز كامل! لماذا لا تضعان إعلاناً؟

- لقد وضعنا.

قال أفليك بشكل عَرَضي: يبدو كما لو أنها قد ماتت.

ارتجفت غويندا فقال أفليك: هل بردت يا سيدة ريد؟

قالت غويندا: لا، بل كنت أفكر في هيلين ميتة. لا أحب أن أفكر فيها ميتة.

أفليك: أنت محقّة في هذا، فأنا أيضاً لا أحب التفكير هكذا.

قالت غويندا باندفاع: لقد عرفتها أنت، عرفتها جيداً، أما أنا فليست لدي إلاّ ذكرى طفولية عنها. كيف كانت هيلين؟ ماذا كان شعور الناس تجاهها؟ ماذا كان شعورك أنت؟

نظر إليها لحظات ثم قال: سأكون صادقاً معك يا سيدة ريد،

صدّقي ذلك أو لا تصدقيه كما يحلو لك، فلقد كنت أشعر بالحزن عليها.

قالت: بالحزن؟!

حدّقَت إليه بشيء من الحيرة فقال: نعم، بالحزن فقط؛ فقد كانت صبية عائدة لتوّها من المدرسة وتصبو إلى بعض التسلية كأي فتاة أخرى، وبالمقابل كان هناك ذلك الأخ الكهل المتزمّت! لم تحظَ تلك الفتاة بأية تسلية أبداً، ولم أكن حقاً مغرماً بها ولا هي مغرمة بي، ولكنها أرادت الهروب من البيت! بعد ذلك اكتشف أخوها أننا كنا نلتقي فوضع حدّاً لذلك. أنا لا ألومه في الواقع، فقد كان مستواها الاجتماعي أعلى مني بكثير. وفي ذلك الوقت لم تكن عندي أي نية للزواج، ليس قبل أن أنضج وأكبر سنوات. كنت أنوي النجاح والعثور على امرأة تساعدني على النجاح، ولم تكن لهيلين أية أموال وما كان الزواج بيننا ليكون متكافئاً على أية حال. لقد كنا مجرد أصدقاء حميمين ليس أكثر.

غويندا: ولكن لا بد أنك غضبت من أخيها.

- أعترف بأنني تكدرت وغضبت، فالمرء لا يحب أن يُقال له إنه غير نافع. ولكن هذا ما حدث، وليس من الخير أن يكون المرء عديم الحساسية.

غايلز: وبعدها فقدت وظيفتك؟

لم يعد وجه أفليك وسيماً تماماً كما كان، وقال: بل أنني طُردت طرداً، ولديّ فكرة واضحة تماماً عمّن كان مسؤولاً عن ذلك.

غايلز: حقاً؟

- لن أقول شيئاً رغم أن لديّ أفكاري الخاصة. لقد تم تلفيق تهمة لي... هذا كل ما في الأمر، ولديّ فكرة واضحة جداً عمّن فعل ذلك ولماذا! عملية قذرة، أن تتجسس على شخص وتنصب له الأفخاخ وتكذب في حديثك عنه... آه، إن لديّ أعدائي بالتأكيد، ولكني لم أسمح لهم أن يهزموني أبداً، ولقد كنت دوماً أرد الصاع صاعين لمن يستهدفني. أنا لا أنسى.

ثم توقف عن الكلام، وفجأة تغير أسلوبه ثانية فعاد ودوداً مرة أخرى وهو يقول: إذن فأنا لا أستطيع مساعدتكم على الأغلب. لم يكن بيني وبين هيلين إلاّ بعض الصداقة البريئة، هذا كل ما في الأمر.

أمعنت غويندا النظر إليه. كانت قصته واضحة بما فيه الكفاية، ولكن هل كانت صادقة؟ هكذا تساءلت. بدا لها شيء من عدم الانسجام. ما هو ذلك الشيء؟ ثم قالت: ومع كل ذلك فقد زرتَها عندما أتيت إلى ديلماوث لاحقاً؟

- لقد أمسكتِني في هذه النقطة يا سيدة ريد. نعم، زرتها. ربما أردت أن أريها بأنني لم أكن عاطلاً لمجرد أن محامياً سخيفاً طردني من مكتبه. كان لديّ عمل رائع وكنت أقود سيارة فارهة وكنت موفقاً تماماً.

- ولكنك أتيت لتراها أكثر من مرة، أليس كذلك؟

تردد قليلاً ثم قال: "مرتين، وربما ثلاث مرات... مجرد

زيارات عابرة". ثم هزّ رأسه وقال فجأة بطريقة توحي بإنهاء الموضوع: أنا آسف لأنني لم أستطع مساعدتكما.

نهض غايلز قائلاً: علينا أن نعتذر على أخذ كل هذا القدر من وقتك.

أفليك: لا بأس، فالحديث عن الأيام الخوالي تغيير كبير.

فُتح الباب وأطلت امرأة لكنها اعتذرت بسرعة: آه، أنا آسفة؛ لم أعرف أن لديك ضيوفاً.

قال أفليك: ادخلي يا عزيزتي، ادخلي. أعرفكما إلى زوجتي، هذان السيد والسيدة ريد.

صافحتهما السيدة أفليك. كانت امرأة طويلة نحيلة بادية الكآبة ترتدي ثياباً جيدة التفصيل على غير ما هو متوقع نوعاً ما.

قال أفليك: كنا نتحدث عن الأيام الخوالي، قبل أن ألتقي بك يا دوروثي.

ثم استدار إليهما وقال: التقيت بزوجتي في أثناء رحلة بحرية. إنها ليست من هذه المنطقة، وهي ابنة عم لورد بولترهام.

كان يتكلم بفخر وتورّدت وجنتا المرأة النحيلة.

غايلز: إنها رائعة جداً تلك الرحلات البحرية.

السيدة أفليك: دائماً ما أقول لزوجي إن علينا أن نسافر في إحدى تلك الرحلات إلى اليونان.

أفليك: لا وقت لديّ، فأنا رجل مشغول.

غايلز: وعلينا نحن أن لا نؤخرك. إلى اللقاء وشكراً لك، ستخبرني لاحقاً بشأن تلك الرحلة.

رافقهما أفليك إلى الباب. والتفتت غويندا لتسترق نظرة إلى الخلف؛ كانت السيدة أفليك تقف بباب المكتب وكان وجهها المثبت على ظهر زوجها قلقاً خائفاً بشكل غريب وكريه بعض الشيء.

ألقى غايلز وغويندا التحية وسارا باتجاه سيارتهما، وفجأة توقفت غويندا وقالت: يا إلهي، لقد نسيت منديلي.

- أنت تنسين شيئاً ما دائماً.

- لا تهوّل الأمور، سأحضره.

هرولت عائدة إلى المنزل، ومن خلال باب المكتب المفتوح سمعت أفليك يقول بصوت عال: ما الذي تريدينه من التدخل ودس أنفك هكذا؟ أليس عندك عقل؟

- أنا آسفة يا جاكي، لم أكن أعرف. مَن هؤلاء؟ ولماذا أزعجوك بهذا الشكل؟

- إنهم لم يزعجوني. إنني...

ثم توقف إذْ رأى غويندا تقف قبالة الباب. قالت: آه، هل نسيتُ منديلاً هنا؟

- منديل؟ لا يا سيدة ريد؛ إنه ليس هنا.

- يا لغبائي! لا بد أنه في السيارة.

خرجت ثانية، وكان غايلز قد دار بسيارته، وهناك عند حافة الطريق الحجرية كانت تقف سيارة فاخرة ضخمة صفراء تتألق بالكروم. ردّد غايلز قائلاً: يا لها من سيارة!

قالت غويندا: سيارة فارهة، هل تذكر يا غايلز؟ هل تذكر ما قالته إيديث باجيت عندما كانت تخبرنا عما قالته ليلي؟ كانت ليلي قد راهنت على الكابتن إيرسكين وليس رجلنا الغامض في السيارة الفخمة. ألا ترى ذلك؟ إن الرجل الغامض في السيارة الفخمة كان جاكي أفليك!

- نعم، وفي رسالتها إلى الدكتور كينيدي ذكرت ليلي «سيارة فارهة».

تبادلا نظرات ذات معنى، ثم قالت غويندا: لقد كان هناك... «في مسرح الأحداث» كما كانت الآنسة ماربل ستقول. كان هناك في تلك الليلة. آه يا غايلز، لا أكاد أتحمل الانتظار حتى يوم الخميس لأسمع ما تقوله ليلي كيمبل.

- وماذا لو افترضنا أنها غيّرت رأيها ولم تأتِ في نهاية الأمر؟

- سوف تأتي. تخيّل يا غايلز لو كانت سيارة تلك الليلة الفاخرة هي...

- هل تظنين أنها كانت «خطراً أصفر» كهذه السيارة؟

- هل تعجبكما سيارتي؟

صعقهما صوت السيد أفليك الودود! كان يتكئ على السياج الشجري خلفهما، وأضاف قائلاً: زهرة النرجس الصفراء... هذا هو الاسم الذي أطلقه عليها. لقد أحببت دوماً أن يكون هيكل السيارة الخارجي لطيف المنظر. إنها تبهركما، أليس كذلك؟

غايلز: بلى، بالتأكيد.

أفليك: أنا مولع بالأزهار، النرجس وما إلى ذلك. حسناً، ها هو منديلك يا سيدة ريد... لقد وقع خلف الطاولة. إلى اللقاء، لقد سعدت بلقائكما.

سألت غويندا زوجها وهما يبتعدان: هل تظن أنه سمعنا نسمي سيارته «الخطر الأصفر»؟

- آه، لا أظن ذلك. لقد بدا ودوداً تماماً، أليس كذلك؟

بدا غايلز قلقاً بعض الشيء، وقالت غويندا: بلى، ولكني لا أظن أن ذلك يعني كثيراً... غايلز، إن زوجته تلك مرعوبة منه، لقد رأيت وجهها.

- ماذا؟ مرعوبة من ذلك الرجل المرح اللطيف؟

- ربما لا يكون مرحاً لطيفاً إلى هذا الحد من الداخل. لا أظن أنني ارتحت للسيد أفليك يا غايلز... أتساءل كم بقي هناك واقفاً خلفنا يصغي لما نقول. ما الذي قلناه بالضبط؟

قال غايلز: لم نقل الكثير.

لكنه كان ما زال ظاهر القلق.

* * *

الفصل الثاني والعشرون
ليلي تلتزم بموعدها

-١-

هتف غايلز: حسناً، لقد كنت مخطئاً.

كان قد فتح لتوه رسالة وصلت في بريد العصر وراح يحدق إلى محتوياتها بدهشة كاملة.

سألته غويندا: ما الأمر؟

- إنه تقرير خبراء الخط.

هتفت غويندا بلهفة: وهي لم تكتب تلك الرسالة التي أُرسِلت بالبريد من الخارج؟

- بل كتبتها. هذه هي المشكلة يا غويندا!

حدق كلٌّ منهما إلى الآخر، ثم قالت غويندا بعدم تصديق: إذن فتلك الرسائل لم تكن مزورة... كانت حقيقية، وقد هربت

هيلين بالفعل من البيت في تلك الليلة وكتبت بالفعل من الخارج ولم تُخنق أبداً؟

أجابها غايلز ببطء: يبدو الأمر كذلك! إنني لا أفهم، يأتي هذا في الوقت الذي يشير فيه كل شيء إلى الاحتمال الآخر.

- ألا يمكن أن يكون الخبراء مخطئين؟

- يبدو أنهم واثقون تماماً. حقاً أنا لا أفهم شيئاً من هذا الأمر كله يا غويندا. هل كنا نجعل من أنفسنا أكبر مغفلَين في العالم كل هذا الوقت؟

- وكل هذا بدأ بسبب تصرفي السخيف في المسرح! اسمعني يا غايلز، دعنا نمرّ على الآنسة ماربل. سيكون لدينا وقت قبل أن نذهب إلى الدكتور كينيدي في الرابعة والنصف.

* * *

كان رد فعل الآنسة ماربل مختلفاً قليلاً عما كانا يتوقعانه؛ فقد قالت إن ذلك كان ممتازاً حقاً.

سألت غويندا بدهشة: ولكن يا عزيزتي الآنسة ماربل! ما الذي تعنينه بذلك؟

قالت الآنسة ماربل: أعني -يا عزيزتي- أن أناساً لم يكونوا أذكياء كما كان يمكن لهم أن يكونوا.

- ولكن كيف... بأية طريقة؟

- لقد ارتكبوا خطأ.

قالت الآنسة ماربل ذلك وهي تهز رأسها بقناعة ورضا.

- ولكن كيف؟

- حسناً يا عزيزتي غويندا، لا بد أنك ترين كيف قلّلَ ذلك من مساحة الشك.

- إذا قبلنا حقيقة أن هيلين قد كتبت الرسائل فعلاً، فهل تعنين أنها ربما كانت قد قُتلت رغم ذلك؟

- أعني أنه يبدو مهماً جداً بالنسبة لأحد الأشخاص أن تكون الرسائل فعلياً بخط هيلين.

- فهمت... على الأقل أتصور أنني فهمت. لا بد أن ظروفاً معيّنة ربما أغرت هيلين ودفعتها إلى كتابة تلك الرسائل بعينها. هذا من شأنه أن يضيق المساحة أمامنا، ولكن أية ظروف كانت بالضبط؟

- آه، هيا يا سيد ريد، أنت لا تعمل فكرك حقاً. إن الأمر بسيط جداً بالفعل.

بدا غايلز منزعجاً ومتمرداً وقال: إنه ليس واضحاً بالنسبة لي، أؤكد لك ذلك.

- لو تأملت قليلاً فقط...

قالت غويندا: هيا يا غايلز، سنتأخر عن موعدنا.

وتركا الآنسة ماربل تبتسم لنفسها.

قال غايلز: إن تلك العجوز تزعجني أحياناً، أشعر أنني عاجز عن معرفة ما كانت ترمي إليه.

* * *

وصلا إلى بيت الدكتور كينيدي في الوقت المناسب. فتح لهما الطبيبُ البابَ بنفسه وفسّر ذلك قائلاً: لقد تركتُ الخادمة تذهب هذا المساء؛ بدا لي هذا أفضل.

قادهما إلى غرفة الجلوس حيث كانت صينية شاي جاهزة. ثم سأل غويندا بشيء من الشك: إن كوب الشاي حركة جيدة، أليس كذلك؟ فهو يجعل تلك السيدة كيمبل تأخذ راحتها وتشعر بالألفة.

غويندا: لعلك محق في هذا.

كينيدي: والآن ماذا عنكما أنتما؟ هل أعرّفها بكما مباشرة أم أن ذلك سيجعلها تعدل عن الكلام؟

قالت غويندا ببطء: الريفيون شكّاكون كثيراً. لعل من الأفضل أن تستقبلها بمفردك.

غايلز: وأنا أرى ذلك أيضاً.

كينيدي: إن انتظرتما في هذه الغرفة المجاورة وكان هذا الباب الذي يصل بين الغرفتين مفتوحاً قليلاً فسوف تكونان قادرَين على سماع ما يجري. وهذا مبرَّر لكما في ظل ظروف هذه القضية.

غويندا: أظن أنه تنصت، ولكنني لا آبه بذلك.

ابتسم الدكتور كينيدي قليلاً وقال: لا أظن أن الأمر ينطوي على أي عامل أخلاقي. وعلى أية حال فإنني لا أعتزم أن أعطي وعداً بالكتمان، مع أني مستعد لإعطاء نصيحتي إذا طُلِبت مني.

وألقى نظرة على ساعته ثم قال: يصل القطار إلى محطة وودلي رود في الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة. يجب أن يصل خلال دقائق الآن، ثم ستحتاج إلى خمس دقائق لتصعد التلة سيراً إلى هنا.

راح يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً بقلق ثم قال: لا أفهم، لا أفهم أبداً ما الذي يعنيه كل هذا. إن كانت هيلين لم تغادر ذلك البيت أبداً، إن كانت رسائلها مزورة... إن كان كيلفين، ذلك الرجل المسكين لم يقتلها، فما الذي حدث إذن؟

غويندا: شخص آخر قتلها.

- ولكن يا طفلتي العزيزة، إن كان شخص آخر قد قتلها فلماذا أصرّ كيلفين على أنه هو الذي فعل ذلك؟

غويندا: لأنه ظن أنه فعل ذلك. لقد وجدها هناك على السرير فظنّ أنه هو الذي فعلها. هذا ممكن الحدوث، أليس كذلك؟

حكّ كينيدي أنفه بانزعاج وقال: كيف لي أن أعرف؟ أنا لست طبيباً نفسياً. هل كانت الصدمة؟ هل هي حالته العصبية التي كانت مسيطرة عليه؟ نعم، ربما كان هذا ممكناً. ولكن مَن الذي يريد أن يقتل هيلين؟

غويندا: نظن أنه واحد من ثلاثة أشخاص.

- ثلاثة أشخاص؟ أي ثلاثة أشخاص؟ ما من أحد يمكن أن يكون لديه سبب محتمَل لقتل هيلين إلاّ إذا كانوا قد فقدوا عقولهم تماماً. لم يكن لها أي أعداء وكان الجميع يحبونها.

مضى إلى درج المكتب وقلّبَ محتوياته، ثم أخرج صورة من هناك. كانت صورة فتاة في سن المدرسة طويلة القامة ترتدي ملابس رياضة وشعرها مربوط إلى الخلف ووجهها متألق، وقد وقف كينيدي بجانبها، كينيدي أكثر شباباً وسعادة من كينيدي الحالي.

قال كينيدي: لقد كنت أفكر فيها كثيراً مؤخراً. لم أكن قد فكرت فيها لسنوات طويلة حتى كدت أتمكن من النسيان، أما الآن فإنني أفكر بها طول الوقت... وهذا من فعلكما.

بدت كلماته وكأنها اتهام! فقالت غويندا: بل أعتقد أن هذا من فعلها هي.

التفت نحوها بحدة وقال: ما الذي تقصدينه؟

قالت غويندا: ما قلته فقط. لا أستطيع الشرح ولكنه ليس بسببنا حقاً؛ إنها هيلين نفسها.

تناهى إلى آذانهم صوت خافت كئيب لصوت قطار، فخرج الدكتور كينيدي إلى الشرفة وتبعه الزوجان. ظهر ذيل دخاني يتراجع ببطء على طول الوادي فقال كينيدي: ذاك هو القطار.

غويندا: هل هو قادم إلى المحطة؟

كينيدي: لا، إنه يغادرها. سوف تكون هنا في أية لحظة الآن.

ولكن الدقائق مرت ولم تأت ليلي كيمبل.

-٢-

نزلت ليلي كيمبل من القطار في ملتقى قطارات ديلماوث وانتقلت إلى الطرف الآخر من المحطة حيث وقف قطار محلّي ينتظر. كان هناك القليل من الركاب لا يتجاوزون الستة، فقد كان وقتاً من أوقات النهار تقل فيه الحركة وكان ذلك اليوم -على كل حال- يوم السوق في هيلتشستر. وسرعان ما تحرك القطار الصغير الذي ركبته في طريقه على طول الوادي الملتفّ، كانت هناك ثلاث محطات سيقف فيها قبل الوصول إلى المحطة النهائية في لونزبيري.

نظرت ليلي كيمبل من نافذة القطار بعينين لم تريا الريف الأخضر الجميل بل رأتا -بدلاً من ذلك- طقم الأرائك الذي كانت تحلم به منجَّداً باللون الأخضر! وفي محطة ماتشينغز هولت الصغيرة كانت الوحيدة التي نزلت من القطار. غادرت المحطة، وبعدما مشت مسافة قصيرة في الشارع رأت لافتة كُتب عليها «إلى وودلي كامب» تشير إلى طريق ترابي يصعد إلى تلة عالية، فانحرفت ليلي إلى الطريق الترابي ومشت بخفة ونشاط صعوداً باتجاه التلة.

كان الطريق يحيط بطرف غابة، وعلى الجانب الآخر ترتفع التلة شاهقة مغطاة بالأشجار. خرج شخص ما من بين الأشجار

فقفزت ليلي كيمبل وهتفت: يا إلهي، لقد أجفلتني! لم أتوقع أن ألقاك هنا.

الشخص: لقد فاجأتك، أليس كذلك؟ وعندي لك مفاجأة أخرى.

كان المكان موحشاً منعزلاً جداً بين الأشجار. لم يكن هناك من يسمع صرخة أو مقاومة، وعملياً لم تكن هناك صرخة والمقاومةُ سرعان ما انتهت.

طارت حمامة منزعجة من وسط الغابة.

-٣-

تساءل كينيدي بانزعاج: ما الذي عساه حصل مع تلك المرأة؟

أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة إلاّ عشر دقائق. وقالت غويندا: أيمكن أن تكون قد ضلت طريقها وهي قادمة من المحطة؟

كينيدي: لقد أعطيتها إرشادات واضحة، والأمر بسيط تماماً على أية حال؛ تستدير إلى اليسار عندما تخرج من المحطة ثم تأخذ أول طريق عن يمينها، وهي مسألة مشي خمس دقائق كما قلت.

غايلز: ربما غيرت رأيها.

كينيدي: يبدو الأمر كذلك.

غويندا: أو فاتها القطار.

قال كينيدي ببطء: لا؛ أظن أن الاحتمال الأغلب هو أنها قررت أن لا تأتي في النهاية. ربما اعترضها زوجها، فهؤلاء الريفيون يصعب التنبؤ بتصرفاتهم.

ذرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم مضى إلى الهاتف وطلب رقماً: أهذه هي المحطة؟ الدكتور كينيدي معكم. كنت أتوقع سيدة في قطار الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة، امرأة ريفية في أواسط عمرها. هل طلب منكم أحدٌ أن تدلوه على بيتي؟ ماذا تقول؟

كان كلٌّ من غايلز وغويندا قريبَين بما يكفي لسماع اللهجة الناعمة الكسولة للحمّال الوحيد في محطة وودلي بولتن وهو يقول: لا أظن أن أحداً جاء إليك يا دكتور. لم يكن في قطار الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة أي غرباء. فقط السيد ناراكوت من ميدوز وجوني كوز وابنة العجوز بنسن، لم يكن هناك ركاب غيرهم أصلاً.

أقفل كينيدي الخط وقال: إذن فقد غيرت رأيها؟ أستطيع أن أقدم الشاي لكما. إنه جاهز، سأخرج لإحضاره.

عاد بإبريق الشاي وجلس الجميع. وقال كينيدي بمرح أكبر: إنها مجرد عرقلة مؤقتة، فلدينا عنوانها وربما ذهبنا إليها لرؤيتها.

رنّ جرس الهاتف فنهض الدكتور ليجيبه، سأل الطرف الآخر على الخط: الدكتور كينيدي؟

- نعم، يتكلم.

- أنا المفتش لاست من مركز شرطة لونغفورد. هل كنت تنتظر امرأة اسمها ليلي كيمبل لتزورك بعد ظهر اليوم؟

- نعم، لماذا؟ هل وقع حادث ما؟

المفتش: ليس أمراً يمكن أن تسميه حادثاً بالضبط... إنها ميتة. وقد وجدنا رسالة منك على الجثة ولهذا خابرتك. هل لك أن تأتي إلى مركز شرطة لونغفورد بأسرع ما يمكنك؟

- سآتي حالاً.

-٤-

قال المفتش لاست: دعونا الآن نفهم هذا الأمر بوضوح.

نظر إلى كينيدي، ثم إلى غايلز وغويندا اللذين رافقا الدكتور. كانت غويندا شاحبة تماماً وتطبق راحتيها معاً بإحكام. ومضى المفتش ملخِّصاً القضية: لقد قلتَ إنك كنت تنتظر مجيء هذه المرأة بالقطار الذي يغادر تقاطع ديلماوث في الرابعة وخمس دقائق ويصل إلى وودلي بولتن في الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة؟

هز كينيدي رأسه بالإيجاب.

نظر المفتش لاست إلى الرسالة التي أخذها من المرأة الميتة. كانت الرسالة واضحة تماماً وقد كتب كينيدي فيها:

عزيزتي السيدة كيمبل،

سأكون سعيداً بأن أنصحك بأفضل ما أستطيع. كما سترين في أعلى هذه الرسالة فإنني لم أعد أعيش في ديلماوث. إذا ركبت القطار الذي يغادر كومبيلي في الساعة

الثالثة والنصف وبدلّت القطار في ملتقى القطارات في ديلماوث فجئت بقطار لونزبيري إلى وودلي بولتن فإن بيتي على مسيرة بضع دقائق فقط. انعطفي إلى اليسار عندما تخرجين من المحطة ثم اسلكي أول طريق على اليمين، واسمي موجود على البوابة.

المخلص: جيمس كينيدي

سأل المفتش لاست: هل نوقشت مسألة حضورها بقطار سابق لهذا؟

قال الدكتور كينيدي بدهشة: قطار سابق؟!

- لأن هذا هو ما فعلته؛ لم تغادر كومبيلي في قطار الثالثة والنصف بل في قطار الواحدة والنصف، ثم ركبت قطار الثانية وخمس دقائق من ملتقى ديلماوث، ولم تنزل من القطار في وودلي بولتن بل في ماتشينغز هولت، المحطة السابقة.

- ولكن هذا غريب!

- هل كانت ستستشيرك مهنياً يا دكتور؟

- لا، فقد تقاعدت عن ممارسة الطب منذ بضع سنوات.

- هذا ما ظننته. هل تعرفها جيداً؟

هز كينيدي رأسه نافياً وقال: لم أرَها منذ نحو عشرين عاماً.

- ولكنك... حسناً، هل تعرفت عليها قبل قليل؟

ارتجفت غويندا، ولكن الجثث لم تكن لتؤثر في طبيب.

أجاب كينيدي بتأمل: في ظل هذه الظروف يصعب القول إن كنت قد تعرفت إليها أم لا. أظن أنها خُنقت، أليس كذلك؟

لاست: بلى، لقد خُنقت، ووُجدت الجثة بين الأشجار على مقربة من الطريق الذي يمتد من ماتشنغز هولت إلى وودلي كامب، وجدها رجل كان يمارس هواية المشي وهو قادم من وودلي كامب في الرابعة إلاّ عشر دقائق تقريباً. جرّاحنا في الشرطة يقدّر وقت الوفاة بما بين الثانية والربع والثالثة، وبالتالي فيُعتقَد أنها قد قُتلت بعد وقت قصير من مغادرتها المحطة. لم ينزل أي راكب آخر في محطة ماتشنغز هولت، كانت الشخص الوحيد الذي غادر القطار هناك. حسناً، لماذا نزلت في ماتشنغز هولت؟ هل أخطأت في المحطة؟ لا أظن ذلك. على كل حال كانت مبكّرة عن موعدها معك بساعتين، وهي لم تأتِ بالقطار الذي اقترحتَه أنت عليها مع أنها تحمل رسالتك معها. والآن ماذا كان أمرها معك يا دكتور؟

تلمس الدكتور كينيدي جيبه فأخرج رسالة ليلي وقال: لقد أحضرت هذه معي. القصاصة المرفقة مع الرسالة إعلان نشره في الجريدة المحلية السيد والسيدة ريد.

قرأ المفتش لاست رسالة ليلي كيمبل والقصاصة، ثم نقل بصره من كينيدي إلى غايلز وغويندا وقال: هل يمكن أن أعرف القصة وراء كل هذا؟ إنها مسألة تعود لزمن بعيد كما فهمت؟

غويندا: ثمانية عشر عاماً.

شيئاً فشيئاً، ببعض الإضافات وبعض الجمل المعترضة، رُويت القصة. كان المفتش لاست مستمعاً جيداً، فقد ترك الأشخاص الثلاثة

أمامه يروون حكايتهم بطريقتهم الخاصة. كان كينيدي جافاً ومركّزاً على الحقائق، أما غويندا فقد كانت غير منسجمة في حديثها بعض الشيء ولكن كانت لروايتها للأحداث قوة تخيُّلية، وقدّم غايلز أكثر المساهمات قيمة؛ كان واضحاً ومباشراً، أقلّ تحفظاً من كينيدي وأكثر تماسكاً وانسجاماً من غويندا.

استغرقت القصة وقتاً طويلاً، وبعدها تنهد المفتش لاست ولخص ما سمعه: كانت السيدة هاليدي أخت الدكتور كينيدي وزوجة أبيك يا سيدة ريد. اختفت من البيت الذي تقيمان الآن فيه قبل ثمانية عشر عاماً، وكانت ليلي كيمبل (واسمها قبل الزواج ليلي آبوت) خادمة في المنزل في ذلك الوقت. ولسبب ما مالت ليلي كيمبل بعد سنوات إلى تبنّي نظرية مفادها أنه كانت هناك جريمة في الموضوع، أما في ذلك الوقت المبكّر فقد ساد الافتراض بأن السيدة هاليدي هربت مع رجل غير معروف الهوية. الرائد هاليدي توفي في مؤسسة رعاية عقلية قبل خمسة عشر عاماً وكان ما يزال متوهماً أنه قد خنق زوجته، إن كان ذلك وهماً.

صمت قليلاً ثم أضاف: هذه كلها حقائق مثيرة، ولكنها حقائق غير مترابطة بعض الشيء، ويبدو أن النقطة الحيوية هي معرفة إن كانت السيدة هاليدي حية أم ميتة. إن كانت ميتة فمتى ماتت؟ وما الذي كانت تعرفه ليلي كيمبل؟

قال غايلز: الظاهر أنها كانت تعرف شيئاً مهماً بلا شك، مهماً إلى الحد الذي سبّبَ قتلها كيلا تتحدث عنه.

صرخت غويندا: ولكن كيف كان لأحد أن يعرف أنها كانت ستتحدث عنه... باستثنائنا نحن؟

أدار المفتش لاست عينيه المتأملتين نحوها وقال: إنها نقطة مهمة يا سيدة ريد أن تعمد إلى ركوب قطار الثانية وخمس دقائق بدل قطار الرابعة وخمس دقائق من ملتقى ديلماوث. لابد أن يكون لذلك سبب، كما أنها نزلت في المحطة السابقة لمحطة وودلي بولتن، لماذا؟ يبدو لي ممكناً أنها -بعد أن كتبت إلى الدكتور كينيدي- كتبت إلى شخص آخر تقترح عليه موعداً في وودلي كامب، وأنها كانت تعتزم بعد ذلك الموعد إن لم يكن مُرْضياً أن تذهب إلى الدكتور كينيدي وتطلب مشورته. من الممكن أنه كان لديها شكوك بشخص محدد ما وربما كانت قد كتبت إلى ذلك الشخص تلمّح له بمعرفتها وتقترح عليه موعداً.

قال غايلز بفظاظة: ابتزاز؟

لاست: لا أظن أنها فكّرت بالأمر على هذا النحو. لم تكن سوى جَشِعة يدفعها الطمع، وكانت مشوَّشة قليلاً حول ما يمكنها أن تحصل عليه من هذه العملية كلها. سنرى، فربما كان بوسع الزوج أن يخبرنا بالمزيد.

-٥-

بدا السيد كيمبل مثقلاً بالأسى وقال: لقد حذّرتها، نعم، قلت لها: "لا علاقة لكِ بالأمر"... هذا ما قلته لها. ولكنها ذهبت دون

معرفتي. كانت تعتقد أنها تعرف أفضل من الجميع. كانت ليلي هكذا دائماً، تبالغ في التذاكي.

وقد أظهر التحقيق أن السيد كيمبل لم يكن لديه ما يقدمه. قال إن ليلي كانت في عملها في منزل «سينت كاثرين» قبل أن يقابلها، وكانت مغرمة بالسينما، وقد أخبرته أنها ربما كانت تعمل في بيت حدثت فيه جريمة...

ثم أضاف قائلاً: لم أُعطِ الأمر كثيراً من الانتباه وفكرتُ بأنه كله خيال في خيال. لم تكن ليلي لتقتنع أبداً بالحقيقة الواضحة، وحدّثتني بإسهاب مطوَّل لا معنى له كيف أن سيدها قتل السيدة وربما وضع الجثة في القبو، وشيئاً عن فتاة فرنسية نظرت من النافذة ورأت شيئاً ما أو أحداً ما... وقد قلت لها: "لا تلقي بالاً للأجانب يا فتاتي، فكلهم كذّابون"، وعندما استمرت في روايتها لم أُصغِ إليها لأنها كانت تبني كل هذه القصة على غير أساس. كانت ليلي تحب قليلاً من جو الجريمة، وكان من عادتها أن تقرأ سلسلة مقالات «قَتَلة مشهورون» في الجريدة. كانت مغرمة بالموضوع. إن كانت تحب أن تفكر بأنها كانت في بيت حدثت فيه جريمة قتل فليكن، فالتفكير لا يؤذي أحداً، ولكن عندما جاءتني تريد الإجابة على هذا الإعلان قلت لها: "دعي الأمر وشأنه، ليس من الحكمة إيقاظ المتاعب". ولو أنها فعلت كما قلت لها لكانت اليوم حية ترزق.

ثم فكر لحظات وقال: ها، لكانت حية ترزق اليوم. تتذاكى كثيراً، هكذا كانت ليلي.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

أي واحد منهم؟

لم يذهب غايلز وغويندا مع المفتش لاست والدكتور كينيدي لمقابلة السيد كيمبل، وقد وصلا إلى البيت في نحو الساعة السابعة. بدت غويندا صفراء الوجه مريضة، وكان الدكتور كينيدي قد قال لغايلز: أعطِها بعضاً من عصير الليمون واجعلها تأكل شيئاً ثم خذها إلى فراشها، فقد تعرضت إلى صدمة مؤلمة.

ظلّت غويندا تقول: إنه أمر فظيع جداً يا غايلز، فظيع جداً! تلك المرأة الحمقاء، تضرب موعداً مع القاتل وتذهب إليه بكل هذه الثقة لكي تُقتَل، مثل شاة تمشي إلى مسلخها!

قال غايلز: لا تفكري بالأمر يا حبيبتي، فرغم كل شيء نحن نعرف الآن أنه كان هناك أحدٌ ما... كان هناك قاتل. لقد كنتِ على حق طوال الوقت يا غويندا.

كان غايلز سعيداً إذ وجد الآنسة ماربل في البيت، وقد بالغت هي والسيدة كوكر في العناية بغويندا التي رفضت شرب الليمون لأنه

-كما قالت- يذكّرها بالسفن البخارية! ولكنها وافقت على تناول الشاي، وبعد ذلك أقنعتها السيدة كوكر بلطف بأن تجلس وتتناول عجّة البيض.

كان من شأن غايلز أن يتعمد الحديث عن أمور أخرى، ولكن الآنسة ماربل (وبأساليبها التي اعترف غايلز بأنها متفوّقة) ناقشت الجريمة بأسلوب لطيف محايد. قالت: إنها مرعبة جداً يا عزيزتي، وهي صدمة كبرى بالطبع، ولكن المرء ينبغي أن يعترف بأنها مثيرة للاهتمام أيضاً. أنا عجوز كبيرة إلى الدرجة التي لا يصدمني فيها الموت كما يصدمكما؛ لا يثير ألمي حقاً إلا مرضٌ موجع تطول المعاناة بسببه كالسرطان. ولكن الأمر المهم -في نهاية المطاف- هو أن هذه الجريمة تثبت بشكل نهائي لا يتطرق إليه أي شك أن الشابة المسكينة هيلين قد قُتلت. لقد ظننا ذلك طول الوقت لكننا نعرف ذلك الآن يقيناً.

سألها غايلز: وبرأيك فإننا ينبغي أن نعرف مكان الجثة، في القبو كما أظن؟

- لا، لا يا سيد ريد. لعلك تذكر أن إيديث باجيت قالت إنها نزلت إلى القبو في صباح اليوم التالي لأنها قلقت مما قالته ليلي، وإنها لم تجد أي أثر لأي شيء من هذا القبيل. لو وقع الأمر على هذا النحو لكانت هناك آثار، ولا سيما بالنسبة إلى شخص كان يبحث عنها بالفعل.

- إذن ما الذي حدث للجثة؟ هل ألقيت في البحر مثلاً؟

- لا. تعالا هنا يا عزيزيّ، ما هو أول شيء يثير انتباهكما عندما تأتيان إلى هنا؟ بل لأقل: ما هو الذي يثير انتباهك يا غويندا؟ إنه عدم وجود إطلالة على البحر من نافذة غرفة الاستقبال. وهل تذكرين كيف زُرِعَت بعض الشّجيرات في المكان الذي شعرتِ فيه (وكنتِ على حق تماماً) بضرورة وجود درجات تنزل إلى الأرضية العشبية للحديقة؟ وقد وجدتِ بعد ذلك أن الدرجات كانت موجودة هناك بالأصل ولكن جرى نقلها في وقت ما إلى نهاية المصطبة. فلماذا تم نقل الدرجات؟

حدقت غويندا إليها باستغراب وقالت: هل تقصدين أن هذا هو المكان الذي...

قالت الآنسة ماربل: لا بد من وجود سبب لإجراء هذا التغيير، ولا يبدو حقاً أن هناك أي سبب معقول. إنه لمن الغباء وضع درجات تُفضي إلى الأرضية العشبية من ذلك المكان في طرف المصطبة، ولكن طرف المصطبة ذاك مكان هادئ تماماً وليست عليه إطلالة من البيت إلاّ من خلال نافذة واحدة، نافذة غرفة الطفل في الطابق الأول! ألا تريان أنه إذا أراد المرء دفن جثة فإن سطح التربة سيضطرب، ولا بد من اختلاق سبب لتفسير اضطرابه. كان السبب المُعلَن هو نقل الدرجات من أمام غرفة الاستقبال إلى نهاية المصطبة. لقد سبق أن عرفنا من الدكتور كينيدي أن هيلين وزوجها كانا حريصَين جداً على الحديقة وأنهما قاما بكثير من العمل فيها، وكان البستاني الذي عمل عندهما يكتفي بتنفيذ أوامرهما، فلو أنه وصل إلى المنزل ووجد هذا التغيير ورأى أن بعض الألواح الحجرية للدَّرَج قد نُقِلت فإنه كان سيفكر فقط بأن الزوجين هما اللذان قاما

بهذا العمل في أثناء غيابه. بالطبع ربما كانت الجثة قد دُفنت في أي من المكانين (المكان القديم للدرج أو مكانه الحالي) ولكن يمكننا -كما أظن- أن نغلّب احتمال دفنها عند نهاية المصطبة وليس أمام نافذة غرفة الاستقبال.

سألتها غويندا: لماذا؟

- بسبب ما قالته المسكينة ليلي كيمبل في رسالتها من أنها غيّرت رأيها بخصوص كون الجثة في القبو بسبب ما رأته ليوني عندما نظرت من النافذة. إن هذا يوضّح الأمر تماماً، أليس كذلك؟ لقد نظرت الفتاة السويسرية من نافذة غرفة الطفل في وقت ما خلال الليل ورأت القبر محفوراً، بل ربما رأت الشخص الذي كان يحفره!

- ولم تقل للشرطة أي شيء؟

- يا عزيزتي، لم يكن هناك أي تساؤل في ذلك الوقت عن جريمة حدثت. لقد هربت السيدة هاليدي مع رجل ما... هذا كل ما كان بوسع ليوني أن تفهمه، وربما لم تكن قادرة على الحديث كثيراً بالإنكليزية على كل حال. لقد ذكرت أمام ليلي (ربما في وقت لاحق) شيئاً غريباً لاحظته من نافذتها في تلك الليلة، وقد دفع ذلك ليلي إلى الاعتقاد بحدوث جريمة. ولكن ما من شك لديّ في أن إيديث باجيت قد وبّخت ليلي على الهراء الذي تقوله، وأن الفتاة السويسرية كانت ستقبل وجهة نظر إيديث ولم تكن لتتمنى أن تتورط مع الشرطة، فالأجانب دائماً يبدون قلقين بشكل خاص إزاء الشرطة عندما يكونون في بلد غريب. وهكذا عادت إلى سويسرا، والأغلب أنها لم تفكر بالأمر بعد ذلك قط.

قال غايلز: لو أنها حية الآن... لو كان يمكن اقتفاء أثرها!

هزت الآنسة ماربل رأسها تأييداً له وقالت: نعم.

- كيف يمكننا البدء بذلك؟

- سيكون الشرطة قادرين على القيام بذلك بشكل أفضل مما تستطيعه أنت.

قال غايلز: المفتش لاست سيأتي هنا غداً صباحاً.

- إذن أظنّ أنني سأخبره عن الدرجات.

قالت غويندا بعصبية: وعمّا رأيته أنا (أو أحسب أنني رأيته) في الصالة؟

الآنسة ماربل: نعم يا عزيزتي. لقد كنت حكيمة جداً في كتمانك الأمر حتى الآن، حكيمة جداً بالفعل. ولكن أظن أنه قد آن الأوان لكشف الأمر.

قال غايلز ببطء: لقد خُنقت في الصالة، وبعدها حملها القاتل إلى الطابق العلوي ووضعها على السرير. ثم جاء كيلفين هاليدي، تم تخديره بشراب مخدّر ثم حُمل بدوره إلى الطابق العلوي إلى غرفة النوم، وأفاق بعدها فظن أنه قتلها! لا بد أن القاتل كان يراقب من مكان قريب، وعندما ذهب كيلفين إلى بيت الدكتور كينيدي أخذ القاتل الجثة، وربما أخفاها بين الشجيرات عند نهاية المصطبة وانتظر حتى ذهب الجميع إلى فراشهم وافترض أنهم ناموا قبل أن يحفر القبر ويدفن الجثة. هذا يعني أنه لا بد وأنه كان هنا حائماً حول البيت طوال تلك الليلة؟

هزّت الآنسة ماربل رأسها موافِقةً ومضى غايلز قائلاً: كان مضطراً أن يكون موجوداً في مسرح الحدث... إنني أتذكر قولكِ أنّ ذلك كان مهماً. علينا أن نرى أيّ واحد من الثلاثة المشتبَه بهم يتوافق مع المتطلبات. سنأخذ إيرسكين أولاً، لقد كان في مسرح الحدث بلا شك، فباعترافه هو أنه مشى إلى هنا مع هيلين من الشاطئ في نحو الساعة التاسعة ومن ثَمّ ودّعها. ولكن هل ودّعها بالفعل؟ لنقل إنه خنقها بدلاً من ذلك.

صرخت غويندا: ولكن الأمر كله كان قد انتهى بينهما منذ زمن طويل؛ لقد قال بنفسه إنه لم يكد يجتمع بهيلين على انفراد.

غايلز: ولكن ألا ترين -يا غويندا- أن الطريقة التي ينبغي أن ننظر بموجبها إلى هذا الأمر الآن لا تسمح لنا أن نعتمد على أي شيء يقوله أي شخص.

الآنسة ماربل: أنا سعيدة لسماعك تقول ذلك؛ لأنني كنت قلقة قليلاً من الطريقة التي رأيتكما فيها مستعدَّين لتقبّل كل ما يقوله لكما الناس من أشياء كحقيقة واقعة. أما أنا فأخشى أنني ذات طبيعة لا تثق بكل ما تسمعه مع الأسف، وقد جعلت قاعدة لي (ولا سيما في قضية كالقتل) أن لا أتقبّل أي شيء يُقال لي كحقيقة ما لم يتم التثبت منه. فمثلاً يبدو من المؤكد تماماً أن ليلي كيمبل ذكرت أن الملابس التي رُزمت وأُخذت في الحقيبة ليست الملابس التي كان من شأن هيلين أن تأخذها شخصياً، ليس فقط لأن إيديث باجيت قالت لنا إن ليلي أخبرتها بذلك، بل لأن ليلي نفسها ذكرت تلك الحقيقة في رسالتها للدكتور كينيدي. هذه إحدى الحقائق إذن. وقد

أخبرنا الدكتور كينيدي أن كيلفين هاليدي كان يظن أنه يتعرض إلى التخدير سرّاً، وهذا أمرٌ أكّده كيلفين هاليدي في مذكراته أيضاً، إذن فهذه حقيقة أخرى. وهي حقيقة غريبة جداً، ألا تعتقدان هذا؟ ومع ذلك فلن نسهب في هذا الموضوع الآن.

قال غايلز: ولكنني أودّ أن أشير إلى أن كثيراً من الافتراضات التي وضعتِها أنت كانت تعتمد على ما قيل لك، بل ربما على ما قيل لك على سبيل التخمين والاحتمال!

ارتشفت غويندا قهوتها وقد استعادت لونها واتكأت على الطاولة. ثم قال غايلز: دعونا ندقق الآن فيما قاله لنا ثلاثة أشخاص. لنأخذ إيرسكين أولاً، لقد قال...

قاطعته غويندا: إنه لمضيعة للوقت أن نستمر في مناقشة هذا الاحتمال لأنه خارج الموضوع بالتأكيد؛ فهو لا يمكن أن يكون قد قتل ليلي كيمبل.

مضى غايلز في حديثه بهدوء: لقد قال إنه قابل هيلين على متن الباخرة وهو مسافر إلى الهند، وقال إنهما تحابّا ولكنه لم يستطع تحمّل ترك زوجته وأطفاله ولذلك اتفقا على الفراق. فلنفترض أن الأمر لم يكن كذلك تماماً، لنفترض أنه وقع في غرام هيلين بجنون وأنها هي التي رفضت الهرب معه، ولنفرض أنه هددها بالقتل إذا تزوجت أي شخص غيره.

قالت غويندا: هذا أبعد ما يكون احتمالاً.

غايلز: إن أموراً كهذه تحدث. تذكّري ماذا سمعتِ زوجته

تقول له؟ لقد اكتفيتِ أنت بتفسير ذلك على أنه مجرد غيرة، ولكن ربما كان صحيحاً وربما كانت قد مرت بأوقات عصيبة معه بالفعل. لقد فسخت هيلين خطوبتها مع فين وعادت إلى الوطن وتزوجت أباك واستقرت هنا، وبعدها ظهر إيرسكين فجأة. جاء ظاهرياً في إجازة صيفية مع زوجته، وهذا تصرف غريب حقاً، وهو يعترف بأنه قد جاء إلى هذا المكان لرؤية هيلين مرة أخرى. لنفترض الآن أن إيرسكين هو الرجل الذي كان معها في غرفة الاستقبال في ذلك اليوم عندما سمعَتها ليلي تقول إنها تخاف منه، ولأنها خائفة فقد وضعت خططاً لتذهب وتعيش في نورفولك ولكنها تكتمت بشأن هذه الخطط تماماً، إذ لم تكن تريد لأحد أن يعرف. لعلها لم تكن تريد لأحد أن يعرف حتى يغادر إيرسكين وزوجته ديلماوث... يبدو هذا كله معقولاً ومناسباً حتى الآن. والآن نأتي إلى الليلة المشؤومة. إننا لا نعرف ما الذي كانت هيلين وزوجها يفعلانه في وقت مبكر من تلك الأمسية...

تنحنحت الآنسة ماربل وقالت: في الحقيقة لقد رأيت إيديث باجيت مرة أخرى، وهي تتذكر أنه كان هناك عشاء مبكر في تلك الليلة في الساعة السابعة لأن الرائد هاليدي كان يريد الخروج لاجتماع ما، وهي تذكر أنه كان اجتماعاً لنادي الغولف. وقد خرجت هيلين بعد العشاء.

قال غايلز: حسناً، قابلت هيلين إيرسكين على الشاطئ، وربما بناء على موعد. كان سيغادر في اليوم التالي، وربما كان يرفض الذهاب وحثّ هيلين على الهرب معه. عادت إلى البيت وعاد هو معها، وأخيراً خنقها في نوبة من جنون الغضب. الخطوات التالية

هي كما اتفقنا عليه سابقاً: كان مجنوناً بعض الشيء وأراد لكيلفين هاليدي أن يعتقد أنه هو الذي قتلها، وفيما بعد دفن إيرسكين الجثة. هل تذكران أنه أخبر غويندا بعدم عودته إلى الفندق إلاّ بعد وقت متأخر جداً لأنه كان يتمشى في ديلماوث؟

الآنسة ماربل: يتساءل المرء: ما الذي كانت زوجته تفعله؟

قالت غويندا: ربما كانت تأكلها الغيرة وعندما رجع إلى الفندق سوّدت عيشته.

غايلز: هذه إعادة تركيبي للأحداث، وهي ممكنة.

غويندا: ولكن لا يمكن أن يكون قد قتل ليلي كيمبل لأنه يعيش في نورثمبرلاند، ولذلك فإن التفكير فيه مجرد مضيعة للوقت. دعنا نأخذ وولتر فين.

غايلز: حسناً، إن وولتر فين من النوع المكبوت؛ يبدو لطيفاً وليّن العريكة ومن السهل إرهابه، ولكن الآنسة ماربل أتتنا بشهادة صغيرة قيّمة، فقد وصل الغضب بوولتر فين ذات يوم حداً كاد أن يقتل أخاه معه. صحيح أنه كان طفلاً في ذلك الحين، ولكن هذا مروّع لأنه كان يبدو دائماً ذا طبيعة لطيف متسامحة. على أية حال، وقع وولتر فين في غرام هيلين هاليدي، ولم يقع في غرامها فحسب بل جُنّ بها، ولم تقبل هي به فسافر إلى الهند. وفيما بعد كتبت إليه تخبره أنها ستذهب إليه وتتزوجه وشرعت بذلك. بعدها جاءت الصفعة الثانية، فقد وصلت ونكثت بعهدها له فجأة! كانت قد «قابلت شخصاً ما على متن الباخرة»، ثم عادت إلى الوطن وتزوجت كيلفين هاليدي. وربما ظن وولتر فين أن كيلفين هاليدي

هو الذي كان السبب الأصلي الذي دفعها إلى أن تقلب له ظهر المِجَنّ، ففكّر بقلق واعتملت في نفسه كراهية الغيرة المجنونة. وعاد إلى الوطن فتصرف بأكثر الأساليب تسامحاً وودّاً، وأصبح ظاهرياً قطة أليفة تدور حول المنزل وكأنه رمز الإخلاص. ولكن ربما أدركت هيلين أن ذلك لم يكن صحيحاً أو لمَحت مؤشراً على ما يجري تحت السطح، وربما كانت قد أحست منذ زمن بعيد بشيء يثير القلق في الشاب الهادئ وولتر فين فقالت له: "لقد كنت دوماً خائفة منك"، ثم وضعت سرّاً خططاً لتترك ديلماوث كلها وتعيش في نورفولك. لماذا؟ لأنها خائفة من وولتر فين. والآن نأتي إلى الليلة المشؤومة، وهنا فإننا لا نقف على أرض صلبة جداً فنحن لا نعرف ما الذي كان وولتر فين يفعله في تلك الليلة، ولست أرى أي إمكانية لاكتشاف ذلك. ولكنه يلبي شرط الآنسة ماربل فيما يخص وجود الشخص «على مسرح الحدث» لأنه يعيش في بيت لا يبعد إلاّ مسيرة دقيقتين أو ثلاث دقائق من هنا. ربما كان قد ادّعى أنه ذاهب إلى فراشه مبكراً أو أنه يعاني صداعاً، وربما أقفل على نفسه الباب في غرفة مكتبه بحجة إنجاز عمل ما أو أي شيء من هذا القبيل. كان بوسعه القيام بكل الأمور التي قررنا أن القاتل قد فعلها، وأنا أظن بأنه الأكثر احتمالاً من بين الثلاثة لارتكاب أخطاء في رَزْم حقيبة لأنه ما كان ليعرف ما ترتديه النساء ليقوم بذلك بشكل مناسب.

غويندا: إنه لأمر غريب! لقد انتابني شعور غريب في مكتبه في ذلك اليوم؛ كأنه يشبه بيتاً سُدَّت مغاليق نوافذه...

ثم نظرت إلى الآنسة ماربل وسألتها: هل يبدو لك هذا سخيفاً؟

الآنسة ماربل: لا يا عزيزتي، أظن أنك ربما كنت محقة.

غويندا: والآن نأتي إلى أفليك، أفليك الذي كان دائماً ذكياً جداً. أول شيء ضده هو أن الدكتور كينيدي يعتقد أنه كان لدى أفليك بداية جنون الاضطهاد، أي أنه لم يكن طبيعياً تماماً. وقد أخبرنا عن نفسه وعن علاقته بهيلين، ولكن لنتفق الآن على أن ما قاله لم يكن سوى مجموعة أكاذيب وأنه كان يحب هيلين بجنون. ولكنها لم تكن تحبه بل كانت تسلّي نفسها فحسب، فقد كانت مجنونة رجال كما تقول الآنسة ماربل...

قاطعتها الآنسة ماربل قائلة: لا يا عزيزتي، أنا لم أقل ذلك، لم أقل شيئاً من هذا القبيل قط.

غويندا: حسناً، لنقل إنها كانت لَعوباً إن كنت تفضّلين هذا التعبير. ولنقل إنها كانت لها علاقة مع جاكي أفليك ثم أرادت أن تبعده عنها ولم يكن هو راغباً بالابتعاد، وقد أخرجها أخوها من ورطتها لكن جاكي أفليك لم يكن ليغفر أو ينسى، لقد فَقَدَ وظيفته (بما قال إنه تهمةٌ لفّقها له أحدهم) وهذا يُظهر علامات أكيدة على جنون الاضطهاد لديه.

غايلز: نعم، ولكن -من ناحية أخرى- إذا كان هذا صحيحاً فإنه يشكّل مؤشراً إضافياً ضد فين، إنها نقطة مهمة تماماً.

غويندا: وسافرت هيلين إلى الخارج وتركت ديلماوث، لكنه لم ينسَها. وعندما عادت إلى ديلماوث متزوّجة ذهب وزارها. في البداية قال إنه ذهب مرة واحدة لكنه اعترف لاحقاً أنه ذهب أكثر من مرة. آه يا غايلز، ألا تتذكر؟ لقد استعملت إيديث باجيت عبارة مثل

«الرجل الغامض ذي السيارة الفخمة». هل فهمت؟ لقد كان يتردد إلى الحد الذي جعل الخدم يتحدثون بذلك. ولكن هيلين حرصت على أن لا تدعوه إلى وجبة طعام وأن لا تدَعه يقابل كيلفين. ربما كانت خائفة منه، ربما...

قاطعها غايلز قائلاً: يمكن أن نفترض أيضاً أنه أراد منها أن تهرب معه لكنها رفضت، وهكذا... وهكذا قتلها! لقد قالت ليلي في رسالتها إلى الدكتور كينيدي إنّ سيارة فخمة كانت تقف في الخارج في تلك الليلة، فلعلها كانت سيارة جاكي أفليك. إذن فإن جاكي أفليك كان في «مسرح الحدث» أيضاً، إنه افتراض ولكنه يبدو لي افتراضاً معقولاً.

توقف غايلز قليلاً ثم قال بتأمل: ولكن تبقى قضية رسائل هيلين التي ينبغي أن نضعها في مكانها الصحيح في إعادة تركيبنا للأحداث. لقد اجتهدتُ في التفكير بما أسمته الآنسة ماربل «الظروف» التي ربما تمّ إغراء هيلين في ظلها بكتابة تلك الرسائل، ويبدو لي أن علينا -إن أردنا تفسير تلك الرسائل- أن نفترض بأنها كانت تتوقع الهرب مع شخص ما. سنختبر رجالنا الثلاثة المشتبه بهم ثانية. لنبدأ بإيرسكين ولنقل إنه لم يوافق على ترك زوجته وتدمير بيته ولكن هيلين وافقت على ترك كيلفين هاليدي والذهاب إلى مكان ما حيث يمكن لإيرسكين أن يأتي ويكون معها من وقت لآخر... في هذه الحالة فإن أول ما يمكن أن يخطر بالبال هو تطمين شكوك السيدة إيرسكين، وهكذا كتبت هيلين رسالتين لتصلا إلى أخيها وتجعلا الأمر يبدو كما لو أنها قد سافرت إلى الخارج مع شخص

ما. وهذا يتفق بشكل جيد جداً مع الغموض الذي أبدته فيما يتعلق بهوية الرجل صاحب الشأن.

سألته غويندا: إن كانت ستترك زوجها من أجله فلماذا قتلها؟

- ربما لأنها غيرت رأيها فجأة وقررت أنها مهتمة فعلاً بزوجها في نهاية المطاف، فانفجر غضبه فجأة وخنقها، ثم أخذ الملابس والحقيبة واستعمل الرسائل! هذا تفسير يمكن أن يغطي كل شيء. ولكن الأمر نفسه قد ينطبق على وولتر فين... أتخيّل أن الفضيحة قد تكون لها آثار مدمّرة تماماً بالنسبة لمحام محليّ. قد تكون هيلين وافقت على الذهاب إلى مكان قريب حيث يمكن لفين أن يزورها، ولكنها تظاهرت بالسفر إلى الخارج مع شخص ما. وبعدما تمّ تحضير الرسائل غيّرت رأيها -كما أشرت- فغضب وولتر غضباً شديداً وقتلها.

- وماذا عن جاكي أفليك؟

قال غايلز بتأمل: إنه لأكثر صعوبة أن نجد سبباً للرسائل في حالته لأنني لا أتخيل أن الفضيحة كانت ستؤثر فيه. ربما لم تكن هيلين خائفة منه بل من أبيك، وهكذا فكرت أن من الأفضل أن تتظاهر بالسفر إلى الخارج! أو ربما كانت زوجة أفليك هي التي تمتلك الأموال في ذلك الوقت وكان يريد أموالها ليستثمرها في أعماله... آه، إن هناك كثيراً من الاحتمالات في قضية الرسائل تلك.

سألت غويندا: أي خيار تتخيلينه صحيحاً يا آنسة ماربل؟ لا أظن حقاً أنه وولتر فين ولكن مع ذلك...

دخلت السيدة كوكر لتجمع أكواب الشاي وقالت: صحيح يا سيدتي، لقد نسيت تماماً بسبب هذه المشكلة وقتل امرأة مسكينة وأنت والسيد ريد منشغلان ومتورطان في القصة... لقد كان السيد فين هنا عصر هذا اليوم وسأل عنك وانتظر ما يقرب من نصف ساعة. بدا وكأنه يعتقد أنك كنت تتوقعين حضوره.

قالت غويندا: يا لغرابة ذلك! في أية ساعة؟

السيدة كوكر: لا بد أنها كانت الرابعة عصراً أو بعدها بقليل. وبعد ذلك جاء سيد آخر في سيارة ضخمة صفراء وكان متأكداً من أنك تنتظرين زيارته ولم يصدّق كلامي بأنك لست هنا، وقد انتظر عشرين دقيقة. تساءلت إن كانت قد خطرت لك فكرة إقامة حفلة شاي ثم نسيتها مثلاً.

غويندا: لا. ما أغرب ذلك!

قام غايلز واتصل بوولتر فين: هالو، هل هذا فين يتكلم؟ معك غايلز ريد. لقد سمعت أنك حضرت لرؤيتنا عصر اليوم. ماذا؟... لا، أنا متأكد من ذلك... أبداً، هذا غريب تماماً. نعم، أنا أتساءل أيضاً...

ثم أعاد السماعة إلى مكانها وقال: هذا أمر غريب؛ لقد تمّ الاتصال بمكتبه هذا الصباح وتُركت له رسالة تطلب منه أن يأتي لرؤيتنا عصر اليوم لأمر مهم!

حدّق إلى غويندا فقالت: اتصل بأفليك.

ذهب غايلز إلى الهاتف مرة أخرى وطلب الرقم: السيد أفليك؟ أنا غايلز ريد... إنني...

بدا واضحاً في هذه المرة أنه قد قوطع بسيل من الكلام من الطرف الآخر!

غايلز: ولكننا لم نتصل. لا، أؤكد لك... لا شيء من هذا القبيل. نعم، نعم، أعرف أنك رجل كثير المشاغل. لم أكن لأتصور ذلك... نعم، ولكن اسمعني: مَن الذي اتصل بك، رجل؟... لا، أقول لك إنه ليس أنا. فهمت، أوافقك الرأي... إنه أمر غريب تماماً.

أعاد السماعة إلى مكانها وعاد إلى الطاولة قائلاً: حسناً، ها هي القصة. شخصٌ ما يبدو أنه رجل ادّعى أنه أنا وخابر أفليك وطلب منه أن يأتي إلينا هنا، قائلاً إن الأمر طارئ ومستعجَل وإنه ينطوي على مبلغ كبير من المال!

تبادل الجميع النظرات ثم قالت غويندا: يمكن أن يكون أيٌّ منهما هو الفاعل. ألا ترى يا غايلز؟ أحدهما كان بوسعه أن يقتل ليلي ثم يأتي إلى هنا لإثبات غيابه عن مكان الجريمة.

تدخلت الآنسة ماربل قائلة: يصعب اعتبار هذا إثبات غياب يا عزيزتي.

غويندا: لا أقصد أنه إثبات غياب كامل ولكنه عذر لغيابهما عن مكتبيهما. ما أعنيه هو أن واحداً منهما يقول الحقيقة والآخر يكذب، واحد منهما اتصل بالآخر وطلب منه المجيء إلى هنا لكي يجعل الشكوك تحيط به، ولكننا لا نعرف أيهما هو ذاك. إنها مسألة واضحة الآن بين هذين الاثنين: فين أو أفليك، وأنا أقول إنه جاكي أفليك.

قال غايلز: أظنه وولتر فين.

نظر الاثنان إلى الآنسة ماربل التي هزّت رأسها بالنفي وقالت: لكن يوجد احتمال ثالث.

هتف غايلز: طبعاً، إيرسكين!

ثم هُرع إلى جهاز الهاتف قائلاً: يجب أن نعرف. إن كان إيرسكين هناك فلا يمكن أن يكون قد قتل ليلي كيمبل بعد ظهر اليوم، فلا توجد طائرات خاصة لتحمله إلى هنا.

انتظر الجميع بصمت حتى رن جرس الهاتف، ورفع غايلز السماعة فسمع عامل المقسم يقول: هل طلبت مكالمة شخصية مع الرائد إيرسكين؟ تكلم رجاء، الرائد بانتظارك.

تنحنح غايلز بعصبية ثم قال: إيرسكين؟ غايلز ريد يتكلم... ريد، نعم.

ثم ألقى نظرة قلقة على غويندا وكأنه يقول: "والآن ماذا أقول؟"، فنهضت غويندا وأخذت السماعة منه وقالت: الرائد إيرسكين؟ معك السيدة ريد. لقد سمعنا عن... عن منزل اسمه لينسكوت، فهل تعرف أي شيء عنه؟ إنه في مكان قريب منكم كما أظن.

إيرسكين: لينسكوت؟ لا، لا أظنني سمعت أبداً به. أين يقع بالضبط؟

- الكتابة غير واضحة بتاتاً... أنت تعرف تلك الرسائل الفظيعة التي يرسلها وكلاء العقارات، ولكن الرسالة تقول إنه على بعد خمسة عشر ميلاً من دايث ولذلك ظننا...

- أنا آسف، لم أسمع به أبداً. مَن الذي يسكنه؟

- آه، إنه فارغ. ولكن لا تُلقِ بالاً لذلك على أي حال. أنا آسفة جداً على إزعاجك، أظن أنك كنت مشغولاً.

- لا، أبداً. على الأقل لم أكن مشغولاً إلاّ في شؤون البيت، فزوجتي مسافرة وطباختنا اضطرت للذهاب إلى والدتها، ولذلك كنت أعالج أمور البيت الروتينية وأظنني لست خبيراً بها كثيراً. إنني أكثر خبرة في تنظيم الحديقة.

- أرجو أن لا تكون زوجتك مريضة؟

- آه، لا؛ لقد استدعتها إحدى أخواتها وستعود غداً.

- حسناً، طابت ليلتك وأنا آسفة جداً على إزعاجك.

ثم أرجعت السماعة إلى مكانها وقالت بلهجة المنتصر: إيرسكين خارج المسألة؛ فزوجته مسافرة وهو يؤدي أعمال البيت الروتينية. وهكذا ينحصر الأمر بين الاثنين الآخرين. أليس كذلك يا آنسة ماربل؟

بدت الآنسة ماربل متجهمة هادئة وقالت لهما: لا أظن يا عزيزيّ أنكما أوليتما المسألة ما يكفي من التفكير. آه، إنني قلقة جداً. لو أنني أعرف ماذا أفعل...

* * *

الفصل الرابع والعشرون
براثن القرد

-١-

اتكأت غويندا على الطاولة بمرفقَيها ووضعت ذقنها بين كفيها بينما تجولت عيناها بهدوء على بقايا غداء خفيف. عليها الآن أن تتعامل مع هذه البقايا، تحملها إلى حجرة غسل الأطباق وتغسلها وتعيد كل شيء إلى مكانه، وبعدها سترى ما عندها من أجل العشاء.

ولكن لم تكن في الأمر عَجَلة. شعرت بأنها تحتاج إلى بعض الوقت حتى تفهم الأشياء، فقد كان كل شيء يحدث سريعاً جداً. بدت أحداث الصباح -عندما استعادتها في عقلها- فوضوية ومستحيلة؛ لقد حدث كل شيء بشكل سريع جداً وبعيد عن الاحتمال.

ظهر المفتش لاست مبكراً في التاسعة والنصف صباحاً، وأتى معه مفتش التحري برايمر من المركز الرئيسي ورئيسُ شرطة المنطقة، ولم يبقَ هذا الأخير طويلاً. كان المفتش برايمر هو

المسؤول الآن عن قضية ليلي كيمبل القتيلة وكل ما يتشعب عنها.

وقد كان المفتش برايمر، ذلك الرجل ذو الأسلوب اللطيف الخادع والصوت الناعم المعتذر، هو الذي سألها إن كانت لا تمانع في أن يقوم رجاله ببعض الحفريات في الحديقة. بدت نبرة صوته أشبه بنبرة مَن يطلب من رجاله القيام ببعض التمرينات المنشّطة وليس بالبحث عن جثة امرأة ميتة مضى على دفنها ثمانية عشر عاماً.

تكلم غايلز وقتها فقال: أظن أننا ربما استطعنا مساعدتك باقتراح أو اقتراحين.

ثم أخبر المفتش عن تغيير مكان الدرجات المفضية إلى الأرض العشبية وأخذ المفتش معه إلى المصطبة في الخارج، وقد نظر المفتش إلى النافذة ذات القضبان الحديدية في الطابق الأول في ركن البيت وقال: أظن أن هذه هي غرفة الطفل؟

وأجاب غايلز بأنها فعلاً كذلك. ثم عاد المفتش وغايلز إلى البيت وخرج رجلان معهما مجرفتان إلى الحديقة، وقال غايلز قبل أن يبدأ المفتش بطرح الأسئلة: أظن -أيها المفتش- أن من الأفضل أن تستمع إلى شيء لم تذكره زوجتي لأحد حتى الآن باستثنائي أنا و... وشخص آخر.

استقرت نظرة المفتش برايمر اللطيفة والمحرِّضة بعض الشيء على غويندا. كان في نظرته مسحة من التأمل، وفكرت غويندا بأنه يسأل نفسه قائلاً: "هل هذه امرأة يُعتمَد عليها أم أنها من النوع الذي يتخيل الأشياء؟". شعرت بهذا الإحساس بقوة بحيث بدأت حديثها

بطريقة دفاعية: ربما كنتُ قد تخيلت ذلك ولكنه يبدو واقعياً إلى درجة مخيفة.

قال المفتش برايمر بنعومة واسترضاء: حسناً يا سيدة ريد، دعينا نسمع القصة.

شرحت له غويندا القصة. كيف بدا لها البيت مألوفاً عندما رأته لأول مرة وكيف علمت لاحقاً بأنها قد عاشت فيه بالفعل عندما كانت طفلة، وروت كيف تذكرت ورق جدران غرفة الطفل والباب الموصل بين الغرفتين والشعور الذي عرض لها موحياً بأنه يجب أن تكون هناك درجات تفضي إلى أرضية الحديقة.

كان المفتش برايمر يهز رأسه بالإيجاب. لم يقل إن ذكريات غويندا الطفولية لم تكن مثيرة بشكل خاص ولكن غويندا تساءلت إن كان يفكر بذلك في سره.

ثم استجمعت غويندا قواها لتدلي بتصريحها الأخير، فشرحت كيف تذكّرَتْ فجأة وهي جالسة في المسرح، وكيف كانت تنظر من خلال الدرابزين في «هيلسايد» وكيف رأت امرأة ميتة في الصالة، ثم قالت: لقد كانت ذات وجه أزرق مخنوق وشعر ذهبي... وكانت هي هيلين! ولكن ذلك كان غباء شديداً، فأنا لم أكن أعرف من تكون هيلين في ذلك الوقت.

بدأ غايلز بعبارة: "إننا نظن أن..." ولكن المفتش برايمر رفع له يداً ناهية بطريقة آمرة غير متوقَّعة ثم قال: رجاءً، دع السيدة ريد تخبرني بكلماتها هي.

مضت غويندا متعثرة متوردة الوجه، والمفتش برايمر يساعدها بلطف على البوح بما في صدرها مستخدماً براعة لم تقدّرها غويندا بما تستحقه كأداء تقني رفيع المستوى.

وعندما وصلت إلى ما رأته في المسرح وكيف ذكّرها ذلك المشهد بالحادث قال المفتش برايمر وهو يفكر: ويبستر؟ همم، مسرحية «دوقة مالفي»... براثن قرد؟

قال غايلز: ولكن ذلك ربما كان كابوساً.

برايمر: رجاءً يا سيد ريد.

غويندا: ربما كان الأمر كله كابوساً.

برايمر: لا؛ لا أظنه كان كذلك. سيكون من الصعب تفسير موت ليلي كيمبل إن لم نفترض أن امرأة قد قُتلت في هذا البيت.

وقد بدا ذلك معقولاً جداً، بل يكاد يكون مريحاً بحيث أسرعت غويندا في قصتها: ولم يكن والدي هو الذي قتلها، لم يكن هو بالفعل. حتى الدكتور بينروز يقول إن أبي لم يكن من ذلك النوع وإنه لم يكن ليقتل أحداً، وأيضاً الدكتور كينيدي كان واثقاً تماماً من أن أبي لم يفعلها وأنه ربما ظنّ فقط أنه فعل ذلك. وهكذا فأنت ترى أن القاتل كان شخصاً أراد أن يبدو الأمر وكأن والدي قد فعلها. ونحن نظن أننا نعرف من هو، إنه واحد من شخصين اثنين...

قاطعها غايلز: غويندا، لا يمكننا حقاً أن...

برايمر: أتساءلُ -يا سيد ريد- إن كنت لا تمانع بالخروج إلى

الحديقة لترى إلى أين وصل رجالي في عملهم. قل لهم إنني أنا الذي أرسلتك.

أغلق الباب المفضي إلى المصطبة بعد خروج غايلز وأقفله بالمزلاج ثم عاد إلى غويندا فقال: أخبريني الآن بكل أفكارك يا سيدة ريد، ولا تهتمي إن كانت غير متجانسة بعض الشيء.

أخرجت غويندا كل ما لديها؛ كل التقديرات والنقاشات التي قامت بها مع غايلز والخطوات التي قطعاها لمعرفة كل ما يستطيعانه عن الرجال الثلاثة الذين كانت لهم أهمية في حياة هيلين هاليدي والنتائج النهائية التي توصلا إليها، وروت كيف تمت مخابرة وولتر فين وجاكي أفليك كليهما باسم غايلز حيث تم استدعاؤهما إلى «هيلسايد» في عصر اليوم السابق. ثم قالت: ولكن لا شك أنك ترى أن أحداً منهما ربما كان يكذب أيها المفتش، أليس كذلك؟

قال لها المفتش بصوت لطيف مُتعَب قليلاً: تلك هي واحدة من الصعوبات الرئيسية في عمل كعملي؛ كثير من الناس ربما كانوا يكذبون، والكثير منهم عادة ما يكذبون بالفعل... مع أنهم لا يقومون بذلك للأسباب التي قد تفترضينها دائماً. بل إن بعض الناس لا يكادون يلاحظون أنهم يكذبون!

غويندا: هل تعتقد أنني من هذا النمط؟

طرحت غويندا سؤالها بخشية، فابتسم المفتش وقال: أعتقد أنك شاهد مخلص جداً يا سيدة ريد.

- وهل تقدّر أنني مصيبة في مسألة القاتل؟

تنهد المفتش وقال: إنها ليست مسألة تقدير، ولا سيما عندنا نحن الشرطة. إنها مسألة تأكد وتمحيص: أين كان كل إنسان، ما هي التفسيرات التي يقدمها كل واحد لتحركاته... في هذه الحالة -مثلاً- نحن نعرف بدقة كافية ضمن حدود عشر دقائق تقريباً الوقتَ الذي قُتلت فيه ليلي كيمبل: ما بين الساعة الثانية وعشرين دقيقة والساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة. بوسع أي امرئ أن يقتلها ثم يأتي إلى هنا بعد ظهر أمس. وأنا لا أرى -شخصياً- أيّ سبب لتلك المكالمات الهاتفية، فهي لا تعطي أياً من الشخصين اللذين ذكرتِهما عذر غياب عن مكان الجريمة وقت وقوعها.

- ولكنك ستتوصل إلى معرفة ما كانا يفعلانه في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ بين الثانية والثلث والثالثة إلاّ ربعاً... سوف تسألهما.

ابتسم المفتش برايمر وقال: كل الأسئلة الضرورية يا سيدة ريد، يمكنك التأكد من ذلك. كل شيء في وقته المناسب... ليس من المفيد استعجال الأمور؛ على المرء أن يرى الطريق أمامه.

- نعم، فهمت؛ ذلك لأنك محترف وغايلز وأنا مجرد هاويين. ربما توصلنا إلى ضربة حظ ولكن لم نكن لنعرف كيف نتابع الأمر حقاً.

برايمر: شيء من هذا القبيل يا سيدة ريد.

ابتسم المفتش ثانية ثم نهض وفتح الباب المفضي إلى المصطبة، وفيما كان يهمّ بالخروج منه توقف فجأة ككلبِ صيدٍ شمّ رائحةً طريدة كما تخيلته غويندا.

برايمر: اعذريني يا سيدة ريد... أليست تلك العجوز هي الآنسة جين ماربل؟

اقتربت غويندا لتقف بجانبه، وفي آخر الحديقة كانت الآنسة ماربل ما تزال تشن حرباً خاسرة على اللبلاب.

- نعم، هذه الآنسة ماربل. إنها لطيفة جداً بمساعدتنا في الحديقة.

- الآنسة ماربل... نعم، فهمت!

وعندما نظرت إليه غويندا متسائلة وقالت: "إنها عزيزة علينا" أجابها برايمر: إنها سيدة مشهورة جداً هذه الآنسة ماربل. لقد وضعت قادة شرطة ثلاث مقاطعات على الأقل في جيبها. إنها لم تضع قائد شرطتي بعد، ولكنني أستطيع القول بأن دوره آتٍ لا محالة! إذن فالآنسة ماربل قد وضعت يدها في هذه الطبخة؟

- لقد قدمت العديد من المقترحات المفيدة.

- نعم، أراهن أنها فعلت ذلك. وهل كانت هي التي اقترحت مكان البحث عن جثة هيلين؟

- لقد قالت إنه كان علينا أنا وغايلز أن نعرف تماماً أين يجب البحث، وبالفعل فقد بدا أننا كنا غبيَّين لعدم تفكيرنا بذلك من قبل.

أطلق المفتش ضحكة ناعمة قصيرة ثم ذهب ليقف قرب

الآنسة ماربل وقال: لا أظن أننا تعارفنا يا آنسة ماربل، ولكن الكولونيل ميلروز ذكرك لي ذات يوم.

انتصبت الآنسة ماربل متورّدة الوجه ممسكةً بقبضة من النباتات المتسلقة وقالت: آه، نعم. الكولونيل العزيز ميلروز. لقد كان دوماً في غاية اللطف، منذ أن...

- منذ أن قُتِل وكيل الكنيسة في مكتب الكاهن. مضى على ذلك زمن طويل، ولكنك حققت نجاحات أخرى منذ ذلك الوقت: مشكلة قلم الحبر المسموم مثلاً قرب لايمستوك.

- يبدو أنك تعرف الكثير عني أيها المفتش...

- برايمر، هذا هو اسمي. وقد كنتِ مشغولة هنا كما أظن؟

- حسناً، إنني أحاول القيام بما أستطيعه في الحديقة. إنها مهمَلة بشكل مؤسف، فهذا اللبلاب -مثلاً- نبات خبيث سيء.

ثم أضافت وهي تنظر إلى المفتش بكل جِدّ: إن جذوره تضرب عميقاً تحت الأرض، توغل بعيداً جداً وتجري تحت التربة.

- أظنك محقة في ذلك؛ توغل بعيداً جداً، توغل بعيداً إلى الوراء... أعني هذه الجريمة: ثمانية عشر عاماً.

الآنسة ماربل: وربما قبل ذلك. تضرب جذورها عميقاً تحت الأرض... وهي مؤذية بشكل مخيف أيها المفتش، تعتصر الحياة من الزهور المتفتحة الجميلة.

اقترب أحد عناصر الشرطة عبر الممر. كان يرشح عرقاً وعلى

جبينه لطخة من التراب، وقال: لقد توصلنا إلى شيء يا سيدي. يبدو أنها هي بلا ريب.

-٢-

فكرت غويندا أنه في ذلك الوقت بالذات بدأت النوعية الكابوسية لهذا اليوم، فقد قال غايلز وقد دخل شاحب الوجه: إنها... إنها هناك بالفعل يا غويندا.

ثم وصل الطبيب الشرعي بعد قليل، وهو رجل مربوع جمُّ النشاط.

وفي ذلك الوقت خرجت السيدة كوكر، السيدة كوكر الهادئة رابطة الجأش، خرجت إلى الحديقة. ولم تكن مدفوعة في خروجها بالفضول كما قد يتوقع البعض، بل لمجرد البحث عن بعض أعشاب الطبخ للوجبة التي كانت تعدها للغداء. والسيدة كوكر التي كان رد فعلها تجاه نبأ جريمة القتل بالأمس مزيجاً من الصدمة والاستهجان والقلق من تأثير ذلك في صحة غويندا (لأن السيدة كوكر قررت أن غرفة الطفل في الطابق العلوي ينبغي أن تُسكَن بعد مضي الأشهر التسعة المطلوبة لذلك)... السيدة كوكر هذه مشت تماماً فوق موقع الاكتشاف الرهيب، وسرعان ما أصبحت في وضع غريب إلى حد مقلق.

كان الجزع ظاهراً في صوتها وهي تقول: إن هذا لفظيع جداً يا سيدتي... العظام أمر لا أستطيع تحمله أبداً. ليس عظام الهيكل البشري... وهنا في الحديقة، تماماً قرب أوراق النعنع التي كنت أقطفها! إن قلبي ينبض بمعدلات رهيبة ولا أكاد أستطيع سحب

أنفاسي... إذا غفرت لي جرأتي فإنني أحتاج قليلاً من عصير الليمون.

اندفعت غويندا وقد أقلقها لهاث السيدة كوكر ولونها الرمادي فعمدت إلى زجاجة عصير الليمون على الطاولة وسكبت بعضاً منها وأحضرته إلى السيدة كوكر لترتشفه.

قالت السيدة كوكر: "هذا هو ما كنت أحتاج إليه تماماً يا سيدتي". وبعدها وبشكل مفاجئ تماماً خانها صوتُها وبدا شكلها مخيفاً جداً بحيث صرخت غويندا طالبة غايلز وصرخ غايلز طالباً الطبيب الشرعي!

فيما بعد قد قال الطبيب: لحسن الحظ أنني كنت هنا. لقد كانت حالتها خطيرة، ولو لم يكن بقربها طبيب لماتت تلك المرأة في التوّ واللحظة!

بعدها أخذ المفتش برايمر زجاجة الليمون، ثم انشغل هو والطبيب في مشاورات بشأنها وسأل غويندا متى شربت هي أو غايلز من تلك الزجاجة لآخر مرة، فأجابت غويندا قائلة إنها تظن أنهما لم يشربا منها منذ بضعة أيام، فقد كانا مسافرَين في الشمال وكانا يفضّلان -غالباً- الشاي على عصير الليمون. ثم قالت: على أنني كدت أشرب بعض الليمون بالأمس لولا أنه ذكّرني بالسفن البخارية، وهكذا فقد شربت الشاي بدلاً منه.

قال برايمر: لقد كان ذلك من حسن حظك يا سيدة ريد؛ فلو أنك شربت عصير الليمون بالأمس لما كنتِ حية اليوم.

غويندا: لقد أوشك غايلز على شرب شيء منه ولكنه شرب الشاي معي أخيراً.

ارتجفت غويندا!

-٣-

حتى الآن، وهي وحيدة في البيت وقد ذهب الشرطة وذهب غايلز معهم بعد غداء مختصَر تم تحضيره من المعلبات على عجل بعدما نُقلت السيدة كوكر إلى المستشفى... حتى الآن لا تكاد غويندا تصدق أحداث الصباح الصاخبة.

شيء واحد برز واضحاً: وجود وولتر فين وجاكي أفليك في البيت يوم أمس، حيث كان بوسع أي منهما أن يعبث بزجاجة الليمون. وماذا كان الهدف من المكالمات الهاتفية ما لم تهدف إلى إعطاء أحدهما فرصة لتسميم زجاجة الليمون؟ كانت غويندا وغايلز يقتربان من الحقيقة كثيراً... أم أن شخصاً ثالثاً دخل من الخارج عبر نافذة غرفة الطعام المفتوحة بينما كانت هي وغايلز جالسَين في بيت الدكتور كينيدي ينتظران التزام ليلي كيمبل بموعدها؟ شخص ثالث قام باختراع قصة المكالمات الهاتفية لكي يوجه الشبهة إلى الاثنين الآخرين؟

وفكرت غويندا بأن مسألة وجود شخص ثالث ليست معقولة لأن شخصاً ثالثاً كان سيهاتف واحداً من الرجلين فقط. كان من شأن رجل ثالث أن يرغب في مشتبَه واحد لا في اثنين! ومهما كان الأمر فمَن عساه يكون شخصاً ثالثاً؟ إيرسكين كان في نورثمبرلاند

بلا شك. إما أن وولتر فين هاتف أفليك وادّعى بأنه هو أيضاً تلقى مكالمة هاتفية أو أن أفليك هاتَفَ فين ومارس الادعاء نفسه... إنه واحد من هذين الاثنين.

ارتجفت غويندا مرة أخرى؛ كان الأمر يتطلب بعض الاعتياد على فكرة أن أحداً قد حاول قتلها! لقد قالت الآنسة ماربل منذ زمن بعيد إن الوضع خطير، ولكنها وغايلز لم يحملا فكرة الخطر على محمل الجد بالفعل. وحتى بعد أن قُتلت ليلي كيمبل لم يخطر لها أن أحداً سيحاول أن يقتلها أو يقتل غايلز، لمجرد أنها وغايلز كانا يقتربان كثيراً من حقيقة ما حدث قبل ثمانية عشر عاماً، يحاولان اكتشاف ما حدث وقتها ومَن الذي جعله يحدث.

وولتر فين وجاكي أفليك... أيهما؟

أغلقت غويندا عينيها لتراهما مجدداً في ضوء معرفتها الجديدة. وولتر فين الهادئ يجلس في مكتبه، هادئ جداً وذو مظهر مسالم غير مؤذ... بيت أسدلت ستائره! لَكَمْ بدا وولتر فين شريراً مخيفاً الآن... وولتر فين الذي رمى نفسه ذات يوم فوق أخيه... وولتر فين الذي رفضت هيلين باحتقار أن تتزوجه، مرة هنا ومرة أخرى في الهند. صدٌّ مزدوج وخزي مزدوج... وولتر فين الهادئ جداً الخالي جداً من العواطف، الذي قد لا يستطيع أن يعبّر عن نفسه إلاّ في عنف قاتل مفاجئ!

فتحت غويندا عينيها. لقد أقنعت نفسها بأن وولتر فين هو الرجل المطلوب، أم أنها لم تقنع نفسها بعد؟

بوسع المرء أن يفكر بأفليك ولكن بعينين مفتوحتين لا مغمضتين.

بدلته الغامقة الأنيقة وأسلوبه المستبد... معاكس تماماً لوولتر فين. ما من شيء مكبوت أو هادئ في أفليك، ولكن ربما كان قد تظاهر بهذا السلوك بسبب عقدة نقص، فالخبراء يقولون إن الأمر يحدث على هذا النحو. إن لم تكن واثقاً من نفسك فسوف تضطر إلى التبجح وتوكيد نفسك وتكون متغطرساً. وقد تخلت عنه هيلين لأنه لم يكن بمستوى جيد يناسبها، والجرح يعتمل ولا يُنسى. التصميم على النجاح في الحياة، عقدة الاضطهاد، الجميع ضده... يُطرَد من وظيفته بسبب تهمة ملفَّقة أعدها «عدو». من المؤكد أن هذا كله يُظهر أن أفليك لم يكن طبيعياً؛ وجهه الطيب المرح كان وجهاً قاسياً حقاً. لقد كان رجلاً قاسياً وزوجته الشاحبة النحيلة تعرف ذلك، لقد كانت خائفة منه! لعل ليلي كيمبل هددته فقُتلت. غويندا وغايلز تدخّلا، فإذن غويندا وغايلز يجب أن يموتا أيضاً، وسوف يورط وولتر فين الذي طرده ذات يوم... إنه تفسير مناسب تماماً.

هزّت غويندا نفسها وخرجت من خيالاتها وعادت إلى الحياة العملية. سيعود غايلز إلى البيت عما قريب؛ ينبغي عليها أن تنظف المائدة وتغسل الأطباق.

أحضرت صينية وأخذت الأواني إلى المطبخ. كان كل شيء في المطبخ متقن الترتيب، لقد كانت السيدة كوكر كنزاً ثميناً بالفعل. على جانب حوض غسيل الأواني كان هناك زوج من القفازات المطاطية الطبية. كانت السيدة كوكر ترتدي زوجاً منها دائماً لأغراض غسل الأطباق وكانت ابنة أختها التي تعمل في المستشفى قد أحضرتهما لها بسعر مخفض.

أدخلت غويندا يديَها في القفازات وبدأت بغسل الأطباق. سيمكّنها هذا من المحافظة على يديها ناعمتين أيضاً. غسلت الأطباق ووضعتها على الرف، ثم غسلت وجففت ما تبقى من الأواني ووضعت كل شيء في مكانه بترتيب. بعد ذلك صعدت إلى الطابق العلوي وهي لمّا تزل تائهة في أفكارها، وفكرت أن بوسعها أيضاً أن تغسل تلك الجوارب وهذين القميصين. ستُبقي القفازين في يديها.

كانت هذه الأشياء في ظاهر عقلها، ولكن -في مكان ما تحت هذه الأشياء- كان ثمّة شيء يقلقها ويلحّ عليها. لقد قالت إنه ولتر فين أو جاكي أفليك، إما هذا وإما هذا، وقد استطاعت بناء سيناريو قضية متكاملة تماماً ضد كل منهما. ربما كان ذلك هو الذي يقلقها حقاً، لأنه كان من المقنع أكثر لو استطاعت بناء قضية متكاملة ضد واحد منهما فقط، إذ كان ينبغي أن يعرف المرء يقيناً بعد هذا الوقت كله أي واحد منهما هو الفاعل... وغويندا لم تكن متأكدة.

لو أنه كان هناك شخص ثالث! ولكن لا يمكن أن يكون هناك أي شخص آخر لأن ريتشارد إيرسكين كان خارج الموضوع؛ لقد كان إيرسكين في نورثمبرلاند عندما قُتلت ليلي كيمبل وعندما تم العبث بعصير الليمون في الزجاجة. نعم، كان ريتشارد إيرسكين خارج الموضوع بالتأكيد. وكانت سعيدة بذلك لأنها تشفق على إيرسكين، كم يبعث على الأسى أن يكون متزوجاً تلك المرأة الرهيبة بعينيها المرتابتين وصوتها العميق الأجش... تماماً كصوت رجل.

كصوت رجل!

التمعت الفكرة في عقلها بتوجس غريب. صوت رجل... هل

يمكن أن تكون السيدة إيرسكين وليس زوجها هي التي ردت على غايلز بالهاتف ليلة أمس؟ لا، طبعاً لا. كانت هي ستعرف ذلك أو غايلز، وعلى كل حال فإن السيدة إيرسكين لم تكن لتعرف مسبقاً من عامل المقسم مَن الذي كان يطلب زوجها. لا، لقد كان إيرسكين هو المتكلم بالطبع وزوجته كانت مسافرة كما قال.

زوجته كانت مسافرة؟

لا، هذا مستحيل! هل يمكن أن تكون السيدة إيرسكين؟ السيدة إيرسكين التي أفقدتها الغيرة عقلها؟ السيدة إيرسكين التي كتبت لها ليلي كيمبل؟ هل كان امرأة ذلك الشخص الذي رأته ليوني في الحديقة في تلك الليلة عندما نظرت من النافذة؟

حينما وصلت إلى هذه النقطة من أفكارها سمعت صوتاً مفاجئاً في الصالة في الأسفل؛ شخصٌ ما دخل من الباب الأمامي.

خرجت غويندا من الحمّام إلى أعلى الدرج ونظرت من فوق الدرابزين، وأحست بالارتياح عندما رأت أنه كان الدكتور كينيدي. صاحت: أنا هنا.

كانت يداها ممتدتين أمامها مبتلّتين، متلألئتين، رماديتين، محمرّتين، غريبتين. وذكّرتاها بشيء ما.

نظر كينيدي إلى الأعلى وقد ظلل عينيه بكفه بسبب نور السقف وقال: أهذه أنت يا غويني؟ لا أستطيع رؤية وجهك... عيناي منبهرتان.

وعندها صرخت غويندا.

-٤-

كانت تنظر إلى براثن القرد الملساء تلك وتسمع ذلك الصوت في الصالة! شهقت: لقد كنت أنت... أنت قتلتها، قتلت هيلين! إنني أعرف الآن. كنت أنت القاتل... كل هذا الوقت. أنت...

صعد الدرج باتجاهها ببطء وهو ينظر إليها ويقول: ألم يكن بوسعك أن تتركيني وشأني؟ ما الذي دفعك إلى التدخل فيما لا يعنيك؟ ما الذي دفعك إلى استحضارها ثانية... تماماً في الوقت الذي بدأت فيه أنسى؟ أنت أحضرتِها ثانية... هيلين التي هي ملك لي! أحييتم القصة كلها ثانية. لقد اضطررت إلى قتل ليلي والآن سأضطر إلى قتلك... كما قتلت هيلين، نعم، كما قتلت هيلين.

كان قد اقترب منها ويداه ممتدتان نحوها، وعرفت أنهما تقصدان رقبتها. ذلك الوجه اللطيف المضحك، ذلك الوجه اللطيف الطبيعي الكهل باقٍ كما هو، أما العينان... لم تكن العينان عاقلتين!

تراجعت غويندا أمامه ببطء وقد تجمّدت الصرخة في حَنجرتها. كانت قد صرخت مرة واحدة ولا تستطيع أن تصرخ ثانية الآن، ولو صرخت لما سمعها أحد لأنه لم يكن في المنزل أحد؛ لا غايلز ولا السيدة كوكر، ولا حتى الآنسة ماربل في الحديقة، لا أحد. والبيت المجاور كان أبعد من أن يسمع صراخها لو صرخت، وهي لا تستطيع الصراخ -على كل حال- لأنها كانت مرعوبة جداً إلى الحد الذي لا تستطيع معه الصراخ، مرعوبة من هاتين اليدين الرهيبتين الممتدتين!

تستطيع أن تتراجع إلى الخلف، إلى باب غرفة الأطفال، وعندها... وعندها ستلتفّ اليدان حول عنقها.

خرجت من بين شفتيها أنّةٌ صغيرة مكتومة يُرثى لها. وعندها، فجأة، توقف الدكتور كينيدي وترنح إلى الخلف عندما أصابته دفقة من الماء المليء بالصابون في وسط عينيه. شهق ورفرف بجفنيه وارتدت يداه إلى وجهه.

- محظوظة جداً...

هتفت الآنسة ماربل متقطّعةَ الأنفاس لأنها كانت قد قفزت الدرج الخلفي صعوداً باندفاع بالغ: محظوظةٌ أنتِ إذ كنتُ أكافح لتوي حشرات المنّ الأخضر على ورود حديقتك!

* * *

الفصل الخامس والعشرون

حاشية استدراكية في توركي

قالت الآنسة ماربل: بالطبع يا عزيزتي غويندا، ما كنت لأحلم أبداً بأن أذهب وأتركك وحيدة في البيت. كنت أعرف أنه كان هناك شخص خطير جداً يمشي طليقاً، وكنت أجري مراقبة بعيدة غير متطفلة... من الحديقة.

غويندا: هل كنت تعرفين أنه هو... طوال الوقت؟

كانوا ثلاثتهم، الآنسة ماربل وغويندا وغايلز، يجلسون على المصطبة الأمامية لفندق إمبيريال في توركي. كانت الآنسة ماربل قد اقترحت «تغيير جوّ»، ووافق غايلز قائلاً إن ذلك سيكون أفضل شيء لغويندا. كما وافقهما في الرأي المفتش برايمر، وهكذا فقد سافروا إلى توركي على الفور.

قالت الآنسة ماربل جواباً على سؤال غويندا: حسناً يا عزيزتي، لقد بدا لي أنه هو المعني بالأمر، لكني لم أجد أي دليل يُعتمَد عليه مع الأسف، مجرد إشارات لا أكثر.

قال غايلز وهو ينظر إليها بفضول: ولكنني لا أستطيع رؤية أي شيء، ولا حتى مؤشرات.

- آه يا عزيزي غايلز! فكر، لقد كان -بدايةً- على مسرح الحدث.

- على مسرح الحدث؟

- نعم، بالتأكيد. عندما أتى إليه كيلفين هاليدي في تلك الليلة كان قد عاد من المستشفى لتوّه. وقد كان المستشفى في ذلك الوقت (كما أخبرنا كثير من الناس) مجاوراً لمنزل «هيلسايد» تماماً، أو لمنزل «سينت كاثرين» كما كان اسمه وقتها. وهذا يضعه في المكان المناسب في الوقت المناسب. ثم إنه كان هناك من الحقائق الصغيرة المهمة مئة حقيقة وحقيقة؛ لقد أخبرَتْ هيلين ريتشارد إيرسكين أنها سافرت لتتزوج وولتر فين لأنها لم تكن سعيدة في بيتها؛ أي غير سعيدة بالعيش مع أخيها. لكن أخاها كان يحبها جداً كما يقول الجميع، إذن فلماذا لم تكن سعيدة؟ لقد أخبركما السيد أفليك بأنه «شعر بالحزن على الفتاة المسكينة»، وأعتقد أنه كان صادقاً تماماً عندما قال ذلك؛ لقد كان مشفقاً عليها بالفعل. لماذا كانت مضطرة إلى الخروج لمقابلة الشاب أفليك بتلك الطريقة السرية؟ الجميع يعترف بأنها لم تكن معجبة به إلى حد الزواج، فهل كان ذلك لأنها لا تستطيع السعي إلى الزواج بالطريقة العادية؟ لقد كان أخوها متزمتاً وقديم الطراز.

ارتجفت غويندا وقالت: لقد كان مجنوناً!

الآنسة ماربل: نعم، لم يكن طبيعياً؛ لقد بلغ به حب أخته حدّ

التملك، وقد صار ذلك الحب مستحوذاً عليه ومؤذياً للفتاة. أراد أن يمتلكها تماماً بحيث لا يأخذها منه أحد غيره! إن مثل هذا الأمر يحدث أكثر مما تظنّان؛ آباء كثيرون لا يريدون لبناتهم أن يتزوجن أبداً! لقد فكرت في ذلك عندما سمعت بقصة شبكة التنس.

غايلز: شبكة التنس؟

- نعم، لقد بدت لي تلك الحادثة مهمة جداً. فكّرْ في تلك الفتاة الشابة وقد عادت من المدرسة إلى البيت وهي توّاقة إلى كل ما تتوق إليه شابة من أنشطة الحياة؛ تريد أن ترى الناس وتسمع كلمة إطراء...

غايلز: وربما كانت فتاة لعوباً إلى حد ما؟

قالت الآنسة ماربل بحدة: لا.

قالتها بتأكيد وحسم، ثم مضت لتقول: هذه الفكرة من أكثر الأشياء شرّاً في هذه الجريمة. إن الدكتور كينيدي لم يقتل أخته مادياً فقط بل قتلها معنوياً أيضاً، ولو فكرتما فيما مضى بدقّة فإنكما ستريان أن الدليل الوحيد على أن هيلين كينيدي كانت مجنونة بالرجال (أو بالأحرى، ما هي الكلمة التي استعملتَها يا عزيزي؟ آه، نعم، لَعوباً) الدليل الوحيد على ذلك جاء من الدكتور كينيدي نفسه عملياً. أنا شخصياً أعتقد أنها كانت فتاة طبيعية تماماً، أرادت أن تعيش حياتها وتستقر مع رجل تختاره، ولا شيء أكثر من ذلك. ثم انظرا إلى الخطوات التي اتخذها أخوها: أولاً كان متزمّتاً بشأن السماح لها بشيء من الحرية، وبعد ذلك وعندما أرادت أن تنظّم بعض مباريات التنس مع أصدقاء لها (وهي رغبة طبيعية تماماً ولا

ضرر فيها) تظاهر بأنه موافق ثم مزّق سرّاً في إحدى الليالي الشبكة وقطّعها، وهو عمل في منتهى الأهمية والسادية. ولكنها كانت تستطيع -رغم ذلك- أن تخرج للعب التنس في أي مكان فاستغلّ فرصة الكشط الذي أصاب قدمها بعد ذلك وهو يعالجها لكي يُلهِبَها بحيث لا تشفى. آه، نعم؛ أظن أنه فعل ذلك... بل إنني واثقة من هذا الأمر في الواقع.

ولكن -لمعلوماتكما- فأنا لا أظن أن هيلين أدركت شيئاً من ذلك كله. كانت تعرف أن أخاها يُكِنّ لها حباً عميقاً ولكن لا أظنها عرفت لماذا كانت تشعر بعدم الارتياح في البيت. لكنها كانت تشعر بذلك، وأخيراً قررت أن تسافر إلى الهند وتتزوج الشاب فين وذلك لمجرد الهرب. الهرب من ماذا؟ لم تكن تعرف؛ كانت أصغر وأبرأ من أن تعرف. وهكذا ذهبت إلى الهند، وفي طريقها قابلت ريتشارد إيرسكين وأحبته. وهنا أيضاً لم تتصرف كامرأة مفتونة بالرجال بل كفتاة محترمة شريفة؛ لم تحرضه على ترك زوجته بل حرضته على عدم فعل ذلك. ولكنها عندما رأت وولتر فين عرفت أنها لا تستطيع الزواج به، ولأنها لم تعرف ماذا تفعل غير ذلك فقد أبرقت إلى أخيها طالِبةً نقوداً للعودة إلى الوطن.

وفي طريق العودة قابلت والدك، وعندئذ برزت طريقة جديدة للهرب، وفي هذه المرة كانت الطريقة واعدة بالسعادة. إنها لم تتزوج والدك بناء على ادعاءات كاذبة يا غويندا. كان هو يتماثل إلى الشفاء من ألم فَقْد زوجة عزيزة عليه وكانت هي تحاول التغلب على علاقة حب فاشلة تعيسة، ويمكن للاثنين أن يساعدا بعضهما البعض. أعتقد أن هناك إيحاء مهمّاً في أنها تزوجت كيلفين هاليدي في لندن،

وبعد ذلك ذهبت إلى ديلماوث لتفضي بالخبر إلى الدكتور كينيدي. لا بد أنه كان لديها شيء من الحدس بأن ذلك سيكون أكثرَ حكمة من الذهاب إلى ديلماوث وإجراء الزواج هناك، وهو الأمر الذي كان يُفترَض أن يكون هو الشيء الطبيعي. وما أزال أعتقد أنها لم تكن تعرف ما الذي كان يدفعها ولكنها كانت تشعر بعدم الارتياح، ولعلها شعرت بأنها ستكون أكثر أمناً وراحة في تقديم الزواج لأخيها كأمرٍ واقع. وقد أحب كيلفين هاليدي الدكتور كينيدي وكان ودوداً جداً معه، ويبدو أن كينيدي بذل كل ما في وسعه ليبدو سعيداً بزواج أخته. ثم استأجر الزوجان بيتاً مفروشاً هناك.

والآن نأتي إلى تلك الحقيقة المهمة جداً، فكرة أن كيلفين كان يتم تخديره بواسطة زوجته. يوجد لذلك تفسيران محتمَلان فقط لأن شخصين فقط كان يمكن أن تسنح لهما فرصة القيام بمثل هذا الشيء؛ إما أن هيلين كانت تضع المخدرات لزوجها بالفعل (وإن كان الأمر كذلك فلماذا؟) وإما أنّ مَن كان يدس المخدر هو الدكتور كينيدي. لقد كان كينيدي طبيبَ هاليدي الخاص كما هو واضح من مراجعة هاليدي له وكانت لهاليدي ثقة بالخبرة الطبية لكينيدي، وفكرة أن زوجته كانت تخدره سراً قد وُضعت بشكل ذكي جداً في عقله من قِبَل كينيدي.

قال غايلز: ولكن هل بوسع أي مخدّر أن يجعل الرجل يتعرض لهلوسات تفيد بأنه يخنق زوجته؟ أعني أنه ليس هناك أي مخدر يمتلك ذلك التأثير الخاص، أليس كذلك؟

الآنسة ماربل: يا عزيزي غايلز، لقد وقعتَ في الفخ ثانية،

فخ تصديق ما قيل لك! ما من دليل إلاّ كلمة الدكتور كينيدي على أن هاليدي قد تعرض لتلك الهلوسة قط. هو نفسه لم يقل ذلك في مذكراته. كانت تنتابه هلوسات، نعم، ولكنه لم يذكر طبيعتها. وأنا أستطيع القول إن كينيدي قد حدّثه عن رجال خَنقوا زوجاتهم بعد مرورهم بمرحلة كالتي كان كيلفين هاليدي يعاني منها.

قالت غويندا: لقد كان الدكتور كينيدي شريراً حقاً.

الآنسة ماربل: أظن أنه كان قد قطع الحد الفاصل بين العقل والجنون في ذلك الوقت. وهيلين، الفتاة المسكينة، بدأت تدرك الأمر. لقد كان أخاها هو الشخص الذي كانت تتكلم معه في ذلك اليوم عندما سمعتها ليلي تقول: «لقد كنت أخاف منك دوماً». كان ذلك بعضاً مما قالته، وقد كان هذا مهماً جداً في القضية. وهكذا صممَت على أن تغادر ديلماوث؛ فأقنعت زوجها بشراء منزل في نورفولك وأقنعته بأن لا يخبر أحداً بالأمر. إن السرية في هذه القضية كانت تعطي دلائل واضحة. كان من الواضح أنها خائفة من أن يعرف بالأمر شخصٌ ما، ولكن هذا لا ينسجم مع نظرية وولتر فين أو نظرية جاكي أفليك ولا ينسجم مع إمكانية تورط ريتشارد إيرسكين أيضاً. لقد كانت تلك السرية تشير إلى شخص أقرب من البيت بكثير!

وفي النهاية قام كيلفين هاليدي (الذي أزعجته تلك السرية وشعر بأنها لا معنى لها) قام بإخبار كينيدي. وبعمله هذا ختم على مصيره الخاص ومصير زوجته، لأن كينيدي لم يكن ليترك هيلين تذهب وتعيش مع زوجها بسعادة. أظن أن فكرته ربما كانت -ببساطة- أن يحطّم صحة هاليدي بالمخدرات، ولكنه عندما أدرك

أن ضحيته وهيلين سوف يهربان منه فقَدَ صوابه فانتقل من المستشفى إلى المنزل، وكان قد أخذ معه زوجاً من القفازات الجراحية فأمسك هيلين في الصالة وخنقها. لم يرَه أحدٌ لأن أحداً لم يكن هناك ليراه، أو هكذا ظن، وهكذا اقتبس وهو يعذّبه الحب والغضب تلك الأسطر التراجيدية التي كانت ملائمة للوضع تماماً.

تنهدت الآنسة ماربل بأسف وقالت: لقد كنت غبية، غبية جداً... جميعنا كنا أغبياء! كان علينا أن نرى فوراً؛ فتلك السطور من مسرحية «دوقة مالفي» **كانت هي الدليل على الأمر كله؛** فقد قالها في المسرحية أخٌ كان قد دبّرَ لتوه موت أخته لينتقم منها بسبب زواجها بالرجل الذي أحبته. نعم، كنا أغبياء!

غايلز: وبعد ذلك؟

الآنسة ماربل: وبعد ذلك مضى في تنفيذ خطته الشيطانية، فحمل الجثة إلى الطابق العلوي ورزم الملابس في حقيبة وكتب ملاحظة ثم رماها في سلة المهملات، كل ذلك ليقنع هاليدي لاحقاً.

قالت غويندا: ولكن كان من الأفضل له أن يُتَّهم أبي بجريمة القتل.

هزت الآنسة ماربل رأسها بالنفي وقالت: آه، لا؛ ما كان ليستطيع المجازفة بذلك. كان لديه الكثير من الفطرة الماكرة وكان يكنّ احتراماً حَذِراً للشرطة، فالشرطة تحتاج إلى كثير من الإقناع قبل أن تصدّق أن رجلاً مذنبٌ في جريمة قتل. ربما كان الشرطة سيسألون الكثير من الأسئلة المزعِجة ويُجرون الكثير من التحقيقات

المخيفة فيما يخص الأوقات والأماكن... لا، كانت هذه الخطة أبسط وأكثر شيطانية كما ظنّ؛ فلم يكن عليه إلا أن يقنع هاليدي بأنه قد قتل زوجته وأنه كان مجنوناً! وقد أقنع هاليدي بالذهاب إلى مصح أمراض عقلية، ولكن لا أظن أنه أراد حقاً أن يقنعه بأن الأمر كان وهماً. لقد قَبِلَ أبوك تلك النظرية بشكل رئيسي -كما أتخيل- من أجلك أنت، ولكنه استمر بالاعتقاد بأنه قتل هيلين ومات وهو يعتقد بذلك.

قالت غويندا بانفعال: الشرير... الشرير!

الآنسة ماربل: نعم، ليست هناك أية كلمة أخرى لوصفه، وأظن -يا غويندا- أن ذلك هو السبب الذي كان وراء بقاء انطباعك الطفولي عمّا رأيته قوياً إلى ذلك الحد؛ كان هناك شر حقيقي في الجوّ في تلك الليلة.

غايلز: والرسائل... رسائل هيلين؟ لقد كانت بخط يدها ولذلك فلا يمكن أن تكون مزوَّرة.

الآنسة ماربل: بالطبع كانت مزورة! ولكنه في هذه النقطة بالذات تذاكى حتى أوقع بنفسه، فقد كان متلهفاً على وقفكما عن تحرياتكما. وربما كان قادراً على تقليد خط هيلين بشكل جيد تماماً ولكن ذلك لم يكن ليخدع خبيراً في الخطوط، ولذلك فإن نموذج خطها الذي أرسله لكما في الرسالة لم يكن خطها أيضاً. لقد كتبه بنفسه ولذلك تطابق الخطان بشكل طبيعي.

غايلز: يا إلهي! لم أفكر بذلك قط.

- نعم، لقد صدّقتَ ما قاله. إنه لمن الخطير حقاً تصديق الناس... أنا لم أصدق أحداً منهم منذ سنوات.

- وزجاجة عصير الليمون؟

- قام بتسميمها يوم ذهب إلى «هيلسايد» ومعه رسالة هيلين وتحدّث معي في الحديقة، فقد كان ينتظر في البيت بينما خرجت السيدة كوكر وأخبرتني أنه هناك. لم يكن ذلك ليأخذ منه أكثر من دقيقة.

- يا إلهي! وقد حثّني على أن آخذ غويندا إلى المنزل وأعطيها عصير الليمون بعدما خرجنا من مركز الشرطة في يوم مقتل ليلي كيمبل! ولكن كيف رتب مسألة لقائها مبكراً؟

- كان هذا بسيطاً جداً. الرسالة الأصلية التي أرسلها لها طلب منها فيها أن تلقاه في وودلي كامب وأن تأتي إلى ماتشينغز هولت في قطار الثانية وخمس دقائق من نقطة تقاطع ديلماوث. وهناك خرج من بين الأشجار على الأغلب، خرج لها وهي تصعد الطريق الترابي وخنقها. وبعدها استبدل برسالته الأصلية التي كانت معها الرسالةَ التي رأيتموها جميعاً والتي طلب منها إحضارها بسبب تعليمات المكان فيها، ثم عاد إلى بيته ليمثّل تلك المسرحية الصغيرة في انتظار قدوم ليلي.

سألتها غويندا: وهل كانت ليلي تهدده حقاً؟ إن رسالتها لا تدل على ذلك بل يبدو منها وكأنها تشك في أفليك.

الآنسة ماربل: ربما كانت تشك به فعلاً. ولكن ليوني، الفتاة

السويسرية، كانت قد تحدثت مع ليلي. وكانت ليوني هي الخطر الوحيد على كينيدي لأنها نظرت من نافذة غرفة الطفل ورأته يحفر في الحديقة، وفي الصباح تحدث معها، ولعله أخبرها بفظاظة أن الرائد هاليدي قد قتل زوجته وأن الرائد هاليدي مجنون، وأنه هو يقوم بإخفاء القضية لمصلحة الطفلة. ولعله قال لها أن تذهب إلى الشرطة إن شعرتْ بأن عليها أن تذهب، ولكن ذلك ما كان ليسرَّها أبداً وربما شعرت برعب فوري من ذكر الشرطة. كانت ليوني تحبكِ كثيراً وكانت لها ثقة تامة بما يراه السيد الطبيب حلاً أفضل، وربما دفع لها كينيدي مبلغاً محترماً من المال ودفعها إلى العودة إلى سويسرا بسرعة. ولكنها وقبل أن تذهب لمَّحت بشيء لليلي يفيد بأن أباك قتل زوجته وأنها رأت الجثة وهي تُدفَن، وهذا الأمر تطابق مع أفكار ليلي في ذلك الوقت، وقد سلّمَت جدلاً بأن كيلفين هاليدي هو الذي رأته ليوني يحفر القبر.

غويندا: ولكن كينيدي لم يعرف ذلك بالطبع.

الآنسة ماربل: طبعاً لم يعرف، ولكنه عندما استلم رسالة ليلي فإن الكلمات التي أرعبته فيها كانت أن ليوني قد أخبرت ليلي بما رأته من النافذة، ولعله قد أصابه الذعر أيضاً بسبب ذكر «السيارة في الخارج».

غويندا: السيارة؟ سيارة جاكي أفليك؟

الآنسة ماربل: وهذا سوء فهم آخر. لقد تذكّرت ليلي (أو ظنت أنها تذكرت) سيارة كسيارة جاكي أفليك تقف خارج الطريق. كان خيالها قد شرع مباشرة في التفكير بالرجل الغامض الذي كان

يأتي لرؤية السيدة هاليدي، ولكن بوجود المستشفى بجوار المنزل تماماً فما من شك في أن الكثير من السيارات كانت تقف على طول الطريق. وينبغي أن نتذكر أن سيارة الدكتور كينيدي كانت تقف خارج المستشفى في تلك الليلة، وربما استنتج فوراً بأن ليلي كانت تعني سيارته! أما صفة «فخمة» فكانت غير ذات معنى بالنسبة له.

غايلز: آه، نعم، بالنسبة لضمير يشعر بالذنب يمكن أن تبدو رسالة ليلي كشكل من الابتزاز. ولكن كيف عرفتِ كل هذه الأشياء عن ليوني؟

زمّت الآنسة ماربل شفتيها وقالت: لقد فقد صوابه. بمجرد أن اندفع الرجال الذين تركهم المفتش برايمر إلى المنزل وأمسكوا به أخذ يسرد القصة مرات ومرات وتحدث عن كل ما قام به، ويبدو مما قاله أن ليوني ماتت بعد وقت قصير جداً من عودتها إلى سويسرا بسبب جرعة كبيرة من بعض الحبوب المنومة. آه، نعم؛ ما كان ليتحمل أية مجازفات.

غويندا: كمحاولته تسميمي بعصير الليمون؟

الآنسة ماربل: لقد كنت خطيرة جداً عليه، أنت وغايلز. ومن حسن حظك أنك لم تخبريه عن ذكرى رؤيتك هيلين ميتة في الصالة. لم يعرف أبداً أنه كان هناك شاهد عيان.

غايلز: وتلك المكالمات الهاتفية مع فين وأفليك، أهو الذي أجراها؟

- نعم؛ لأنه لو تمّ تحقيقٌ في هوية الشخص الذي عبث

بزجاجة العصير فإن أي واحد منهما كان من شأنه أن يكون مشتَبَهاً به ممتازاً، وإن حضر جاكي أفليك بسيارته وحيداً فمن الممكن أن يربطه ذلك بجريمة قتل ليلي كيمبل لأن فين كان غالباً سيقدّم إثبات غياب عن مسرح الجريمة.

غويندا: وهو الذي كان يبدو محباً لي ولا يناديني إلاّ غويني الصغيرة!

- كان عليه أن يلعب دوره. تخيّلي ما الذي كان يعنيه ذلك بالنسبة له: بعد ثمانية عشر عاماً تأتيان -أنت وغايلز- لتسألا أسئلة وتنقّبا في الماضي وتزعجا جريمة قتل كانت تبدو ميتة فيما هي نائمة فقط... جريمة قتل تُستعاد فصولُها! إن صنع ذلك كله أمر خطير إلى حد مخيف يا عزيزيَّ، لقد كنتُ قلقةً عليكما جداً.

غويندا: المسكينة السيدة كوكر، لم تَنْجُ إلاّ بأعجوبة. إنني سعيدة لأنها ستصبح على ما يرام. هل تعتقد بأنها ستعود إلينا يا غايلز بعد كل ما جرى؟

أجابها غايلز بجدية: ستعود إن كان هناك طفل ترعاه.

توردت وجنتا غويندا، وابتسمت الآنسة ماربل ومدت بصرها في الأفق.

قالت غويندا بتأمل: كم كان غريباً أن تحدث الأمور بالطريقة التي حدثت بها. ارتدائي هذين القفازين في يدي، ثم نظري إليهما، ثم حضوره إلى الصالة وقوله تلك الكلمات التي بدت شبيهة تماماً

بتلك العبارات الأخرى: «لا أستطيع رؤية وجهك» ثم بعد ذلك «عيناي منبهرتان»!

ارتعدت وهي تتذكر العبارات القديمة: «غطوا وجهها... إن عيني منبهرتان... لقد ماتت شابة» وقالت: كان هذا سينطبق عليّ... لو لم تكن الآنسة ماربل هناك.

صمتت قليلاً ثم قالت بنعومة: المسكينة هيلين، المسكينة الحبيبة هيلين التي ماتت شابة... هل تدري يا غايلز، إنها لم تعد هناك الآن... في البيت، في الصالة! استطعت أن أشعر بذلك أمس قبل أن نغادر البيت. لم يعد هناك سوى البيت، والبيت يحبنا كثيراً. يمكننا العودة متى رغبنا في ذلك.

* * *

Agatha Christie



Sleeping Murder

الجَريمَة النّائِمَة

أمور غريبة بدأت تحدث مع غويندا بعد انتقالها إلى بيتها الجديد بأمد يسير.

قلق غويندا بدأ يتنامى حين رأت نفسها تعود إلى الماضي مرة بعد أخرى، وزاد من قلقها ذلك الرعب الغامض الذي كانت تحس به كلما همّت بنزول الدرَج إلى الطابق الأرضي.

غويندا تضع مخاوفها بين أيدي الآنسة ماربل، وعلى رأس هذه المخاوف لغز غريب: ذكريات باهتة عن جريمة قتل ارتُكِبت في الماضي البعيد!

MARPLE

الآنسة ماربل

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

Agatha Christie



٢٧

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الأجيال للترجمة والنشر

AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2673-0

9782195726730

US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً